

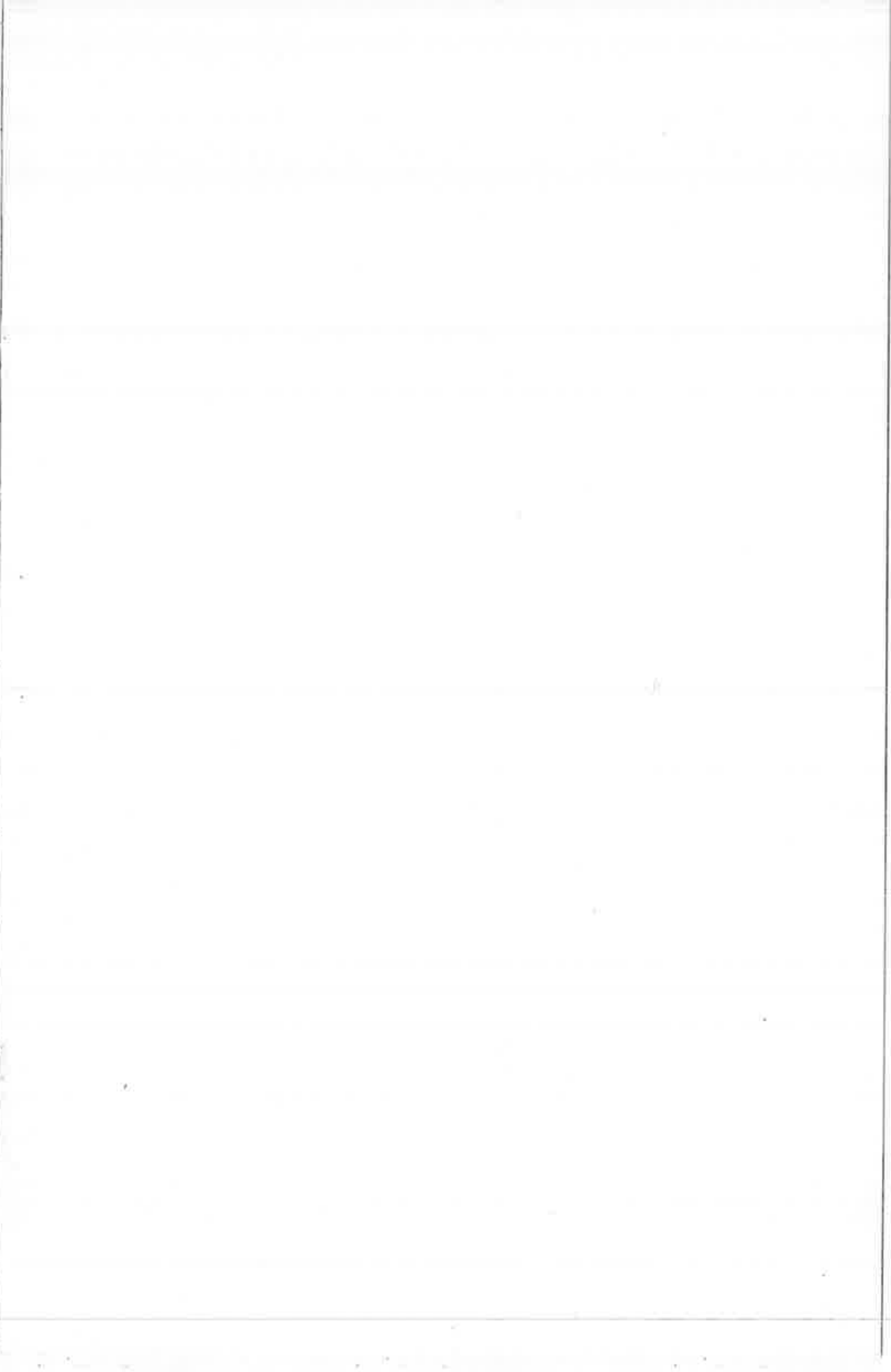
ملحمة البوسنة والهرسك

الجريمة الكبرى

الدكتور
عدنان علي رضا النحوي

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

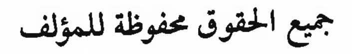
دار النحوي
للنشر والتوزيع



إلى
لقاء المؤمنين
وبناء الجيل المؤمن

ملحمة
البوسنة والهرسك
الجريمة الكبرى

الطبعة الثانية
١٤١٣هـ - ١٩٩٣م
دار النحوي للنشر والتوزيع



الطبعة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

الطبعة الثانية

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

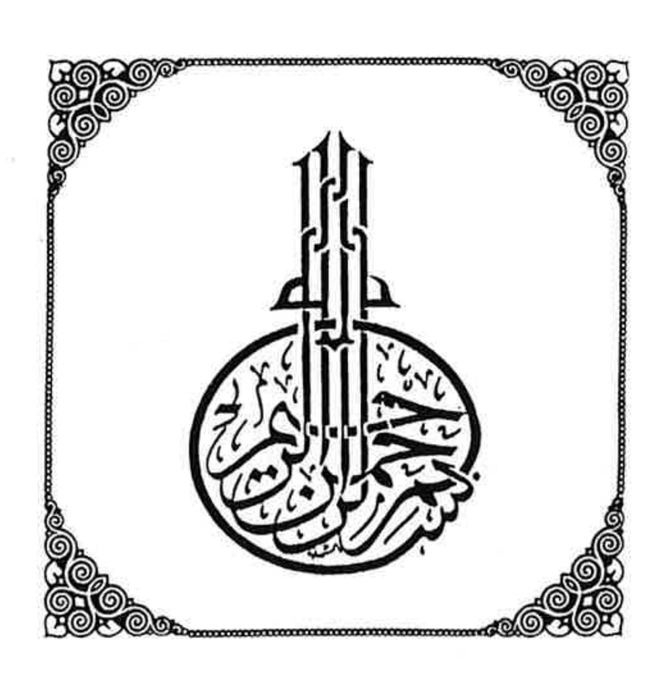


دار النحوي للنشر والتوزيع

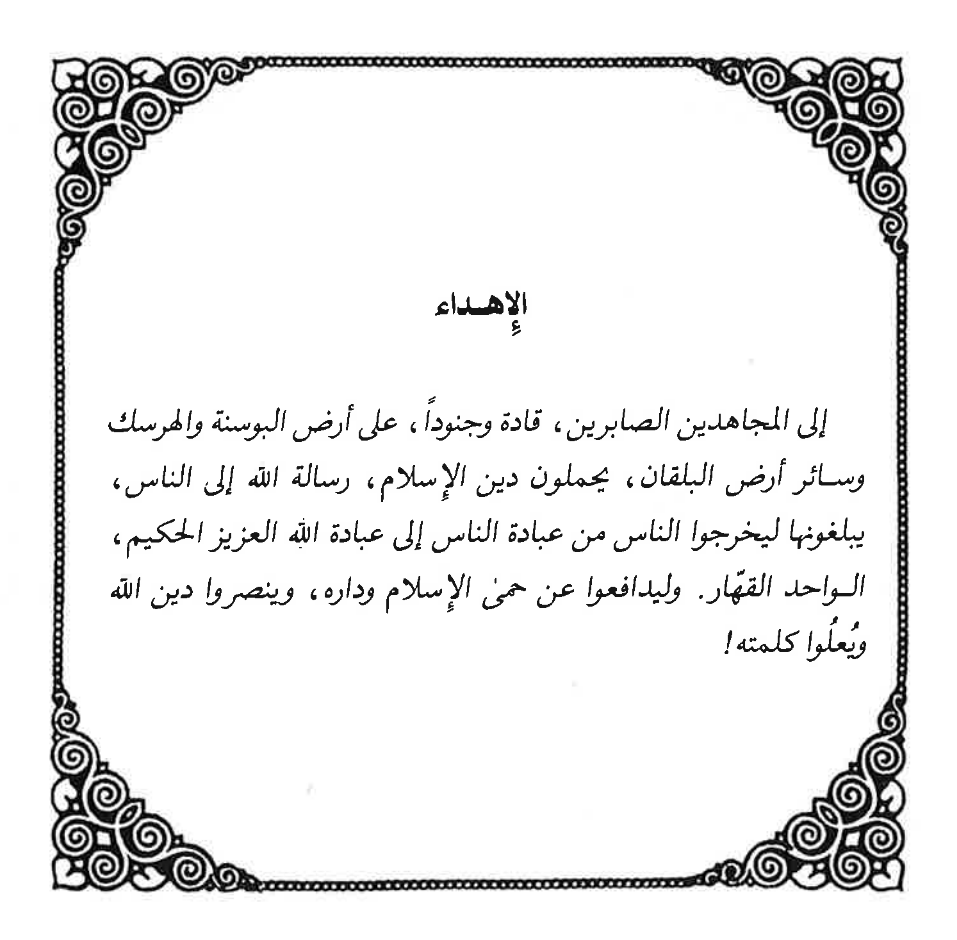
ص. ب ١٨٩١ الرياض ١١٤٤١

هاتف وفاكس ٤٠١٠٢٥٧

المملكة العربية السعودية

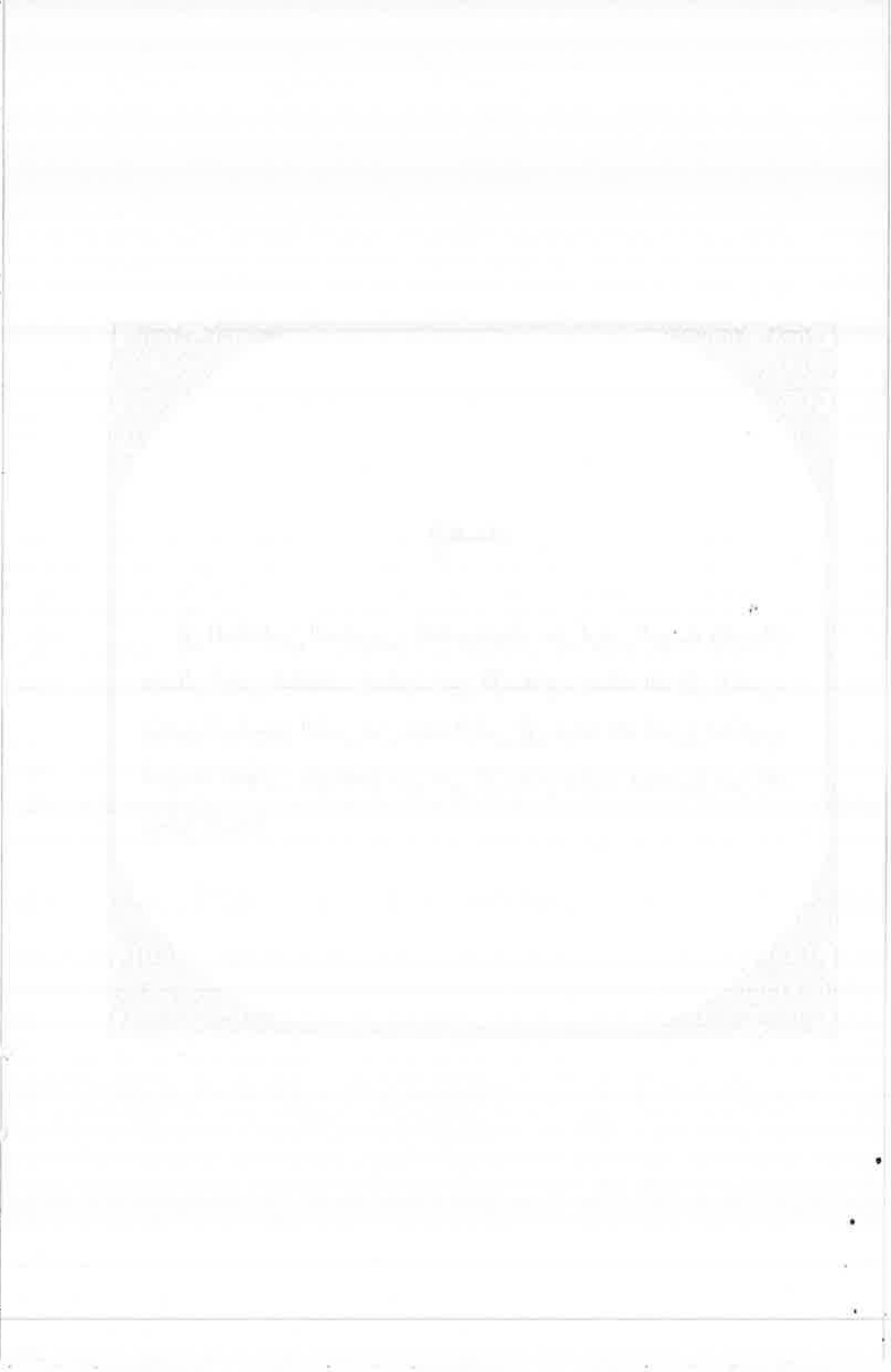

بسم الله الرحمن الرحيم





الإهداء

إلى المجاهدين الصابرين، قادة وجنوداً، على أرض البوسنة والهرسك وسائر أرض البلقان، يحملون دين الإسلام، رسالة الله إلى الناس، يبلغونها ليخرجوا الناس من عبادة الناس إلى عبادة الله العزيز الحكيم، الواحد القهّار. وليدافعوا عن حمىٰ الإسلام وداره، وينصروا دين الله ويُعلُوا كلمته!



الافتتاح

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾

[البروج: ١ - ١١]

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـة

توالت مآسي أمتنـا على صورة مذهلة مفجعـة. عنـدمـا نظمت «ملحمـة الغرباء» ظننت أنها الهَول كلّ الهول. واليوم أراها كأنها كانت بداية لهول أكبر وأشد!

ماذا تُخبِّيء الأيام المقبلة؟! هذا علمه عند الله! فهو إما بلاء أشد أو رحمة وفرج، فإذا جهلنا حقيقة المستقبل، وظلَّ غيباً لايعلمه إلا الله، وبقينا نحن لانرىٰ منه إلا ظنّاً أو تقديراً، فإننا في الوقت نفسه نعلم أشياء علم اليقين تعين على فهم المستقبل من ناحية، وعلى الإعداد والترقّب من ناحية أُخرى. وماكان هذا العلم اليقيني ثمرة تجارب وحسابات، ولكن التجارب والحسابات تؤكِّده وتشير إليه، إنه علم علّمنا إيّاه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم وفي سنة نبيه محمد ﷺ.

ومحور هذا الذي نعنيه من العلم اليقيني هو سنن الله في الحياة الدنيا، سنن ماضية، وقدر نافذ، وحكمة غالبة. وأساس هذه السنن كلها أن الله حق عادل لايظلم أبـداً، وأن سننـه سبحانه وتعالى ماضية مع الزمن كله ومع الشعوب كلهـا، وأن موازيننا البشرية الدنيوية النابعة من أهوائنا ومصالحنا ليست هي الميزان الحق الذي نحكم به على مانرى في لحظة عابرة، أو مانسمع من كلمة طائرة، إن الميزان الحق العادل هو منهاج الله نردّ الأُمور والأحداث إليه.

ومما يمكن أن نشير إليه في هذه المقدّمة السريعة هو أن ماقد نراه من انتصار فئة في لحظة من الزمن لايعني أن انتصارها دائم لن ينقلب عليها، ولايعني أيضاً أنها على حق بسبب غلبتها، ولكن الله سبحانه وتعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. وتتوالى الآيات والأحاديث لتؤكِّد هذا التصور. ويمكن أن نشير إلى أن الصراع قد يكون بين الحق والباطل فله في ميزان الله وقدره قضاء وحكمة، وقد يكون بين الظالمين أنفسهم فله في ميزان الله وقدره قضاء آخر وحكمة غالبة كذلك.

وفي جميع الحالات يظلّ المؤمن ينظر في نفسه وعمله ليصحح ويقوّم، وليتوب ويستغفر، وليرجع وينيب. والله يفعل مايشاء، يقضي بالحق والذين من دونه لايقضون بشيء. له الملك كله، وله الحمد كله، وله الأمر كله.

في هذه الملحمة «ملحمة البوسنة والهرسك» ننهج نفس النهج الذي سلكناه في معظم الملاحم السابقة، حيث نجعل عرضًا نثرياً بين يدي الشعر، لنحقق هدفاً رئيساً نسعىٰ إليه، وهو أن نبلّغ كلمتنا ومانؤمن به لأكبر قطاع من الناس نستطيع بلوغه. فمنهم من يحب الشعر ويأنس به، ومنهم من يؤثر النثر ويقبل عليه. وفي جميع الحالات يظل النثر والشعر سلاحاً من أسلحة هذه الأمة التي تهافتت عليها شعوب الأرض كتهافت الأكلة على القصعة، كما جاء في حديث رسول الله ﷺ.

ونؤمن أن الأدب له مَهمَّة يؤدِّيها وواجب يقوم به، وبخاصَّةٍ في أُمة الإسلام التي أخرجها الله للناس خير أُمة تحمل رسالة الله وتبلغها وتجاهد في سبيل الله من أجل ذلك. إنها أُمة لها رسالة عظيمة في الحياة، والأدب وسيلة من وسائل

الوفاء بالرسالة وأداء الأمانة، وباب من أبواب البلاغ والبيان، وساحة في ميدان الجهاد، والملحمة إذا لم تساهم في أداء هذه الرسالة والأمانة والواجب تفقد مسوّغ قيامها، وتفقد بعد ذلك خصائصها الحقيقية التي تساعدها على الوفاء بالأمانة. من هنا، كان لابد «للملحمة الإسلامية» في الأدب الإسلامي أن تفارق خصائص مايسمى «بالملحمة اليونانية» خطأ. ذلك أن كلمة الملحمة ترجمة خاطئة لكلمة (Epic) من حيث معنى اللفظة وتاريخها. والترجمة الأقرب هي «الأسطورة» ولتوضيح هذه القضية الهامة سنورد في «التمهيد» كلمة سريعة حول المطولات الشعرية والملاحم في الأدب الإسلامي، لننهج خطّاً صادقًا أميناً واعياً. إننا ندرك أن التصوّر الخاطيء للملحمة كاد يستقرّ في أذهان الكثير حتى حسب بعضهم أن محاولة مفارقته إلى النهج الأقوم هي «صرخة في واد». ولكننا نرى أنه واجب يفرضه الإيمان، والعقل الذي يحضنه الإيمان، ويفرضه الحق والعدل والأمانة.

ولانهدف في هذه الملحمة أن نقدّم سجلّا تاريخياً للأحداث، بقدر مانهدف إلى أن نعرض منها مايرسم القضية ويحللها ويعطي بعدها الإيماني وتصورها العادل الأمين حين نردها إلى منهاج الله، ومايعيننا على الخروج بنتائج وعبر.

إننا ندعو الله في خشوع وتوبة وإنابة أن يتقبّل عملنا ويغفر لنا زلاتنا ويثبتنا على الحق، إنه هو المولىٰ فنعم المولىٰ ونعم النصير.

والحمد لله رب العالمين

الرياض: ٢٥ جمادىٰ الآخرة ١٤١٣هـ

١٩ كانون أول ١٩٩٢م.

عدنان علي رضا النحوي

تمهيـد

بين المطولات الشعرية والملاحم في أدب الإسلام

دار حوار أدبي في بعض الصحف المحلية حول المـلاحم وحول المطولات الشعرية، أسهم فيها بعض الأُدباء بآرائهم التي امتدت بين المؤيد للمطولات والملاحم وبين المعارض والمنابذ[1].

وجاء في ثنايا الحوار مصطلحات وتعبيرات، كالملحمة مثلاً، دون أن يكون هناك معنى محدد أو تعريف مقرر يسهِّل على الأُدباء وضوحَ الحوار، ويسهِّل على القارىء حُسْنَ التقدير، ويوفِّر في ساحة النقد الأدبيّ قواعد راسخة لاتهتز في أعاصير الخلافات، المطوّلات والملاحم تعبيران ينتظران التحديد والتعريف.

ولا يقتصر الأمـر في أدبنا اليوم على هذين المصطلحين العائمين، فهنالك مصطلحات أُخرى مازالت تحتاج إلى تحديد وتعريف، أو إلى توضيح وتدقيق، أو اتفاق ورضا. وغياب ذلك سيطيل الحوار دون أن ينتهي إلى نتيجة مثمرة. ولقد رأينا الخلاف حول مصطلح «الأدب الإسلامي»، وإن كان هذا الخلاف ينحصر في المصطلح نفسه أكثر مما هو في دلالته وحقيقته.

ماهي «المطوّلة الشعرية»؟! ماهي حدودها؟! وعلى أي أساس فنيٍّ أو علمي يقوم ذلك؟!

---

(١) المسلمون العددان: ٢٧٥، ٢٨٠، مجلة الدعوة العددان: ١٢٥٠، ١٢٥٢ في ٤ محرم ١٤١١هـ، ١٨ محرم ١٤١١هـ، وقد أسهم في هذا الحوار: الدكتور مأمون فريز جرّار والدكتور محمد حلمي القاعود والدكتور عدنان علي رضا النحوي.

ما هي «الملحمة الشعرية»؟ ما هو تعريفها المتفق عليه؟ وعلى أي أساس يجب أن ينهض التعريف؟

أشعر أن كثيرين من الناس تحمل ألسنتهم اللفظة العربية «الملحمة»، ولكن القلوب والعقول تحمل لها التراثَ اليوناني والمعنى اليوناني والظلالَ اليونانيّة، حتى كادت كلمة «الملحمة» تفقد معناها العظيم الذي حددته المعاجم العربية، والذي حددته أحاديث رسول الله ﷺ. وكأنَّ كلمة «الملحمة» أصبحت تدلّ غالباً على شيء واحد أساسي هو القصيدة الطويلة، دون أن يكون لهذا الطول تحديد، وبهذا التصور لم تعد تحمل كلمة «الملحمة» مدلولاً فنيّاً من حيث التركيب أو الموضوع أو الأسلوب أو الصياغة الفنية والألفاظ وغير ذلك. وأصبح الشاعر لايجد أمامه قواعد فنّيّة يلتزم اتباعها لبناء مانتوهمه أو مانسمّيه «بالملحمة»، إلا شبح الطول غير المحدد، الطول الذي أصبح موضوع الخلاف والحوار، وموضع القبول والرفض. وقد حملت بعض الصحف رأياً يشير إلى أن الملحمة يجب أن لاتقل عن ألف بيت، وكان هذا هو محور الأساس النقدي الذي عرضته الصحيفة لفكرة الملحمة. وربما رأى آخرون أنها يجب أن تكون عشرة آلاف بيت أو أكثر[1].

---

(١) مقالة الدكتور حلمي القاعود حول المطولات الشعرية في «المسلمون» العدد (٢٧٥) ـ للسنة السادسة. ومقالة الدكتور مأمون فريز جرار حول الموضوع نفسه في العدد (٢٨٠) من السنة السادسة. ومقالتي كذلك في «المسلمون» ـ بعنوان: «الفرق بين المطوّلات الشعرية والملاحم» في العدد (٣٠٠) ـ «المسلمون» ـ تاريخ ١٥ ربيع الآخر ١٤١١هـ، الموافق ٢ نوفمبر ١٩٩٠م، والعدد (٣٠٢) منها للسنة السادسة أيضاً تاريخ ٢٩ ربيع الآخر ١٤١١هـ الموافق ١٦ نوفمبر ١٩٩٠م ـ ثم كلمتي حول هذا الموضوع =

يبدو أن كلمة «ملحمة» جاءت ترجمة للكلمة اليونانية (Epic) وأصبحت هذه اللفظة العربية الفنية تحمل ظلالاً يونانية وافدة من طبيعة اللغة اليونانية وتاريخ اليونان ووثنية اليونان، وأصبحت هذه الظلال تضغط ضغطاً شديداً على فكرنا وأدبنا ومصطلحاتنا.

إن كلمة (Epic) ذات الأصل اليوناني تعني قصة شعرية طويلة ذات أسلوب عالٍ تدور حول أعمالٍ خرافية لبطل خرافي، أو لبطل تاريخي ترفع القصة الشعرية أعماله إلى مستوى المعجزات والوهم. وقد تستعمل بالمعنى المجازي لتشبيه حدث واقعي بذلك المستوى الأسطوري، وتدخل الآلهة اليونانية في ميدان هذه القصة الشعرية لتحارب أو تتحارب، ولتَعْشَق وتخوض من أجل عشقها صراعاً. ولقد ابتدأ هذا المنحى الشعريّ قديماً في تاريخ اليونان، ثمّ أخذ ينمو ويترعرع في جو الوثنية اليونانية، الوثنية التي امتدت إلى جميع نواحي حياة اليونان: من فكر وأدب وفلسفة. وفي القرن التاسع ق. م. قدّم الشاعر اليوناني «هوميروس» قصتيه الشعريتين الأسطوريتين الطويلتين: «الإلياذة» و «الأُديسَّا»، وهما تدوران حول حروب طروادة، وتحملان الخصائص التي ذكرناها والتي نوجزها بما يلي:

١ ـ قصة شعرية.

٢ ـ تعرض البطولات الخرافية والمعجزات الوهمية من خلال فكر وثني واضح في وثنيّته.

= في مجلة الدعوة السعودية في العدد (١٢٥٠) ـ ٤ محرم ١٤١١هـ والموافق ٢٦ يوليو ١٩٩٠م، والعدد (١٢٥٣) بتاريخ ١٨ محرم ١٤١١هـ الموافق ٩ آب (أغسطس) ١٩٩٠م.

٣ ـ للآلهة اليونانية المدّعاة دور فيها .

ولذلك جاء زمن ثار بعض المفكرين والأُدباء اليونانيون ضد «هذه الآلهة» وضد هذا الدين المرتبط بها، ودار صراع بين الشعراء والفلاسفة استغرق مساحة واسعة من تاريخ اليونان وفكرهم وأدبهم . حتى إن الذين وقفوا بجانب الدين من الشعراء، مثل «أريستوفان»، لم يخل إنتاجه من شكٍّ في ذلك الدين واتهام له .

ولقد احتلت هاتان القصتان الشعريتان الأسطوريتان، «الإلياذة، والأديسا»، مكانًا عاليًا عند اليونان، ثم عند الرومان، ثم في الفكر الأوروبي كله، الذي كان يعتبر أدب اليونان وفكرهم هو المثل الذي يحتذى، وهو الأساس الأول للمذهب الكلاسيكي . ولاعجب في ذلك، حيث لم تكن أوروبا بعيدة عن الوثنية حتى في ظل ازدهار النفوذ المسيحي، في عهد الامبراطور قسطنطين الروماني وغيره . ومازال حتى يومنا هذا أثر واضح لإجلالهم للفكر اليوناني الوثني . وفي محاضرة الدكتور نجم الدين أربكان التي قدمها مؤخراً في مؤسسة الملك فيصل[1]، قدَّم صورة لإعلان أصدرته شركة «توشيبا» تقول فيه إن حضارة اليوم تعود في جذورها إلى «الفرعونية»، التي نشأت عنها الحضارة اليونانية . إنهم يلحّون إذن على ربط حضارتهم وأعمالهم بكل جذور الوثنيّة والإلحاد، فما بالنا نجري لاهثين وراءهم، ولانربط حضارتنا وأدبنا وفكرنا بالتوحيد .

---

(١) الدكتور نجم الدين أربكان رئيس حزب السلامة الإسلامي في تركيا سابقاً ورئيس حزب الرفاه حالياً، وكان عضواً في المجلس الوطني للفترة (١٩٦٩م ـ ١٩٨٠م)، وشغل منصب وزير للدولة، ومنصب نائب لرئيس الوزراء .

وكانت محاضرته بعنوان : المسلمون والتكتّلات العالمية في مؤسسة الملك فيصل الخيرية بالرياض يوم الاثنين في ١٨/١١/١٤١٠هـ الموافق ١١/٦/١٩٩٠م .

هذا بالنسبة للكلمة (Epic) ذات الأصل اليوناني (Epikos) . فما هي كلمة الملحمة وماجذورها وظلالها ومعانيها؟! في المعاجم العربية نجد هذه المعاني: الوقعة العظيمة في الفتنة، الحرب ذات القتل الشديد. وفي قولهم: نبيُّ الملحمة قولان: أحدهما: نبيُّ القتال، كقوله في الحديث الآخر: «**بعثت بالسيف**»، والثاني: نبيّ الصلاح وتأليف الناس، كأن يؤلّف أمر الأمة. وقد «لَحَم الأمر» إذا أحكمه وأصلحه. و «أَلحمتُ القوم» إذا قتلتهم حتى صاروا لحماً. والملحمة أيضاً موضع القتال. وقال ابن الأعرابي: «الملحمة حيث يقاطعون لحومهم بالسيوف» . . . فالملحمة في المعاجم إذن مرتبطة بالقتال الحقيقي الشديد، لاقتال الوهم والخرافة، ومرتبطة بأرض القتال، ومرتبطة بالنبوة، وبالإصلاح وتأليف أمر الأمة[1].

ولننظر في أحاديث رسول الله ﷺ. ففي الحديث الشريف عن فتح مكة يرد: « . . . **فقال سعد بن عبادة ياأبا سفيان اليوم يوم الملحمة** . . »[2]. وفي حديث آخر عن جبير بن نضير عن الهدنة بين المسلمين والروم يقول جبير: « . . . **فعندئذ تغدر الروم وتجمع للملحمة**»[3]. وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال، قال رسول الله ﷺ: «**عمران بيت المقدس خراب يثرب وخراب يثرب خروج الملحمة، وخروج الملحمة فتح القسطنطينية، وفتح القسطنطينية خروج الدجال ثم ضرب بيده على فخذ محدثه أو منكبه ثم قال: إن هذا لحق**

---

(١) معاجم: لسان العرب، تاج العروس، الصحاح، قاموس المحيط.

(٢) البخاري كتاب المغازي (٦٤). باب (٤٨).

(٣) سنن أبي داود حديث رقم (٤٢٩٢).

كما أنك هاهنا أو كما أنا قاعد. يعني معاذ بن جبل»[1].

وعن معاذ ـ رضي الله عنه ـ أيضاً ـ: **الملحمة الكبرى وفتح القسطنطينية وخروج الدجال في سبعة أشهر»**[2]. وعن عبدالله بن بسر ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله، ﷺ، قال: **«بين الملحمة وفتح المدينة ست سنين ويخرج المسيح الدجال في السابعة»**[3].

وقد جعل أبو داود في سننه فصلاً سماه «كتاب الملاحم». ومالجأ أبو داود في هذه التسمية إلى مصادر أجنبية، ولاخضع لضغوطها وسلطانها. فهذا مدار «الملحمة» وظلالها في أحاديث رسول الله ﷺ، حيث نجد أنها تتحدث عن وقعة قائمة، لاوهم فيها ولاخيال، مثل فتح مكة، أو أنها تتحدث عن الغيب من أمر الأمة المسلمة مما هو حقٌّ لاريب فيه، ولاتختلط بالخرافات والوهم، ولا بالآلهة المتعددة، ولا بالوثنية كلها.

من هنا نجد أنَّ ارتباط كلمة «ملحمة» هو ارتباط بالنبوة، ارتباط بالتوحيد ورسالته، ارتباط بأمة التوحيد، ثم هو ارتباط باللغة العربية. فلم ترد الملحمة في هذه الاستعمالات كلها مرتبطة بالشعر من قريب ولابعيد، ولكن الكلمة (Epic) مرتبطة بالشعر، فأساس معناها قصة شعرية. ولم تأت كلمة ملحمة مرتبطة بخيال ووهم وخرافة، بل جاءت مرتبطة بواقع صادق وغيب صادق، ولكن كلمة (Epic) مرتبطة بالخرافة والوهم. وارتبطت كلمة «ملحمة» بالنبوة

---

(١) سنن أبي داود رقم (٤٢٩٤).

(٢) سنن أبي داود رقم (٤٢٩٥).

(٣) سنن أبي داود رقم. (٤٢٩٦).

والتوحيد. أما كلمة (Epic) فمرتبطة بجذور معانيها وظلالها بالوثنية اليونانية، ثم ارتبطت مع التاريخ بأشكال متعددة من الوثنية.

فمع هذه الفروق الواسعة في معاني اللغة، وفي الأصل والمنشأ، وفي الاستخدام والاصطلاح، وفي الظلال والدلالات، أعجب كيف جازت هذه الترجمة، وكيف تناسى الذين ترجموا كلمة (Epic) هذا الزاد الغنيَّ العظيم الذي تحمله لفظة «الملحمة» في لغتنا وتاريخنا وديننا، زاداً يختلف عن زاد اليونان كما يختلف التوحيد عن الوثنية. إن لفظة «الملحمة» أعزّ من أن تختلط بذلك الخليط العجيب!. فليبحثوا لهم عن ترجمة أُخرى «كالأسطورة»، ولتمض ملحمتنا مستقلة عنهم.

فإذا أردنا أن نبني «الملحمة الشعرية» في الأدب الإسلامي، فإن أمامنا شرطين أساسيين يجب أن نحقّقهما أولاً:

١ ـ أن نطهِّر كلمة «الملحمة» الكلمة العربية الغنيّة، أن نطهرها من أوهام اليونان الفكرية ومن وثنيّتهم، ومن شروطهم الفنيّة.

٢ ـ أن ينبثق تصور «الملحمة الشعرية» في أدبنا من طبيعة اللغة العربية والشعر العربي، ومن تاريخنا الصادق، ومن ديننا وعقيدتنا، من حقيقة الأمة المسلمة، أمة التوحيد، ومن رسالتها، لتحمل خصائصها الذاتيّة، لاخصائصها المستوردة، ولتنمو «الملحمة الشعرية» نموّها الطبيعي، في جوها الطبيعي، وهوائها وريها وغذائها، تدفعها مواهب الأمة الحقيقية.

وإذا كانت اللغة اليونانية تسمح بقصيدة تتجاوز الآلاف من الأبيات، وإذا كانت موضوعات الخيال المتفلّت في أجواء الوثنية يمكن أن يطوف في موضوعات خرافية تحتاج إلى آلاف الأبيات، فإن طبيعة اللغة العربية وطبيعة شعرها من

ناحية، وكذلك موضوعات تاريخنا وواقعنا ومستقبلنا من ناحية أُخرى لاتتطلب هذه الإطالة في «الملحمة الشعرية». إن تاريخنا وواقعنا ومستقبلنا يتبرأ من الخرافة والوهم، يظلُّ كلُّه موجهاً برسالة الصدق والحق، برسالة التوحيد، لينمو في جوها وميدانها. لسنا بحاجة إلى الآلاف المؤلفة من الأبيات الشعرية لنطرق موضوعاً من موضوعات تاريخنا أو واقعنا أو مستقبلنا. إني أشعر أننا نرهق الموهبة الشعرية، ونتطلب منها مالسنا بحاجة إليه، عندما نفرض عليها أن تقدِّم ما لا تحتاجه الموهبة واللغة والواقع، ومالاحاجة للأدب فيه. ولكننا بحاجة مع ذلك كله إلى «الملحمة»، إلى الملحمة التي تنمو في بيئتنا، إلى الملحمة التي تتناسق وخصائص اللغة العربية وطبيعة الشعر العربيّ. فإذا كان لدى اليونان عوامل خاصة في خرافاتهم ولغتهم تسمح بهذا الطول الكبير الذي ينشر الفكر الوثني، ففي اللغة العربية وآدابها عوامل أُخرى تتحكَّم في الطول. فالذي يحدِّد طول القصيدة عوامل عدة: الموضوع نفسه. فالقصيدة عن الجهاد الأفغاني لايُعقل أن يكون طولها مثل طول القصيدة التي تتحدَّث عن وصف وردة مثلاً. فالموضوع وأهميته وامتداد مساحته في تاريخ الأمَّة وواقعها يؤثر حتماً في امتداد القصيدة وطولها. وكذلك قدرة الشاعر الفنية واستطاعته على المحافظة على مستوى الجمال الفنيّ المؤثر، مع امتداد القصيدة دون أن يضطر إلى هبوط مفسد، تؤثِّر كذلك على طول القصيدة. إن طول القصيدة لايُحدِّده هوى الشاعر. فالشاعر لايقول ابتداءً أُريد أن أبلغ ذلك العدد المحدد من الأبيات. إن الشاعر ينطلق في قصيدته حتى يشعر أنه أتمَّ اللوحة الفنية التي يريدها بكامل مناظرها وألوانها وتناسقها. هناك يقف الشاعر وينتهي من قصيدته مهما بلغ معه طولها.

إلا أن يكـون الشـاعـر ناظـماً فقد يلزم نفسه دون مسوّغ فني بعدد محدد من الأبيات، وهذه ليست موضوع حديثنا.

ولاننكر أن عدداً غير قليل من الجامعات في العالم الإسلامي غرس التصور اليوناني لهذا اللون من الشعر، من خلال دراساتها الجامعية، ومن خلال ماتحمله المناهج ودراسات الأُدباء ومباحث النقد الأدبي من تقدير مُبالغ فيه غير عادل لذلـك اللون من الشعر الأسطوري. ولكنه آن الأوان لمراجعة حساباتنا وردِّ الأُمور إلى ميزان لغتنا وعقيدتنا وتاريخنا، وإلى مانحتاجه حقيقة ومالا نحتاجه.

وأعود أؤكد اتفاقي مع الدكتور القاعود بخصوص المطوّلات الشعرية التي تحمل خصائصها من اللغة العربية ومن عقيدتنا ومن تاريخنا، على أن نضع لهذه المطولات مدلولاً فنياً محدَّداً. وهنا أميل إلى اعتبار هذه المطولات هي الملاحم الحقيقية إذا كانت موضـوعاتها ملحمية حقاً، وإذا تحددت خصائصها الفنية بشكل واضح جليّ.

من هذا التصور قدمت تعريفاً مبدئياً للملحمة الإسلامية في كتابي «الأدب الإسـلامي إنسـانيته وعالميته» دون أن أعني أنه هو التعريف النهائي. ولكني قصدت إلى طرح الموضوع وخوض محاولة التعريف على أساس من القواعد التي ذكرتها.

لقـد حددت العنـاصر الـرئيسـة التي أراهـا للملحمة الإسلامية بخمسة عناصر: الحجم، الموضوع، الزمن، أجزاء الملحمة، الهدف. وإن كنت أود أن أُضيف شيئاً جديداً على ذلك الذي قدمته فهو أني أرى أن الملحمة لن تزيد عن مئات محدودة من الأبيات إذا حافظت على الوزن والقافية. وكذلك فإنه يمكن

تقسيم هذه الملحمة إلى عناوين جانبية تساعد القارىء على جمع الموضوع ووعيه، وتضيف شيئاً من الحركة والحياة، وسهولة التفاعل والتأثُّر. بهذا الحجم الأقصىٰ نكون قد وافقنا بين طبيعة الشعر العربي، وبين إطلاق القدرة الشعرية في ميدان منتج ومُجيد. ولكن يمكن تجاوز هذا الحجم إذا كانت الملحمة تمثل مجموعة قصائد طويلة أو متوسطة تختلف في الوزن والقافية، ولكن تدور حول قضية ملحمية واحدة. ولابد في جميع الحالات من تحديد الحدِّ الأدنى لأبيات الملحمة، الحد الذي أعتقد أنه يمكن أن يكون بين ثمانين بيتاً من الشعر إلى مائة بيت مثلاً، ولكنَّ الموضوع الملحمي على أُسس اللغة العربية والعقيدة هو الذي يجب أن يحدِّد منطلق «الملحمة الشعرية»، وأن يحدد خصائصها الفنيّة الأُخرى، أكثر من قضية الطول التي يجب أن يتوقَّف شبحها اليونانيّ.

إن هذا التحديد الذي قدّمته يمثل محاولة لطرح القضية وللنموّ بها. ذلك لأني أُؤمن بضرورة إطلاق الموهبة الشعرية المؤمنة لتمارس حقَّها في التجربة والنمو، وفي عرض قضايا الأمة، في ميدان تستطيع أن تجول فيه جولات حقيقية، وتستطيع أن تنتج فيه إنتاجاً مثمراً، دون أن تُرهق بمحاولة مالا جدوى منه، وما لا طاقة لها به، إلا على حساب معاناة شديدة ينسحب منها الكثيرون دون أن يقدموا للأمة ثمراً نامياً مع الأيام، موصولاً مع الزمن، غنيّاً بمستواه من الجمال الفني.

وأعود وأُؤكد أن طبيعة اللغة العربية والشعر العربي، وكذلك موضوعات الحقائق والواقع والصدق، لاتستدعي امتداد الطول في الملحمة كما امتدت عند هوميروس في الوهم والخرافة والمعجزات، وفي اللغة اليونانية. قصتان شعريتان

قدمهما هوميروس، مجَّدهما أرسطو، وغنتهما أوروبا، كل ذلك من بواعث أقرب إلى الوثنية، أو هي الوثنية، ثمَّ أخذنا نلهث وراءهم نتتبع هاتين القصتين الشعريتين الخياليتين، دون أي مسوّغ لنا، إلا التبعية غير الواعية.

وإني إذ أُقدِّر قيمة الحوار الذي دار هنا أو هناك، دون أن نخرج بنتيجة أو رأي يتفق عليه للبناء والعمل، فلابد أن أُبين في هذا المقام أن الذي نلحُّ عليه ونصرّ هو أننا يجب أن نبني أدباً ينبع من التوحيد، مستقلاً عن الوثنية، يرتوي من منهاج الله قرآناً وسنة، ليكون سلاحاً صادقاً نخوض به معركتنا اليوم. فإننا أمة كتب الله عليها أن تخوض معركة حقيقية لاوهمية، وملاحم صادقة لاخرافية، وأن تدفع في التاريخ البشريّ بطولات واقعية عبقرية، لابطولات خيال ووهم. ولابد لأدبنا الإسلامي من أن يصوغ هذه الملاحم الصادقة في ملاحم شعرية، تحمل خصائص لغتنا وتاريخنا وإيماننا، وتنطلق بها المواهب المؤمنة مستقلة عن التبعيّة المضلّة.

وستظل كلمة «الملحمة» محتفظة بمعانيها التي قدمتها المعاجم واستخدمتها النبوة الخاتمة، سواء أقمنا الملحمة الشعرية أم لم نقمها، وسواء أتفقنا أم لم نتفق، وستظل الملاحم في أرض الإسلام دائرة في الفلبين والهند وفلسطين وأرتيريا وسائر أجزاء العالم الإسلامي، فإذا لم نقدم الملحمة الشعرية فإن ملحمة الدم ماضية لا تنتظر الأُدباء، وإنما على الأدباء الشعراء ورجال الفكر والكلمة أن يلحقوا بها إذا شاءوا.

نحن المسلمين أهل الفكر الحق وأصحاب الرسالة الحق، العالم كله بحاجة إلى رسالتنا ودعوتنا وديننا. العالم كله بحاجة إلى أدبنا وملاحمنا أكثر مما نحن بحاجة إلى أدبه وملاحمه. فلنشعر بالعزّة الصادقة ولنرتفع إلى مستواها الحق.

لاصلة بين الملحمة الإسلامية وبين مايسمونه (Epic) ، فالملحمة في ديننا ولغتنا مرتبطة بالنبوة والأحاديث الشريفة، أما (Epic) فهي مرتبطة بالوثنية والكفر.

والملحمة مرتبطة بالقتال والالتحام، بالجهاد في سبيل الله، و (Epic) مرتبطة بخرافات العشق وأساطير الغرامَ، بين الآلهة والأبطال.

والملحمة مرتبطة بصدق الواقع والحق، و (Epic) مرتبطة بالوهم والخرافة والأساطير.

والملحمة مرتبطة بالخير والصلاح ومحاربة الفساد والجريمة في الأرض، و (Epic) تدعو إلى ذلك كله!

فأين العلاقة بين هذه وتلك؟!

لقد عَرَفت المطوّلاتِ الشعريةَ شعوبٌ مختلفة في التاريخ البشري ففي الهند ظهرت المطوّلتان الأسطوريتان: «رامايانا» «ومهابارتا» تقصّان بطولات قديمة أسطورية عن الحب والآلهة، وتصف حروب «كورو» و «باندو» وأعمال «كرشنا» الإلـه الهنـدي[1]. والأسـطورة الشعرية (الملحمة) التي عُثِر على جزء منها في «مجيدو» سنة ١٩٥٩م والتي تسمى «جلجامش» مكتوبة بعدة لغات منذ الألف الثاني قبل الميلاد[2]. وكذلك «الإلياذة» و «الأوديسا» لهوميروس اليوناني حول حروب طروادة ومافيها من أساطير وبطولات خرافية وحروب بين الآلهة والبشر أو عشق وزواج. و«صلاة الفيداس» عند الهنود قبل أكثر من ثلاثة آلاف سنة.

---

(١) د. عدنان النحوي ـ ملحمة الإسلام في الهند ـ ص (١٧). أحمد الخاني ـ ملحمة بدر ـ المجلد الأول ـ (ص: ١٢).

(٢) روجيه غارودي ـ فلسطين أرض الرسالات السماوية ـ (ص: ٢٨).

و «الإلياذة» الرومانية التي وضعها شاعر الرومان «فيرجيل» تحمل من الأساطير ماحمله غيرهـا. و «الفـردوس المفقود» للشاعر الإنجليزي «ميلتون» تدور مع الخيال والأساطير. ولعل أحمد محرّم كان أول من طرق هذا الباب في عصرنا الحديث حين سمىٰ كتابه «الإلياذة الإسلامية» أو ديوان «مجد الإسلام» فكشف بالتسمية الأولىٰ التأثر باليونان من حيث اللفظة والنزعة إلى الطول. والأستاذ عمر أبو ريشة نشر قبل وفاته قسماً سماه «مقدّمة ملحمة النبي» وجاء استخدام كلمة الملحمة هنا موفّقاً غنيّاً بالمعنىٰ والدلالة. فقد اعتمدت الملحمة الحقائق وابتعدت عن الخرافات والأساطير، وتناولت موضوعات القتال، وموضوعات هامـة في التاريخ الإسلامي، وكذلك «ملحمة بدر» لأحمد الخاني. وفي هذه الملاحم الشعريّة كان التأثُر باليونان من حيث قضية الطول واضحاً، إلا أنها فارقت التصـور اليونـاني الوثني من حيث الموضوع، وكأن هذا الطول أصبح مفروضاً علينا مقترناً بكلمة «الملحمة» بما تركته الترجمة الخاطئة لكلمة (Epic)، وبـما تركته الأساطير اليونانية وغيرها من ضغوط علينا في فكرنا وتعمقه بعض الدراسات الجامعية. أو أنه أصبح هدفاً نريد أن نحققه دون أيّ مسوّغ فنّيّ أو دينيٍّ أو عقلي أو علمي.

وأوجز هنا في هذه الكلمة الرأي الذي أعرضه بالنقاط التالية:

١ ـ فصـل «الملحمـة» وتصـورهـا في الأدب الإسـلامي عن الوثنية اليونانية وفلسفتها وآدابها وأساطيرها، وماتبع ذلك من خصائص فنّية ترتبط بطبيعة اللغة اليونانية وغيرها من اللغات القديمة، وبواقع الفكر والفلسفة.

٢ ـ أن ينبـع تصور «الملحمة» في الأدب الإسلامي من طبيعة اللغة العربية

والتاريخ الإسلامي ومن كتاب الله وسنة رسوله . وأهم ماينتج عن ذلك هو مفارقة الأساطير والتزام الحقائق في تاريخ الأمّة . فإن في الحق والصدق في تاريخنا مايلهم بأعظم الملاحم . ولنا من حقائق تاريخنا مايغنينا عن الخوض في خرافات وأساطير أصبحت أساساً للأدب الوثني والأدب الحداثي .

٣ ـ أن لاتتقيد الملحمة الإسلامية بإيحاءات الطول الكبير الذي تمليه أساطير الوثنيين . وحسبنا أن نحدد الحدَّ الأدنىٰ للملحمة ، والشكل العام ، وأهم الخصائص الفنية .

٤ ـ أن تأخذ الملحمة الإسلامية تعريفاً فنيّاً محدَّداً يوضح شكلها وموضوعها وسائر الخصائص الفنيّة التي تعين على إطلاق الموهبة ، وعلى المساهمة في جهاد الأمة المسلمة ، حتى يكون للملحمة هدف واضح محدد .

٥ ـ أن لايكون الطول المحدّد للملحمة مسوّغاً لهبوط المستوىٰ الفني من حيث اللغة والتركيب والصياغة وعناصر الجمال الفني .

٦ ـ يمكن تحديد الحدّ الأدنىٰ الذي تبتدىء فيه الملحمة في الأدب الإسلامي ، بحيث إذا بلغته القصيدة وتوافرت فيها العناصر الفنيّة الأُخرىٰ ، اعتبرت ملحمة . ويترك امتداد طولها بعد ذلك للشاعر وموهبته وللقضيّة وأهميّتها .

٧ ـ لابد من تحديد الأهداف المرجوّة من الملحمة تحديداً واضحاً يعيه الشاعر كما يعيه الناقد والقارىء ، ليكون بين جميع الأطراف لغة مفهومة وتواصل قويّ .

أما بالنسبة لأهداف الملحمة فإنها تحدّد على أساس من قواعد ثلاث : الإيمان والتوحيد ومنهاج الله قرآناً وسنة كما جاء الوحي بهما باللغة العربية ، ثم واقع الأمة التي تعيشه وتجتازه وحاجاتها في هذا الواقع ومدىٰ مساهمة الملحمة في تحقيق هذه

الحاجات، ثُمَّ الخصائص الفنيّة التي يجب أن ترتبط بالقاعدتين السابقتين وبخصائص اللغة العربية لا اللغات الأجنبية.

وعلى ضوء هذه القواعد الثلاث، ندرك أننا اليوم أُمة ممزّقة، أصبح الشاب المسلم يجهل أُمته وامتدادها، ويجهل تاريخها وروابطها الإيمانية، ويجهل سبيل التواصل والتعارف والتعاون.

معظم المسلمين كانوا لايعرفون شيئاً عن أفغانستان قبل انطلاق الجهاد فيها، ولايعرفون كذلك إلا النذر اليسير عن البوسنة والهرسك، أو الهند وكشمير وباكستان، بل أكثر من ذلك، فعندما خرج الفلسطينيون سنة **١٩٤٨م** إلى العالم العربي وضحت حقيقة مذهلة هي أن قطاعاً واسعاً من الأُمة المسلمة يجهل قضية فلسطين وخطورتها عليه، ومنزلتها في دينه وإيمانه، والعجب الأكبر أن بعضاً من هذا الجهل مازال حتى اليوم، بعد مضي أكثر من سبعين سنة على بدايتها المفجعة.

لم يعد المسلمون اليوم يعرف بعضهم بعضاً، ولايشعرون بحقيقة الأُخوة الإسلامية إلا شعاراً يسقط في ميدان الواقع والممارسة. ولا يكادون يمارسون حديث رسول الله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً**»[1] أو «**المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ألا يُقتَل مؤمنٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين**»[2].

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي موسى. صحيح الجامع الصغير للألباني (ح: ٦) (ص: ٦).

(٢) رواه أبو داود والنسائي، الحاكم في مستدركه، صحيح الجامع الصغير (ح: ٦)، (ص: ٨).

لذلك يكون من أهداف الملحمة الإسلامية أن تساهم في تحقيق هذه الغاية، ومعالجة هذا المرض في واقعنا. لقد كانت ملحمة الإسلام في الهند، ملحمة الجهاد الأفغاني، ملحمة القسطنطينية، ملحمة فلسطين، وملحمة الأقصىٰ، وملحمة التاريخ وغيرها من الملاحم التي سبقت هذه الملحمة، تهدف إلى تحقيق ذلك أو بعض منه، فعسىٰ أن تكون بلغت شيئاً من أهدافها.

وجاءت هذه الملحمة ملحمة ـ البوسنة والهرسك ـ لتساهم في ذلك وتعرّفنا بهذا الشعب العظيم وبصلتنا بهم، فما هي قضيتهم، وماهي مسئوليتنا الإيمانية نحوهم؟!

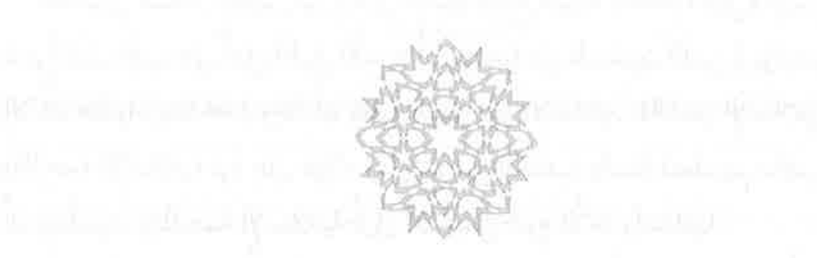
هذا هدف من الأهداف الرئيسة للملحمة الإسلامية حين تعالج قضايا واقعنا المعاصر.

القسيس الشاعر نيقوس من الجبل الأسود وضع ديوانه «انتقام الجبل» ليرسم شعراً كيف يجب على أهل الجبل الأسود أن ينتقموا من المسلمين الذين لم يؤذوهم إلا أن قالوا ربنا الله! وإلا أن نقلوا إليهم نور الإسلام. فالشعر الإسلامي والملحمة الإسلامية تردّ على هؤلاء ردّاً ينبع من الكتاب والسنة لنعلمهم مايجب أن يتعلّموه. والملحمة الإسلامية أولىٰ أن تحمل هموم الأمة وأهدافها.

هدف آخر! نحن أمة تحمل رسالة الله إلى الناس. أخرج الله هذه الأمة لتكون خير أمة أخرجت للناس بهذه الرسالة فقط كما نصّت الآية الكريمة، لابعرق أو دم، فقد أذهب الله عنا نخوة الجاهلية وعصبيتها. لذلك يجب أن تساهم الملحمة الإسلامية في تبليغ هذه الرسالة وإيصال نور الإيمان والهداية إلى الناس لتذهب عنهم الجاهليات وعصبياتها وضلالها.

وهـدف آخر! نحن أمة مجاهدة. تهافتت علينا الأُمم كتهافت الأَكلة على قصعتهـا. فلابد أن تحمل الملحمة الإسلامية معنىً الجهاد كما يرسمه القرآن الكريم والسنة النبوية.

الملحمـة الإسـلامية تحمل معها أهداف الأَدب الإسلامي، وتحمل معها أهداف الأُمة المسلمة في الأَرض، ممتدّة مع الزمن!





الباب الأول

البوسنة والهرسك

بين نور الإسلام وظلام أوروبا



الفصل الأول

أرض وتاريخ

«**البوسنة والهرسك**» تسمية تطلق على إحدىٰ الجمهوريات الست التي كانت تتألَّف منها «جمهورية يوغسلافيا الفيدرالية». وبالإضافة إلى جمهورية «البوسنة والهرسك» فهنالك خمس جمهوريات أُخرى هي[1]:

١ - صربيا: مساحتها (٣٤١١٦) ميلاً مربعاً وسكانها بحدود ثمانية ملايين نسمة وعاصمتها «بلغراد».

٢ - كرواتيا: مساحتها (٢١٨٢٩) ميلاً مربعاً وسكانها بحدود خمسة ملايين نسمة. وعاصمتها «زغرب».

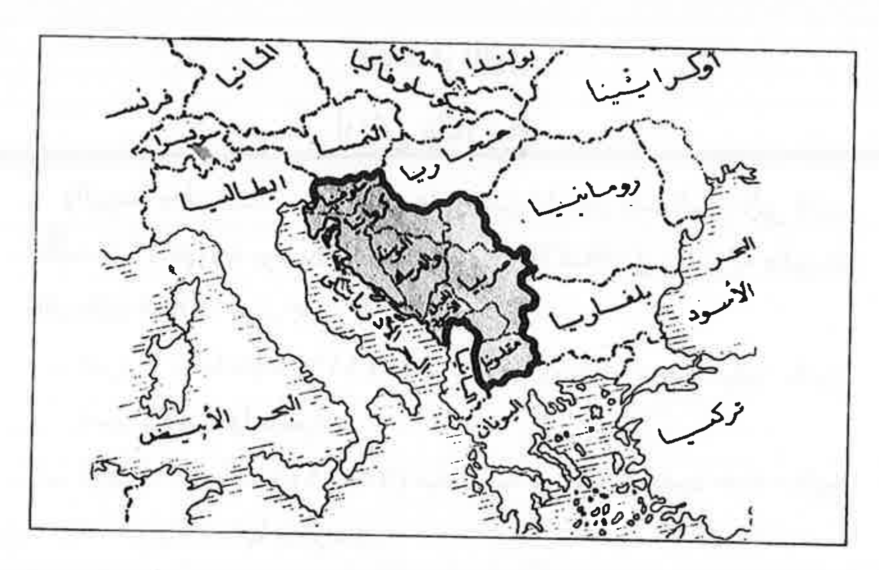
٣ - سلوفينيا: مساحتها (٧٨١٩) ميلاً مربعاً وسكانها بحدود المليونين وعاصمتها «لوبليانا».

٤ - مقدونيا: مساحتها (٩٩٢٨) ميلاً مربعاً والسكان بحدود المليونين والعاصمة «سكوبيا».

٥ - الجبل الأسود: مساحتها (٥٣٣٣) ميلاً مربعًا والسكان بحدود المليون والعاصمة «تيتوجراد».

---

(١) وكالة الأنباء الإسلامية «إينا» وكتابها: «البوسنة والهرسك ـ قصة شعب مسلم يواجه العدوان». نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية. ط (١). ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م (ص: ١٣٩). عبدالله عاصم إسهايتش: الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين. إصدار معهد الدراسات الإسلامية في إسلام أباد ترجمة صائب علاوي. ط(١). ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م. (ص: ٢٢ ـ ٤٢).



الموقع السياسي والجغرافي
للجمهوريات اليوغوسلافية[1]

---

(١) هذه الخريطة مأخوذة من كتاب: الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين للأستاذ عبدالله عاصم إسمايتش وإخراج ونشر معهد الدراسات الإسلامية في إسلام آباد - باكستان.

وهناك مقاطعات كان لها حكم ذاتي مثل «كوسوفو» ومساحتها (٤١٢٧) ميلاً مربعاً.

وكانت العاصمة الاتحادية ليوغوسلافيا «بلغراد» ويسمونها أيضاً بيوغراد أي المدينة البيضاء.

أما جمهورية «البوسنة والهرسك» فمساحتها (١٩٧٤١) ميلاً مربعاً وعدد سكانها بحدود خمسة ملايين حسب أحد المصادر، و (٤٣٦٣٥٧٤) حسب مصدر آخر، وعاصمتها «سيراييفو»[١]. انظر الخريطة.

تكونت الجمهورية اليوغسلافية الفيدرالية على أثر تشكيل «جوزيف بروز تيتو» لحكومة مؤقتة مركزها «يايسي» البوسنوية في ١٩٤٣/١١/٢٩م. وفي ١٩٤٥/١١/٢٥م أصبحت يوغسلافيا جمهورية فيدرالية تنهج نهج الاتحاد السوفياتي في دستورها، بعد إقصاء «بيتر»، آخر ملوك يوغسلافيا سنة ١٩٤٤م[٢].

وتبلغ مساحة يوغوسلافيا الاتحادية سابقًا (٢٥٥٨٠٤) كيلو متراً مربعاً. ويبلغ مجموع سكانها ثلاثة وعشرين مليوناً تقريباً. وكلمة يوغسلافيا تعني «بلاد السلاف الجنوبيين».

ويتكون مسلمو يوغسلافيا من ثلاثة أجناس: السلافيون، ويقيمون في

---

(١) المصدر الأول: وكالة الأنباء الإسلامية. (ص: ١٣٩). المصدر الثاني: عبدالعزيز المهنا. البوسنة والهرسك ـ القضية والمأساة ـ مطابع دار الهلال. ط(١). ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢ (ص: ١٥).

(٢) عبدالله إسمايتش. (ص: ٣١).

البوسنة والهرسك وفي السنجق «وعاصمته بني بازار»، والألبان ويقيمون في المناطق المجاورة لدولة ألبانيا وهي مقدونية وكوسوفو (قوصوه)، والأتراك ويقيمون في أقصىٰ الجنوب المتاخم لليونان.

ويوغوسلافيا جزء من بلاد البلقان. وترد كلمة البلقان كثيراً مع الأحداث التاريخية، وبلاد البلقان شبه جزيرة كبيرة في جنوب شرق أوروبا، يحدُّها شرقاً البحر الأسود، وجنوباً مضيق البسفور وبحر مرمرة ومضيق الدردنيل وبحر إيجه، وغرباً البحر الأيوني وبحر الأدرياتيك، وشمالاً نهر الساف ونهر الطونة أو الدانوب. ويشمل البلقان: ألبانيا، واليونان، وجنوب شرق رومانيا، وبلغاريا، وتركيا الأوروبية، ومعظم يوغوسلافيا.

والبلقان ساحة مضطربة خلال تاريخ طويل، شهدت صراع القوى الأوربية والقوىٰ الآسيوية وانطلاق نور الإسلام إلى أوروبا واستكبار أوروبا وصدّها عن سبيل الله، حتى شاع في التاريخ مصطلح «البلقنة» ليعبِّر عن الحروب الممتدَّة فيها. والحرب الدائرة حالياً أو الجريمة الكبرىٰ التي تنفّذ فيها واحدة من هذه الحروب، وكذلك حرب البلقان الأُولىٰ سنة ١٩١٢م، وحرب البلقان الثانية سنة ١٩١٣م.

وكان سكان يوغوسلافيا والبلقان في الزمن القديم من قبائل «إليريه». ثمّ احتل الرومان هذه المنطقة وامتدّ حكمهم فيها قروناً عدة حين كانت امبراطورية موحّدة. فأثّر الدين النصرانيّ فيها منطلقاً من روما. وكان الدين النصرانيّ قد بدأ يمتد في الإمبراطورية الرومانية بعد أن تولّى «قسطنطين» الحكم مستعيناً بالنصّارى ليصل إلى العرش. فاستفادت النصرانية من نفوذ الإمبراطور

«قسطنطين» ودعمه لها، ولكنها تأثَّرت كثيراً بالوثنيّة التي كان يعيشها الإمبراطور فاجراً فاسقاً ظالماً، وتسرَّبت إليها أفكار وثنية مختلفة، ولم تعد تستطيع أن تقدِّم للناس صفاء الإيمان والتوحيد الذي جاء به رسول الله عيسى عليه السلام. ولما انقسمت الإمبراطورية الرومانية وانقسمت معها الكنيسة أيضاً سنة ٣٩٥م إلى كنيستين: الكنيسة البيزنطية الشرقية ومركزها القسطنطينية، والكنيسة الرومانية الغربية ومركزها روما، أصبح لكل من الكنيستين أنصار وأتباع بين سكان هذه المنطقة.

وبين القرنين السادس والسابع الميلاديين أخذت المنطقة تتعرَّض لغزو جديد، حين أخذت قبائل «سقلبية» تغزو مناطق «إليرية» حتى كادت تقضي عليهم، إلا بقيّة منهم استطاعت أن تحافظ على وجودها في الجنوب الغربي مما يعرف اليوم بيوغسلافيا. ومن هذه البقية انحدر الشعب الألباني[١]. ويبدو أن هذه القبائل السقلبية كانت تعيش أولاً في غابات أوروبا الشرقية حسب بعض المصادر، وفي سهول روسيا وجبال أورال حسب مصادر أخرى.

وكان من أهم قبائل السقالبة التي تحرّكت باتجاه البلقان وروسيا وبعض بلدان أوروبا: الروس الذين اتجهوا إلى روسيا، والأكرانيون إلى أكرانيا، والبولنديون إلى بولندا والتشيكيون إلى ماكان يُعرف «بتشيكوسلوفاكيا»، والسلوفاكيون، والسلوفيون الذين كوّنوا «سلوفانيا»، والصرب الذين كوّنوا صربيا، والكروات الذين كوّنوا كرواتيا، والبشناق الذين كوّنوا البوسنة والهرسك[٢].

(١) رضا العراقي. كتابه «البوسنة والهرسك شعب يباد وأمة تغتصب». الناشر طويق للخدمات الإعلامية والنشر والتوزيع. ط(١). ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. (ص: ١٣).

(٢) المصدر السابق (ص: ١٣، ١٤). عبدالله إسهايتش. (ص: ٢١، ٢٢). عبدالعزيز المهنا (ص: ١٥، ٢١، ٢٢).

وتسمي بعض المصادر السقالبة بالسلافيين. والسلافيون من أهم المجموعات الهندوأوروبية، كما يذكر عبدالله عاصم أسمايتش في كتابه المذكور، وهم يشتركون في الأصل اللغوي والعرقي.

ويقول الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين إنّ توطن الشعوب السلافية في البلقان يعود إلى القرنين السادس والسابع حين احتشدت قبائلهم على الضفّة الشرقية لنهر الدانوب، وأخذت تجتاز النهر للسلب والنهب. ولما عجزت الدولة البيزنطية عن صدّ جموعهم المتدفّقة أخذت تستعين بهم في حربها ضد المسلمين الذين كانوا آخذين بالانتشار والامتداد في صدر الإسلام. فسمحت لهم بالاستقرار في أراضيها من أجل ذلك. ولكنّ بعضاً من هؤلاء السلافيين كانوا يفرّون من الجيش البيزنطي وينضمّون إلى المسلمين[1]. وربما كانت هذه هي بداية انتقال التصور الإيماني والتوحيد إلى فئات من السلافيين. وكذلك كان هنالك تأثير الدعاة المسلمين الذين كان يمتدّ تأثيرهم قبل وصول الجيوش الإسلامية على مدار التاريخ.

ومع الأيام أصبح بين هذه الشعوب ثلاثة اتجاهات دينية. فالكروات والسلوفيون اعتنقوا المذهب الكاثوليكي التابع لروما، بينما اعتنق الصرب المذهب الأرثوذكسي المرتبط بالكنيسة الشرقية. والبشناق، سكان البوسنة والهرسك، لم يأخذوا بهذا المذهب أو ذاك، واعتبروهما مذهبين يحملان تصورات وثنية تقدِّس البشر، وتعبد الصليب، وتقيم طقوساً دينية لم يتقبلوها فانتشر بينهم

---

(١) محمد أمين الحسيني. مجلة فلسطين. الهيئة العربية العليا لفلسطين. العدد (١٤٢). السنة (١٣). ذي الحجة ١٣٩٢هـ، كانون الثاني ١٩٧٣. (ص: ٤).

المذهب البوغوميلي. وهو مذهب مستمد من المانوية[1].

ومع القرن التاسع الميلادي قامت دولتان: دولة الصرب الأرثوذكس في الجنوب، ودولة الكروات الكاثوليك في الشمال. وامتد الصراع بينهما إلى يومنا هذا، وظلت بلاد البشناق منطقة نزاع. ولقد كان البشناق يقفون أول أمرهم على الحياد. ومع ذلك فقد كانوا يقعون تحت ضغط شديد من هؤلاء وهؤلاء، حين كان يطمع كل طرف أن يضمّهم إلى مذهبه[2].

لقد كوّن البشناق دولتهم الأولىٰ سنة (١١٣٧م) قائمة على المذهب البوغوميلي. فزاد الضغط عليهم وأثاروا بذلك حقد البابا وملوك المجر وبعض الدول الأخرى. وامتدّ هذا الحقد مع التاريخ ليتفجّر كلّ مرّة على صورة جرائم كبرى تُرْتَكب ضد البشناق، وعلى صورة مجازر يذهب ضحيتها مئات الألوف.

أخذت دعوة البوغوميلي تنتشر من بلغاريا. فخاف ملوك الصرب من

---

(١) رضا العراقي كتابه السابق. (ص: ١٣، ١٤). محمود السيد دغيم. مقالته في جريدة الحياة. (العدد ١١٨١٤). الجمعة ٢١ ربيع الأول ١٤١٣هـ (١٨ أيلول ١٩٩٢م). محمد أمين الحسيني المصدر السابق. (ص: ٤، ٥). يقول محمود السيد دغيم أن المذهب البوغوميلي نسبة إلى رجل اسمه بوغوميل اتبع المذهب المانوي. ويقول الشيخ محمد أمين الحسيني أنهم يسمون أحباء الله ويستمدون مذهبهم من المانوية وهي مزيج من النصرانية والبوذية ثمّ تأثرت بالإسلام. ويبدو أن كلمة بوجوميلي، "Bogu Milje" تعني أحبّاء الله. كما تذكر مجلة الشاهدة نقلاً عن كتاب الدكتور الفاتح علي حسنين: «الطريق إلى فوجا». [مجلة الشاهدة ـ العدد الأول ربيع الأول ١٤١٣هـ أيلول ١٩٩٢م. تصدر عن المجلس الإسلامي لشرق أوروبا من فيّنا ـ النمسا. ص: ١١].

(٢) رضا العراقي. كتابه السابق. (ص: ١٣، ١٤).

امتـدادهـا، وجـرّدوا لها حملة عسكـرية، فأحرقوا كتبهم، ودمّروا مساكنهم، وصـادروا ممتلكـاتهم، وقـطعـوا لسان زعيمهم، وأحرقوا بعضهم ونكلوا بهم تنكيلاً. فالتجـأ فلول البـوغـومول إلى إمارة البوسنة فوجدوا من أهلها عطفاً وترحيباً، فامتد المذهب بينهم وانتشر. فطلب البابا من ملوك المجر تجريد حملات عسكـرية على أتبـاع هذا المذهب الجديد. فقامت الحملات وتتابعت ولكنها فشلت واحدة بعد الأخرى. وظلّ البوغومليون صابرين على هذا الإيذاء مائتين وخمسين عاماً، إلى أن فتح العثمانيون صربيا. فطلب البوغومليون عونهم. ولكن حملة تيمـور لنك على تركيا الآسيوية أخرت الاستجابة إلى طلبهم حتى سنة ١٤٦٣م[١]، كما أخـرت كذلك مساعدة الأندلس. وكانت الدول الأوروبية تغـذّي كل قوة تقف في وجـه العثـمانيين، وتشعل الفتنة بعد الفتنة في العالم الإسلامي المتضعضع.

ومن بين المناطق التي يرد ذكرها هي منطقة «كوسوفو» أو «قوصوة» أو «قوص أوه». وهي تقع داخل منطقة الصرب. دخل أهلها كلهم في الإسلام مع الفتح العثماني. وأصل اسمها باللغة الألبانية «كوسمت»، وتعني «لؤلؤة»[٢].

أمـا منـطقة سنجق فقسم منها يقع اليوم في صربيا، وقسم يقع في الجبل الأسود. وأثناء حروب البلقان (١٩١٢، ١٩١٣م)، كانت سنجق كلها تمثّل

---

(١) محمد أمين الحسيني. المصدر السابق. (ص: ٤، ٥). يعتبر السيد محمد أمين الحسيني أن بلغاريا هي مصدر المذهب البوغوميلي. ويقول رضا العراقي في كتابه المذكور أن منبع هذه الديانة هي مقدونيا جنوب بلاد البشناق.

(٢) وكالة الأنباء الإسلامية وكتابها المذكور. (ص: ٧٥).

وحدة إدارية واحدة يحدُّها من الشمال الغربي صربيا والبوسنة والهرسك، ومن الجنوب الغربي الجبل الأسود وألبانيا، ومن الجنوب الشرقي كوسوفو. ودخل أهلها كلهم في الإسلام مع الفتوح العثمانية، وظلت تمثل وحدة سياسية وثقافية إسلامية حتى بعد انفصالها عن البوسنة والهرسك سنة ١٨٧٨م، ولم تتجزأ إلا مع الحروب البلقانية حين اقتسمها الصرب والجبل الأسود.

والجبل الأسود ترجمة حرفيّة لعبارة: «سرنا غورة Crna Gora» ويُطْلق عليها صغرى الجمهوريات اليوغسلافية. وهي تعرف باللغة الإنجليزية «منتنيجرو Montenegro»[1].

أما البوسنة والهرسك، موضوع هذه الملحمة، فلابد أن نقدّم عنها معلومات أوسع، خاصة وأن المسلمين اليوم يجهل بعضهم بعضاً، يجهلون صِلاتهم وتاريخهم وروابطهم، وذلك يمثّل قوة عظيمة، وعزّة طاهرة كريمة.

حملت البوسنة هذه التسمية من نهر ينبع من أسفل جبل يُدْعَى «أجمان»، ويُسَمَّى النهر «بوسنا». وطول النهر (٣٠٣) كيلو متراً يمتدّ مجراه كله في البوسنة. ويخرج منه عدة فروع، ثمّ يصبّ في نهر «سافا».

أما كلمة «الهرسك» فهي لقب للدوق الذي كان يحكم في القرن الخامس عشر الميلادي القسم الجنوبيّ من «البوسنة»، اعتباراً من سنة ١٤٤٨م، حين أعلن «ستيبان فوكتشتش» عن نفسه «هيرتسج» على جنوب البوسنة. وهيرتسج مأخوذة من الكلمة الألمانية «هيرتسوغ» وتعني الدوق[2].

---

(١) المصدر السابق (ص: ٢٢).

(٢) وكالة الأنباء الإسلامية وكتابها المذكور (ص: ١٤٢). عبدالله إسمايتش وكتابه المذكور (ص: ٥٨).

وتقع جمهورية «البوسنة والهرسك» في المنطقة الوسطى من جنوب يوغسلافيا ويحدّها من الشمال والغرب كرواتيا، ومن الشرق صربيا، ومن الجنوب الجبل الأسود.

والبوسنة والهرسك بلاد جبلية، تمتد فيها عشر سلاسل من الجبال. وفيها ثروات معدنية كثيرة أهمها: الصلب، الفحم، الحديد، النحاس، الرصاص، الزنك، الألمنيوم، البوكسيت، ولقد تقدّمت فيها بعض الصناعات الثقيلة. فهي تنتج الصلب والزنك والرصاص، وتنتج الأسمنت أيضاً، وشمال البلاد يصلح للزراعة، وهي تنتج الفواكه من عنب وخوخ وغيرهما، وتنتج السكر والقمح والتبغ، وتغطي الغابات مايقرب من ٣٠٪ من أراضيها.

ويمتدّ ساحل البوسنة والهرسك على شاطيء البحر الأدرياتيكي مسافة عشرين كيلو متراً. وفي يوغوسلافيا كلها (١٨٥٠) نهراً صغيراً تصب في نهر الدانوب ثم في البحر الأسود. ولنهر الدانوب فروع كثيرة. وأهم الأنهار التي تمر في البوسنة والهرسك نهرا «سافا» و «نيرتيفا»[1].

ويعمل أهل البوسنة والهرسك في ميادين متعددة: كالصناعة والزراعة وقطع الأخشاب وتربية المواشي[2].

ومن أهم مدنها: العاصمة سيراييفو، وبانيالوكا، وموستار، وبيلينيا، وزفورنيك، ودوبوي، وجراد يشكا، وزنيسيا، وياييس، وغيرها[3].

---

(١) وكالة الأنباء الإسلامية وكتابها المذكور. (ص: ١٣٩ - ١٤٦).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المصدر السابق.

ويتميز أهل البوسنة والهرسك بحبهم للعلوم. فقد نبغ فيهم علماء مسلمون. وماكان الرجل يسمى عالماً حتى يجيد اللغة العربية والتركية والفارسية وحتى يقول الشعر بها كلها. ويتميّزون باعتزازهم العظيم بالإسلام وعمق إيمانهم وشدّة بذلهم له[1]. وقد نبغ فيهم من أوائل القرن العشرين الكاتب القاص «إيفواندريتش» الذي حصل على جائزة نوبل في الآداب سنة ١٩١٦م[2]. وإن كنا لانقيم وزناً كبيراً للاتجاهات الفكرية التي تنهجها جائزة نوبل.

هذه هي «البوسنة والهرسك» التي تدور حولها هذه الملحمة، وتدور على أرضها ملحمة حقيقية من أخطر ملاحم الإسلام ليمحّص فيها المسلمون جميعاً. وتدور فيها أسوأ الجرائم التي عرفها التاريخ البشري يقودها أكابر المجرمين في الأرض، ليكشف زيف الحضارة التي يدّعونها، وزيف شعارات النظام الدولي، وزيف المؤسسات الدولية التي يتبدّل الميزان بين يديها، وتتبدّل القيم والمبادىء مع الأهواء والمصالح والأطماع.

تحمل «البوسنة والهرسك» تاريخ أكثر من خمسة قرون من الجهاد في سبيل الإسلام. لم يتوقف الصراع فيها، ولم تتوقّف المجازر، ولم يتوقّف البذل والعطاء، ولم تتوقف الملاحم على أرضها، لترتبط من خلال ذلك كله مع دار

---

(١) رضا العراقي وكتابه المذكور. (ص: ١٥، ١٦). وكالة الأنباء الإسلامية. (ص: ١٣٩ ـ ١٤٦). محمد أمين الحسيني. مجلة فلسطين. (العدد: ١٤٢). (ص: ١١، ١٢).

(٢) وكالة الأنباء الإسلامية. كتابها (ص: ١٤٤).

الإسلام كلها، ومع أُمة الإسلام الممتدة في التاريخ، في ملحمة واحدة ماضية مع الزمن حتى قيام الساعة، يدعو فيها المسلمون إلى الحق الذي تقوم عليه السموات والأرض، وإلى الخير والصلاح، خير الإنسان، خير البشرية كلها، ويحاربون الفتنة والفساد، والجريمة الظاهرة بقبحها وظلمها وعدوانها، والجريمة المتخفيّة وراء زخارف الحضارة الغربية وزينتها الخادعة، وشعاراتها الزائفة، ونظمها الضالة المضلّة في الساحة الدولية.

وتدور الملحمة في «البوسنة والهرسك» وربما تمتد وتتسع لتلتهب أرض البلقان كلها، كما تدور الملحمة في فلسطين، وبورما، وكشمير، والهند، والصومال، والفيلبين، وهنا وهناك، حيثما دوّى النداء «الله أكبر»!

﴿. . . ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾. [البقرة: ٢١٧].

﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾. [البروج: ٨].



الفصـل الثـاني

نور الإسلام

يدخل أوروبا من الشرق

لم تكن الفتوح الإسلامية غزواً بالمعنىٰ الذي عرفته مساحة واسعة من التاريخ البشري. ولم يكن سعياً وراء مطامـع وثـروات، ولا إشباعاً لنزعات العدوان والـظلم والـطغيان. كانت الفتوح الإسلامية عملاً فريداً في التاريخ البشريّ كله. كانت فتوحاً تحمل رسالة الله إلى خلقه وعباده، ليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله الواحد القهّار، وليصلحوا في الأرض لاليفسدوا، وليعلموا الناس أسس الحق والعدل والأمان.

هكذا انطلقت الفتوح الإسلامية، وهكذا مضت في تاريخ طويل فإن حدث أن خرجت في لحظة عابرة عن هذا النهج في أمر من أموره، فإن هذا الخروج يمثل انحرافاً عن نهج الإسلام سرعان مايعود الصادقون إليه.

وبعد الفتوح يستقر الأمر للمسلمين ماأقاموا شرع الله، فإن أخذتهم الدنيا ولهوها وشهواتها، وفسدت النيّة وتعطّل الجهاد واختلطت الأمور، فقد المسلمون بذلك ملكهم وعزّهم، وانتابتهم النكبات، وأذلهم أعداء الله.

هكذا امتدّ الإسلام حتى بلغ الأندلس. ثمَّ تحرَّكَ ليُدخِلَ النور إلى أوروبا. فحـال دون ذلـك عنـاد أوروبـا وإصرارهـا على رفض النور القادم إليها من الأندلس، وكذلك انصراف المسلمين إلى لهو الحياة الدنيا ونعيمها.

ولكن دعاة الله في الأرض ماضون أبداً لايتوقفون عن حمل رسالة الله إلى

الناس. يمضون على قدر لله غالب. فإذا توقّف امتداد الإسلام إلى أوروبا من الأندلس، فقد فتح الله لدينه منفذاً آخر من شرق أوروبا. وبين هذا وذاك كان الدعاة ماضين بدعوتهم من خلال التجارة والسفر والتجوال، ومن خلال القتال أيضاً، ليُصبح القتال جزءاً من منهج متكامل للدعوة والبلاغ، ولنشر دين الله، وحماية أرض المسلمين وأعراضهم وأموالهم التي ستظل موضع طمع المشركين والكافرين وعدوانهم الظالم الإجرامي.

هكذا نزل الوحي الكريم ليهدي الله به عباده ويعلّم خلقه:

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلِحون﴾. [آل عمران: ١٠٤].

وهكذا بلّغ الرسول ﷺ رسالة ربّه، وأدّى الأمانة وبيَّنها للناس، وعلمهم حقائق هذا الدين ومنزلة الدعوة والبلاغ:

فعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبيّ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عن المنكر أو ليوشكنّ الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده ثمَّ تدعونه فلا يستجاب لكم**». [رواه الترمذي وقال حسن صحيح][1].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم**». [رواه البخاري ومسلم][2].

لقد كانت قضيّة البلاغ والبيان، قضية دعوة الناس إلى الإيمان والتوحيد،

---

(١) الترمذي. كتاب الفتن (٣٤). باب (٩). حديث (٢١٧٠).

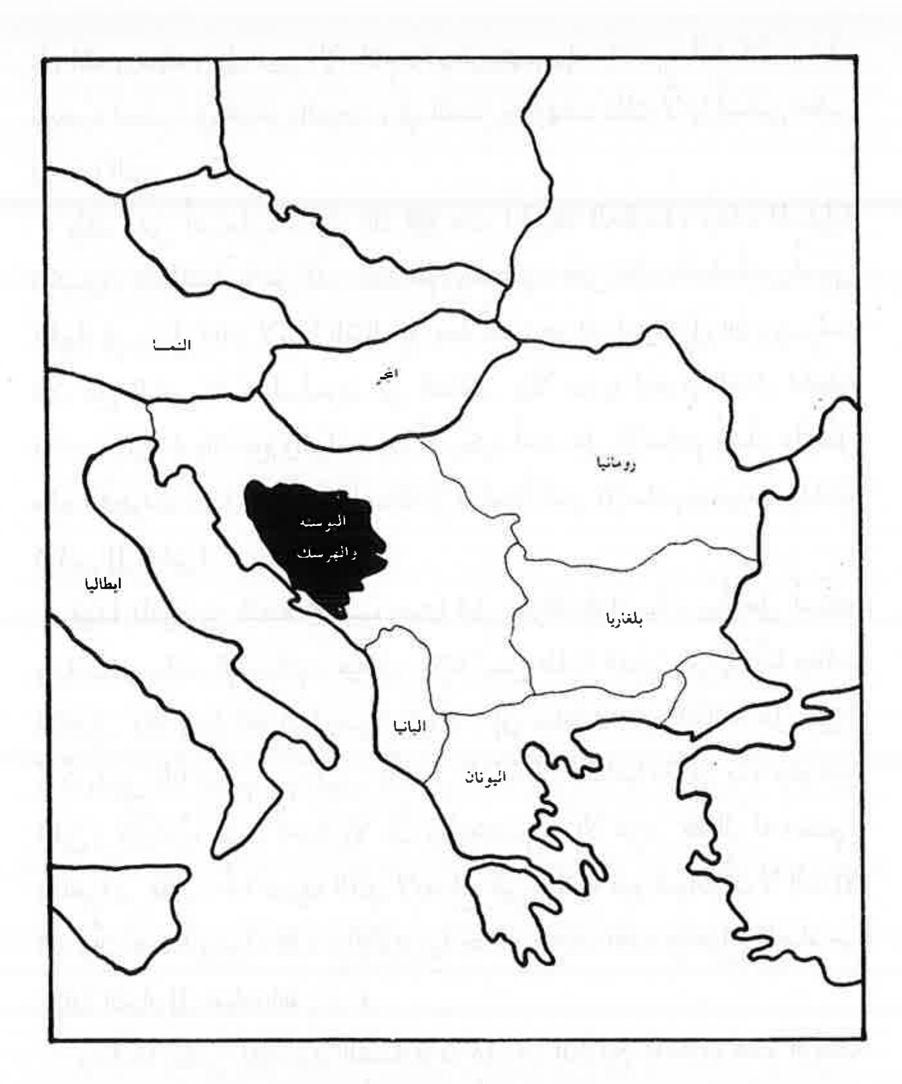
(٢) البخاري. كتاب فضائل الصحابة (٦٢). باب (٩). حديث (٣٧٠١). مسلم. كتاب فضائل الصحابة (٤٤). باب (٤). حديث (٢٤٠٦).

إلى الله ورسوله، إلى دين الإسلام، ثم تربيتهم وإعدادهم، لقد كانت هذه القضيّة أساسية في الفكر والتوجيه، في العمل والجهاد، ذلك لأنها أساس عظيم في هذا الدين.

ولقد وعىٰ أصحاب رسول الله ﷺ هذه الحقيقة العظيمة، وهذه المسئولية الكبـيرة، فانطلقوا بها على قدر جهدهم ووسعهم، حتى كانت أساساً من أسس الجهاد في سبيل الله، لايبدأ القتال إلا بعد أن يدعو المسلمون إلى الله ورسوله، فإن قبل الناس كفَّ المسلمون عن القتال، وإلا مضوا ليكون القتال الخطوة الأخيرة للبلاغ والدعوة والبيان دون أن يُكره أحد على الإسلام أبداً، ولتُمثِّل هذه الخُطوات كلها منهجاً ربّانيّاً متكاملاً متناسقاً لنشر الإسلام ودعوته، ولهداية الناس إلى الحق!

فهذا المغيرة بن شعبة يخاطب رستما قبل معركة القادسية، يردُّ على أسئلته ويبلغـه رسـالـة الإسـلام، فيقول: «إنا ليس طلبنا الدنيا. وإنما هَمُّنا وطلبنا الآخرة. وقد بعث الله إلينا رسولاً قال له: إني سلطت هذه الطائفة على من لم يُدنْ بديني فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل الغلبة لهم ماداموا مقرِّين به، وهو دين الحق، لايَرْغَبُ عنـه أحـد إلا ذلّ ولايعتصم به إلا عزّ». فقـال له رستم: «ماهو؟». فقال: أما عموده الذي لايصلح شيء إلا به فهو شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله، وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله...».

وهكـذا مضىٰ المؤمنـون الصـادقون على مرّ التاريخ يحملون هذه الرسالة العظيمة يبلغونها للناس وفاءً بالأمانة وقياماً بالواجب طاعة لله ولرسوله. وماترك المسلمون هذه المهمة العظيمة إلا ذلّوا وهانوا. فهي مسئولية كل مسلم قادر،



البوسنة والهرسك في وسط هائج

(من كتاب البوسنة والهرسك ـ قضية ومأساة ـ عبدالعزيز المهنا)

وكل جماعة، وهي مسئولية الأمة المسلمة في الأرض، بأبنائها وعلمائها وجنودها ودعاتها وولاة أمرها.

وهذا عثمان بن أرطغرل مؤسس الدولة العثمانية يوصي ابنه أورخان وصيته الرائعة التي تركها له، ونقلها لنا التاريخ، فيقول فيها:

«اعلم يابني أن نشر الإسلام وهداية الناس إليه وحماية أعراض المسلمين وأموالهم أمانة في عنقك، سيسألك الله عنها. . . .»[1]. وفي رواية أخرى للوصية:

«يابنيَّ إنني أنتقل إلى جوار ربي وأنا فخور بأنك ستكون عادلاً في الرعيّة مجاهداً في سبيل الله لنشر دين الإسلام. . .»[2].

هكذا انطلقت جيوش المسلمين على مدار التاريخ، وهكذا انطلقت جيوش العثمانيين يحملون نور الإسلام إلى شعوب الأرض. انطلقوا وهم يعون هدفهم!

وحين كان المسلمون يتخلّون عن هذا الهدف العظيم كانت دولتهم تدول وسلطتهم تزول. ففي ٢٣ رمضان ٨٩٨هـ [٧ آب (أغسطس) ١٤٩٢م]، بعد نحو ثمانية قرون من فتح الأندلس، كان أبو عبدالله، آخر ملوك غرناطة التي كانت آخر معقل للمسلمين، يوقع مع فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيين اتفاقية الذلّ، وتقضي برحيل أبي عبدالله عن الأندلس إلى المغرب، وحين أخذ النصارى الكاثوليك يطلقون محاكم التفتيش لتفتك بالمسلمين في الأندلس قتلاً وترحيلاً وتعذيباً وحرقاً، حين كان هذا كله يتمُّ في الغرب كان المسلمون

---

(١)، (٢) زياد أبو غنيمة. جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك. نشر دار الفرقان للنشر والتوزيع. الطبعة الثانية (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م). (ص: ٢١).

العثمانيون يزحفون على أوروبا من الشرق يحملون رسالة الإسلام، ويتقدّمون من نصر إلى نصر، ونور الإسلام يمتدّ وينتشر.

بدأ الزحف العثماني الإسلامي باتجاه أوروبا في عهد السلطان أورخان بن السلطان عثمان الغازي سنة ٧٥٠هـ (١٣٤٩م). فقد وكل السلطان ابنه سليمان خان بذلك. فعبروا بحر مرمرة مع ثمانين بطلاً على ألواح من الخشب، وافتتحوا عدداً من المدن والقلاع الحصينة في بلاد اليونان وضموها إلى الحكم العثماني. وكان من أهم المدن ظنب وكليبولي[1].

وامتدت الفتوح الإسلامية في بلاد البلقان في عهد السلطان مراد الأول بن أورخان الغازي (٧٦١هـ - ٧٩١هـ) الموافق (١٣٦٠م - ١٣٨٩م) امتداداً قوياً. فقد تمّ في عهده فتح مدن كثيرة. وكان أهم الفتوحات مدينة «أدرنة»[2]. وهي تقع في منتصف تركيا الأوروبية. وكان فتحها سنة ٧٦٢هـ (١٣٦١م). ثم اتخذها

---

(١) يوسف آصف. تاريخ سلاطين آل عثمان. جزء (٢). (ص: ٣٤) - رضا العراقي. البوسنة والهرسك. (ص: ١٤ - ١٧). مدينة كاليبولي أو كليبولي (Gallipoli - Galibolu) مدينة هامة على الضفّة الأوروبية عند منتصف مضيق الدردنيل الواصل بين بحر مرمرة وبحر إيجة).

(٢) أدرنة: كان اسمها «أدرينانوبل» (Adriunople) نسبة لمؤسسها الإمبراطور هادريان حوالي سنة ١٢٥م. أصبحت عاصمة العثمانيين بعد فتحها وظلت عاصمة لهم حتى تم فتح القسطنطينية وكانت العاصمة الأولى هي بورصة. ولموقع «أدرنة» أهميّة خاصة تضع أوروبا الشرقية تحت قوتها وتفتح منافذها. وهي كذلك تجعل مدينة القسطنطينية تحت حصار محكم. تُراجع أعداد جريدة الحياة (١٠٨٠٠، ١٠٨١٤، ١٠٨٦٨) بتاريخ ١٩٩٢/٩/٤م، ١٩٩٢/٩/١٨م، ١٩٩٢/١١/١١م ومقالات محمود السيد الدغيم فيها وفي غيرها من الأعداد.

العثمانيون عاصمة ملكهم حتى تمّ فتح القسطنطينية فنقلوا العاصمة إليها.

لذلك دعا البابا «أوربانوس» المنتخب سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م) إلى النفير العام بين ملوك أوروبا لطرد العثمانيين ولإغلاق هذه الفتحة التي يدخل منها النور إلى أوروبا. فاجتمع ملك الصرب أوردك الخامس وأمراء البوسنة والأفلاق[1] والمجر واليونان. ولكن هزمهم الله في معركة كبيرة على شاطيء نهر ماريتزا إلى الجنوب من صوفيا عاصمة بلغاريا.

وتتابعت الفتوح الإسلامية. فتم فتح مدينة «مناستر» في مقدونيا، وهي تسمى الآن «بيتولا»، وتم فتح مدينة «بريليه»، ومدينة «استيب» قرب اسكوب عاصمة مقدونيا، ثم فتح الله لهم «صوفيا» عاصمة بلغاريا بعد حصار دام ثلاث سنين (١٣٨١م-١٣٨٣م)، ثم «سالونيك» التاريخية ومدناً أخرى في بلغاريا.

إلا أن ملك الصرب لازار أخذ يجمع جيشاً جديداً مستعيناً بأمراء ألبانيا والأرناؤوط. فهاجم مراد الأول ودارت معركة كبيرة حاسمة مازالت أصداؤها تتردّد حتى اليوم في أذهان الصرب، وذلك في «كوسوفو». (خوص أوه) سنة ٧٩١هـ (١٣٨٩م). ولقد فرّ من هول المعركة «فوك برانكوفتش» صهر الملك «لازار»، والتحق بجيش المسلمين وانضمّ إليهم مع عشرة آلاف من جنوده. لقد كتب الله النصر للمسلمين في هذه المعركة الرهيبة. وراح السلطان مراد الأول يتفقّد القتلى والجرحى، فوثب عليه جنديٌّ صربيٌّ من بين الجرحى اسمه «ميلوش كوبلوفتش» وطعنه طعنة أودت بحياته، وذلك في ١٥ شعبان سنة ٧٩١هـ

---

(١) الأفلاق أو الفلاخ: أقليم بسهل الدانوب في رومانيا. أهم مدنه بوخارست عاصمة رومانيا.

(٩ آب ١٣٨٩م)[١]. وتولَّى الحكم بعده ابنه «بايزيد الأول» الذي حكم مابين (٧٩١هـ - ٨٠٥هـ) الموافق (١٣٨٩م - ١٤٠٣م)، وقام خلالها بفتوحات جليلة. فاستقر وضع الصرب في زمانه بعد أن ولّى عليها «اسطفان بن لازار» وعاملهم معاملةكريمة. وانتصر على الأفلاق، وحاصر القسطنطينية سنة ٧٩٥هـ (١٣٩٣م). وضمّ بلاد البلغار لملكه ولاية عثمانية سنة ١٣٩٤م. فأعلن البابا الحرب الدينية ولبّى دعوته دوق بورغونيا الفرنسية وملك المجر وأمراء بافاريا الألمانية وأمراء النمسا وفرسان القديس يوحنا الأورشليمي. ودارت المعركة عند «نيكوبيلي». فنصر الله المسلمين. ثم شدّد السلطان يزيد الحصار على القسطنطينية.

وكانت فتوحات العثمانيين تتعرَّض إلى خطرين بالإضافة إلى خطر تجمع الدول الأوروبية وتحريض البابا!. وكان أول هذين الخطرين تيمور لنك. فقد أغار تيمورلنك على العثمانيين وهم يحاصرون القسطنطينية. فاضطر بايزيد إلى التوجه لمحاربته وترك الحصار. فوقع أسيراً في يد تيمورلنك الذي قتله. والخطر الثاني كان من المماليك في مصر. وقد برز خطرهم في عهد محمد الفاتح... وبايزيد الثاني. ولقد حاولت الدول الأوروبية الاستفادة من هذه الأوضاع. فهي التي استنجدت بتيمورلنك، وهي التي حاولت الاستفادة من موقف المماليك، وهي التي أخذت تثير الفتن الداخلية وتثير فئة ضد أُخرى.

دروس واسعة نتعلمها من ذلك الواقع. ولعلها تساعدنا على فهم واقعنا اليوم، عندما نرد الماضي والحاضر إلى منهاج الله، ونحدّد الرؤية والموقف على أساس ذلك، لتظلّ قوى المسلمين كلها تعمل لنصرة دين الله، ولاتفتح ثغرات

(١) هذه الرواية لمقتل السلطان مراد الأول مأخوذة من كتاب: «تاريخ سلاطين آل عثمان»

يتسلل منها الأعداء. وأهم مايعين على ذلك هو التخلّص من العصبيات الجاهلية والمطامع الدنيوية، وإخلاص النيّة لله ـ سبحانه وتعالى ـ ورجاء الدار الآخرة.

تولّى الحكم بعد بايزيد الأول ابنه محمد خان تشلبي (٨١٦هـ ـ ٨٢٤هـ) الموافق (١٤١٣م ـ ١٤٢١هـ)، ثم خلفه ابنه مراد الثاني الذي حكم خلال الفترة (٨٢٤هـ ـ ٨٥٥هـ) الموافق (١٤٢١م ـ ١٤٥٠م).

بدأ مراد الثاني حكمه بمحاصرة القسطنطينية واسترداد الإمارات الأسيوية التي فصلها تيمور لنك، ثمّ توجه لأوروبا. فانتصر على ملك المجر في معركة «كولباز» على شاطيء نهر الدانوب جنوبي بلغراد. وعادت صربيا وخضعت للمسلمين ودفعت الجزية، وأعاد فتح «سالونيك» سنة ٨٣٣هـ (١٤٣٠م). ثمَّ فتح ألبانيا سنة ٨٣٤هـ (١٤٣١م). ودارت معارك عدة بينه وبين المجر والبلغار والأفلاق (الفلاخ)، وكانت الحرب سجالاً. ثم تنازل عن الحكم لابنه محمد الفاتح الذي حكم خلال الفترة (٨٥٥هـ ـ ٨٨٦هـ) الموافق (١٤٥٠هـ ـ ١٤٨١).

أصبح بين المسلمين والصرب والمجر عهود ومواثيق بإيقاف الحرب لمدة عشرة سنوات. ولكنهم نكثوا عهدهم بتحريض من البابا ومندوبه الكاردينال سيزاريني، وهجموا على حدود الدولة العثمانية. فعاد السلطان مراد الثاني وقاد الجيوش إلى مدينة فارنا (Varna) على شاطيء البحر الأسود البلغاري. فَقُتِلَ ملك المجر الذي كان على رأس الفتنة والفساد، وتمزّق جيشه واحتلَّ المسلمون معسكر المجريين، وقتلوا الكاردينال «سيزاريني» الذي حرَّض على الفتنة والفساد ضد المسلمين بالتعاون مع «لادسلادس» ـ ملك المجر ـ الذي سبق أن

قتل في المعركة، وذلك في ٢٨ رجب سنة ٨٤٨هـ الموافق ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٤٤٤م. ثمّ استعاد السلطان ألبانيا سنة ٨٥١هـ (١٤٤٧م). وقاد معركة جديدة في كوسوفو ضد المجر سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٨م).

وكانت باكورة أعمال السلطان محمد الفاتح هي فتح القسطنطينية في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م). وسميت بعد ذلك «إسلامبول» أي «تخت الإسلام أو مدينة الإسلام». ومن هذه التسمية ومن غيرها نرى شدة ارتباط الفتوح بالإسلام سواء من حيث الحوافز أو من حيث المنهج والسلوك في القتال وبعد القتال، مما يمثل مظاهر فريدة في التاريخ البشري، مظاهر يصوغها الإيمان والتوحيد ودين الإسلام.

وتلا ذلك خضوع الصرب بعد تمرد وذلك سنة ٨٥٨هـ (١٤٥٤م) وتعهد ملك الصرب بدفع ثمانين ألف دوكا حيث فضل الملك الصربي حكم المسلمين على حكم المجر الكاثوليك لما كانوا يلقون منهم من ظلم وتمييز وعدوان. وتم بعد ذلك فتح جميع بلاد الصرب خلال الفترة (٨٦٢هـ ـ ٨٦٤هـ) الموافقة (١٤٥٨م ـ ١٤٦٠م). وحين تمرّد أمير «الفلاخ»[١] في رومانيا غزاه السلطان محمد الفاتح واحتل بوخارست، وتم بعد ذلك فتح كامل بلاد البوسنة والهرسك على يد السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٨هـ/١٤٦٤م. فدخل أهل البوسنة في دين الإسلام راغبين مقبلين مؤمنين. والتحق منهم ثلاثون ألفًا بالجيش الإسلامي.

ونلاحظ هنا أن الإسلام لم يكن يُفرض بالقوة. وإنما كانت مهمة المسلم ومهمة الفتوح دعوة الناس إلى دين الله لإنقاذهم من هلاك الكفر والشرك،

(١) أو الأفلاق.

والفتنة والفساد. ولقد نظم الإسلام حقوق كل طائفة تخضع لسلطانه تنظيماً عادلاً أميناً، حتى كان بعض أهل الكتاب أنفسهم يلجأون إلى الإسلام ودولته، إلى عدله وأمنه وصدقه، وإلى أمانه ووفائه، يؤثرونه بسبب ذلك على أهل ملتهم.

وأخذ البابا بيوس الثاني يتابع تحريضه لملوك أوروبا وأمرائها على حرب الإسلام والمسلمين، ويدعو إلى حلف بعد حلف، وحرب بعد حرب، وكانت الحرب سجالاً، ودخلت فيها بتحريض البابا البندقية. وفي سنة ٨٨١هـ (١٤٧٧م) أغار السلطان محمد الفاتح على إقليم (فريول Frioul)فاحتله بعد أن اجتاح كرواتيا وعاصمتها زغرب، وسلوفينيا وعاصمتها «ليوبليانا»، وتنازل أهل البندقية عن مدينة «كروبا» الواقعة شمال مدينة «تيرانا» عاصمة ألبانيا، ثمّ سلموا بعد ذلك مدينة أشقوردة للسلطان في ٥ ذي القعدة سنة ٨٨٣هـ (١٤٧٩م)، واستكمل السلطان فتح الجزر اليونانية ومدينة أوترانت جنوب إيطاليا، وحاصر جزيرة رودس مركز فرسان القديس يوحنا دون أن يفتحها بسبب وفاته سنة ٨٨٦هـ (١٤٨١م).

وجاء بعد محمد الفاتح ابنه بايزيد الثاني (٨٨٦هـ - ٩١٨هـ) الموافق (١٤٨١م - ١٥١٢م). وفي عهده برز تأثير المماليك في مصر وتعاونهم مع الدول الأوروبية ومع ثاني أبناء السلطان محمد الفاتح واسمه (جسم : ZiZim) الذي ثار على السلطان بايزيد، وفرَّ إلى مصر فاحتضنه «قايتباي»، ثم حاول إثارة الفتن ضد أخيه في حلب، وتعاون مع «فرسان القديس يوحنا» في رودس، ثم تنقَّل بين فرنسا وغيرها من الدول الأوروبية التي استغلته ضد الدولة العثمانية،

كما استغلّه البابا في روما. وبقي على هذه الحالة من الاستغلال حتى توفي[1].

وكادت الحرب تشتعل بين السلطان العثماني ومصر سنة (١٤٨٧م)، لولا تدخل باي تونس. وظلت الحروب مشتعلة بين العثمانيين وبين الدول الأوروبية يثيرها ويحرّكها البابا، وكذلك الملوك الذين غلبتهم شهواتهم ومطامعهم فلم يستجيبوا لدعوة الإسلام، وبذلوا غاية جهدهم لمنع هذا الخير عن شعوبهم. فتحرّكت بولونيا والمجر والبنادقة وإسبانيا وفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية، وجمعوا أسطولاً بحرياً دخل في معركة مع العثمانيين الذين انتصروا على هذا التجمع، واضطر عدد من الدول أن يُوقِّع معاهدة مع الدولة العثمانية المسلمة.

وفي زمن بايزيد الثاني برز خطر آخر يهدّد الدولة العثمانية ذلك هو الشاه إسماعيل الصفوي الذي كان يهدِّد السلطنة بالهجوم وإثارة الفتن الداخلية، بالإضافة إلى ماكانت تثيره الدول الأوروبية من فتن داخلية، تستغلّها لتحطيم قوة المسلمين والصدِّ عن سبيل الله. فقضى بايزيد الثاني وقتاً غير قصير في القضاء على الفتن الداخلية.

ولما جاء بعده السلطان سليم الأول (٩١٨هـ - ٩٢٦) الموافق (١٥١٢م - ١٥٢٠م). قضى على المعارضة الداخلية، ثم هاجم تبريز عاصمة الشاه إسماعيل الصفوي، ودخلها منتصراً سنة ٩٢٠هـ (١٥١٤م). وكان قانصوه الغوري سلطان مصر يؤازر إسماعيل الصفوي ضد آل عثمان. فتوجه السلطان سليم إلى مصر، فهزم قانصوه الغوري في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ

---

(١) تاريخ سلاطين آل عثمان. يوسف آصف. جزء (٢). (ص: ٦٣) - مقالة محمود السيد دغيم في الحياة العدد (١٠٨٠٠) في ١٤١٣/٤/٧هـ (١٩٩٢/٩/٤م).

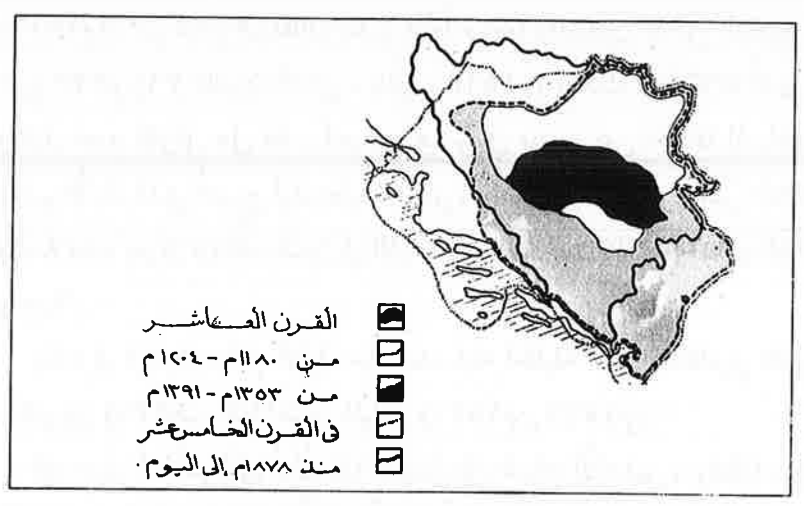
(١٥١٦م). ثم تقدم السلطان سليم فاتحاً سوريا وفلسطين ودخل القاهرة ٨ محرم ٩٢٣م (٣١ كانـون الثـاني ـ يناير ـ ١٥١٨م) ومكث فيها ثلاثة أشهر. وتنازل محمد المتوكل على الله ـ آخر بني عباس في مصر ـ عن الخلافة للسلطان سليم الأول الذي أصبح أول خليفة عثماني، وأصبحت استانبول مقرّ الخلافة الإسلامية، ومركز قوة للمسلمين في الأرض تجمعهم تحت كلمة واحدة وسلطان واحد(١).

ولما توفي الخليفة سليم الأول جاء بعده ابنه الخليفة سليمان القانوني الذي حكم بين (٩٢٦هـ ـ ٩٧٤هـ). الموافق (١٥٢٠م ـ ١٥٦٦م).

لقد سبق أن أشرنا في أول هذا الفصل إلى ضياع الأندلس، وانطفاء نور الإسلام فيها. لقد استنجد أهل الأندلس بالسلطان بايزيد الثاني الذي كان يرغب في نجدتهم إلا أن الفرقة التي كانت بين الأقطار الإسلامية والخلافات الناشئة والأطماع الملتهبة جعلت المماليك يتعاونون مع الدول الأوروبية ويغلقون بذلك باب النجدة عن طريق شمال أفريقيا. وكان لهجوم تيمورلنك على الدولة العثمانية أثـر كبـير في تعـطيل مساعدة السلطان بايزيد الأول للمسلمين في الأنـدلس. وكانت الدول الأوروبية تغذّي كلّ فتنة تظهر وتزيد من تحريض تيمـورلنـك ضد العثـمانيين، وتحـريض المـماليك كذلك، وتحريض إسماعيل الصفـوي، وإثارة الفتن الداخلية كما رأينا سابقاً من استغلالها لأخ السلطان محمد الفاتح. وظلّ هذا دأب أعداء الإسلام أبداً.

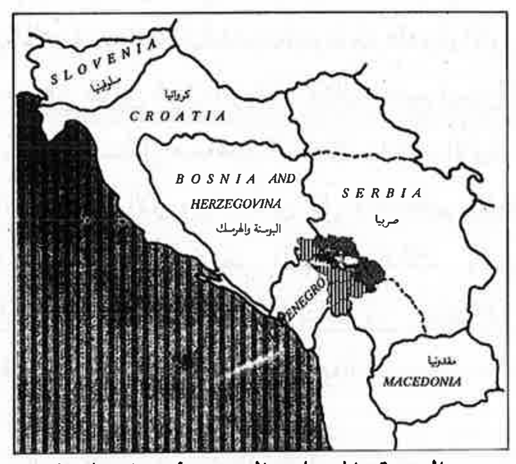
---

(١) مقالات محمود السيد الدغيم في جريدة الحياة التي سبق ذكرها، يوسف آصف ـ تاريخ سلاطين آل عثمان.



الحدود التاريخية للبوسنة والهرسك

(من كتاب الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين)



البوسنة والهرسك والسنجق في يوغوسلافيا

(مكتب «البوسنة والهرسك» لوكالة الأنباء الإسلامية)

ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وعد رسوله محمداً ﷺ أن لا يسلط على أُمته عدوّاً من سوى أنفسهم إلا إذا وقعت الفرقة بينهم واحتدم الصراع ففتحوا بذلك هم بأنفسهم منفذاً للأعداء، وسبّبوا هم بأنفسهم غضب الله بمعصيتهم له وعدم تآلفهم أُمة واحدة كما أمرهم. ولنستمع إلى الحديث الشريف يوضح ذلك:

عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله زَوَى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها. وإن أُمتي سيبلغ ملكها مازُوِيَ لي منها. وأُعطيت الكنزين الأحمر والأصفر. وإني سألتُ ربي لأُمتي أن لا يهلكها بِسَنَةٍ عامة وأن لا يسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. وإن ربي قال لي: إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرَد. وإني أَعطيت لأُمتك أن لا أُهلكهم بِسَنَةٍ، وأن لا أُسلط عليهم عدوّاً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم مَنْ بأقطارها، أو قال مَنْ بين أقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً**». [أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح][1]

هذا هو حكم الله وقضاؤه. وهذه سنة من سننه سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا. وهي سنة نافذة فيما مضىٰ، وفي حاضرنا، وفي مستقبلنا. وعلى أساس هذه السنن الثابتة الماضية وأمثالها مما يعرضه منهاج الله نستطيع أن نحلل تاريخنا الماضي وحاضرنا ومستقبلنا.

كم نرى اليوم من صراع بين فئات مختلفة في واقعنا، ينفذ من خلاله الأعداء إلى صفوفنا فيمزّقوها. وكم من خلافات لو درستها لوجدتها صراعاً بين فئات تحاول كل فئة أن تثبت وجودها فحسب، تصارع من أجل ذلك تحت شعارات

(١) كتاب الفتن ٣٤. باب ١٤. حديث (٢١٧٥).

براقة وزخارف تضلل الناس، فتضيع مصالح الأمة وتمزّق دارها والأهواء مجنونة ثائرة لاتجد سبيلاً لكبحها. فليس لها إلا صدق الإيمان وسلامة العلم بمنهاج الله ووعي الواقع. فإذا اختلّ الإيمان واضطرب، واختلّ العلم أو جفّ، فما الذي يلجم الأهواء والأطماع وحب الدنيا؟!

سؤال كان يثور في أذهان المسلمين دائمًا. كيف تضيع الأندلس وللمسلمين قوة حقيقية في الأرض؟! كيف سكت المسلمون عن ضياعها ورأوا الدماء تتفجّر والأعـراض تنتهك والحرمات تدنّس وتداس والأحياء يحرقون وملايين الكتب العلمية تحرق؟!

سؤال يثور دائماً. فلعلنا في العرض السابق وجدنا الإجابة عليه، ووجدنا الإجابة على أسئلة مماثلة تثور وتتأجج حول قضايا متجددة وديار أخرى تضيع، ودماء تتفجّر تملأ الزمان!

حين نردُّ أمـورنا إلى منهاج الله ردّاً أميناً، وحين تسكتُ صرخات الأهواء والشهوات في داخلنا، عندئذ نرى الأمور واضحة بيّنة، وعندئذ نتيَقّن ونزداد يقيناً بأن الله حقٌّ عادلٌ لايظلم أبداً، ولكننا نحن نظلم أنفسنا. فهل من توبة وأوبة وإنابة؟!

لقد استغاث مسلمو الأندلس بمماليك القاهرة فأمدوهم بالخطب السياسية وهم يُذبحون، وفتحوا صدورهم لسفير فرديناند وأيزابيلا ليعلن أنه يمثل الملكين الكاثوليكيين إلى مصر! هكذا يرتبطون بكاثوليكيتهم التي لاتبيح لهم إجرامهم الـذي يفعلونه ويجردون البلد المسلم من إسلامه. وعجزت دمشق عن إجابة الاستغاثة، وعجزت بغداد، ووصل الصوت المدوّي بالاستغاثة من الدم الفوّار

على أرض الأنـدلس، جاء الصوت بكلِ نماذج اللغة، جاء شعراً يُبْكي ونثراً يُدَمّي! وضاعت الأندلس! وماستجاب أُحد!

ضاعت فلسطين! ضاعت الهند وكشمير! والعالم الإسلامي كله يتعرَّض مع هذه اللحظات لغزوٍ إجراميّ عامٍّ ممتدّ!

ومـع ختـام هذا الفصـل لابـد أن نشير إلى فضل أهل البوسنة والهرسك وجهـادهم الكبـير في سبيل الله، مما جعـل لهم ثقة كبيرة في نفوس العثمانيين وسلاطينهم. ولقد شاركوا في إدارة الدولة مشاركة فعّالة. ونبغ منهم كثيرون في الفنون العسكرية والإدارية. وتقلد منهم (٢٤) رجلاً منصب الصدر الأعظم. وبرز منهم قادة الجيش والأسطول. وكانوا موضع احترام السلاطين واعتزازهم. ومـما يدلُّ على ذلـك كلمة السلطان سليم الأول حين بلغه خبر مقتل الصدر الأعظم سنان باشا البوشناقي وقائد الحملة العثمانية على مصر سنة (١٥١٧م) حين قال: «كسبنا مصر وخسرنا سنان».

ومنهم أحمد باشا الجزار البوشناقي الذي بني المسجد الجامع المعروف باسمه في مدينة عكّا في فلسطين، والذي صدَّ نابليون بونابرت عن مدينة عكا بعد أن حاصرها ستة أشهر خسر خلالها خيرة ضباطه، وتركت في نفسه حسرة الهزيمة ومرارتها التي لم تفارقه حتى مات في سانت هِيلانة.

وفي سنة (١٧٣٧م) علم والي البوسنة أن دولة النمسا عازمة على الاعتداء عليهم بقـوات عظيمـة. ولما كانت الدولة آنذاك مشتبكة مع روسيا في حرب عنيفة، لم تستطع أن تمدّ لهم يد العون اللازمة. فاجتمعت كلمتهم على مقاومة النمسا وصد العدوان، وكذلك فعلوا. ودارت معارك دامية اشتركت فيها النساء

البوسنيات، فكان النصر حليفهم، وكافأ السلطان زعماءهم وقادة الدفاع بأعلى الرتب. ونال أحدهم وهو محمد بك فدائي لقب «الغازي» الذي كان أشرف الألقاب وأندرها. وقاوموا كذلك النمسا وحدهم بأسلحتهم البسيطة سنة (١٨٧٨م) حين قررت الدول العظمى وضعهم تحت إدارة النمسا في مؤتمر برلين. فقاوموا ثلاثة أشهر وكبدوا النمسا خسائر فادحة. فعرف البشناق على مدى التاريخ ببسالتهم وشجاعتهم النادرة وبذلهم.

ولهم أوقاف غنية وقفها أثرياؤهم على الجهات الخيرية والتعليم. وكانت مدنهم تزخر بالمدارس. وقد أقيم سنة ١٩٣٢م احتفال عظيم بمرور أربعمائة سنة على إنشاء أشهر هذه المدارس، وهي مدرسة الغازي خسرو بك في سراييفو. وكانت لهم صحف دينية ومجلات، ومؤسسات خيرية وجمعيات.

وكانوا شديدي التعلّق بالعالم الإسلامي يتواجدون في كل مؤتمراته ومؤسساته. وقد حضر عنهم للمؤتمر الإسلامي الذي عقد في القدس سنة (١٩٣١م) الدكتور محمد سباهو الوزير السابق، ومحمد أفندي موغابيتش قاضي المحكمة الشرعية العليا في سراييفو وسالم أفندي مفتيش مفتي سراييفو والحاج مصطفى مرهميش.

وكان منهم علماء في الإسلام واللغة والأدب. وكانوا يقبلون على حفظ القرآن الكريم وتجويده. وكثيرون يتقنون اللغة العربية[1].

---

(١) مجلة فلسطين، (العدد: ١٤٢). ذي الحجة ١٣٩٢هـ - كانون الثاني ١٩٧٣م، (السنة: ١٣) (ص: ٤ - ١٢)، كلمة هامة عن البوسنة والهرسك لسماحة الحاج محمد أمين الحسيني رحمه الله.

الفصـل الثـالث

تراجع الدولة العثمانية في أوروبا وبدء جريمة المشركين

خلال القرون الماضية، منذ دخول البوسنة والهرسك وغيرها في الإسلام، تمتعت البوسنة والهرسك، كما تمتع غيرها بالأمن والاستقرار، والنمو والتطور والازدهار.

ولقد وصل تسعة من رجالهم إلى منصب الصدر الأعظم في ظل الخلافة. وهو من أخطر المناصب وأجلها شأناً بعد منصب السلطان. كما خرج منها ولاة بلغ عددهم (٢٦٤) والياً كان أشهرهم الغازي خسروبك الذي حكم في فترتين: (١٥٠٦م - ١٥١٢م) ثم (١٥٢٠م - ١٥٤٢م). وشيد في سراييفو المسجد المشهور، وبنى مدرسة ومكتبة وحمّاماً ومراكز متعددة[1].

وقد شاد العثمانيون في جميع أنحاء الدولة مساجد عظيمة. وامتازت مدن البوسنة والهرسك بمساجدها العظيمة ومآذنها العالية. وشهدت سراييفو وبانيالوكا وموستار وغيرها من المدن مساجد رائعة كأنها الجواهر ترصع الأرض الطيبة. وهي تحمل مظاهر الفنّ المعماري التركي الإسلامي المتميز.

ولكن أعظم ماقدمته الفتوح العثمانية لأوروبا هو الإيمان والتوحيد ورسالة

---

(١) محمود السيد دغيم. مقالته في الحياة. ويقول سماحة الحاج محمد أمين الحسيني مفتي فلسطين وقائد جهادها، في مجلة فلسطين أن الذين تقلدوا منصب الصدر الأعظم (٢٤) رجلاً منهم.

الإسلام. النُّور الذي امتدّ فهبّت القوى المجرمة لتصدّ عن سبيل الله وتطفيء النور الزاحف والخير المقبل:

﴿يريدون ليُطفِئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون﴾.

[الصف: ٨].

وقدّموا كذلك الأمن والاستقرار قروناً طويلة في ظل حكم قوي متمكن، لولا ماكان يثيره بعض دول أُوروبا من فتن بين حين وآخر. واستمرّت أوروبا في نهجها هذا. وكان مؤتمر برلين سنة (١٨٧٨م) صورة واضحة لضعف الدولة العثمانية وبدء تراجعها بعد حروب طويلة امتدت قروناً طويلة.

ونعتقد أن السبب الذي أدَّى إلى هذا التراجع هو الوهن الداخلي، والالتفات للدنيا وزخرفها. ولا أدلّ على ذلك من بناء قصر دولما بخشة في القرن التاسع عشر، وماحوى من أثاث من الذهب الخالص حتى بلغ وزن الذهب في مختلف زخـارف القصر وأثاثه أربعين طنّاً. وكذلك التراجع في نمو العلوم وازدهارها والصناعة وتطورها، وامتداد الجهل في قطاع واسع جداً من الأُمة. وكان أخطر مظاهر الجهل هو جهل المسلم بدينه، بالقرآن والسنة واللغة العربية التي ارتبطت بها. وكـذلـك الفتن الـداخلية التي كانت تحركهـا أوروبا وتنشر من خلالها الانحلال والأفكار القومية والعصبيات الجاهلية التي تمزّق الأُمة وتفتح ثغرات للأعداء.

ونعتقد كذلك أن مهمّة الدعوة الإسلامية أخذت تضعف مع الأيام، ولم يعد يُلبِّي الجهـد والتخـطيط لهذا الأمر من الدولة العثمانية والجيوش المتقدمة كلَّ مايطلبه هذا الدين الإسلامي ومايتطلبه الواقع. ولم تَرْقَ الجهودُ المبذولة من أجل

الدعوة إلى مستوى الجهود المبذولة من أجل القتال. وهذه الظاهرة انكشفت في أكثر من موقف وأكثر من مكان في التاريخ الإسلامي، حتى كانت دائماً سبباً رئيساً من أسباب التراجع والهزائم. ولعلنا نجد هذه الظاهرة واضحة في الأندلس، حيث كان يجتمع هذا الضعف في الدعوة والبلاغ والبيان إلى الانغماس في اللهو والشهوات.

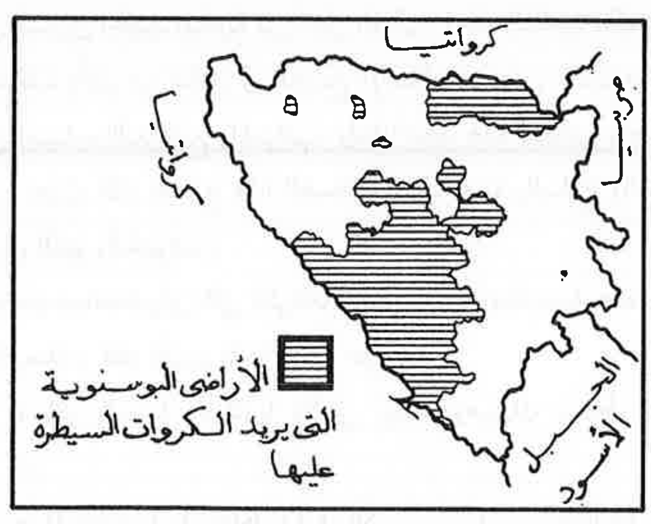
لقد جاءت معاهدة برلين التي ذكرناها لتعطي السيطرة للنمسا وهنغاريا على البوسنة والهرسك، فقد نصّت المادة (٢٥) على مايلي:

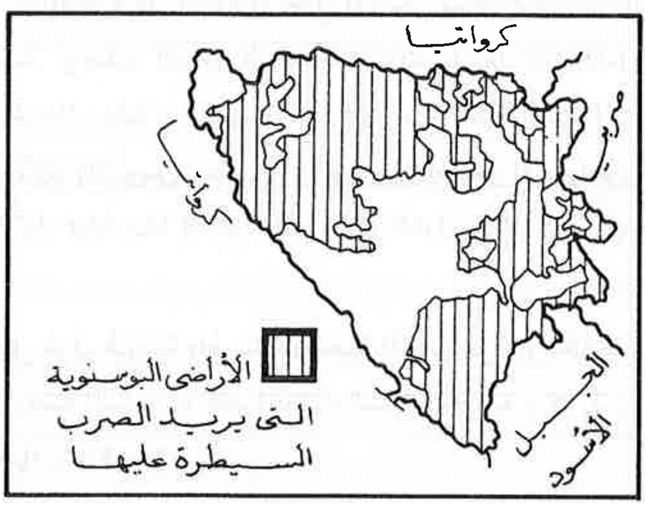
«تتبوأ عساكر النمسا وهنغاريا ولايتي بوسنة وهرسك ويناط بهما أمر إدارتها...».

كما نصت المعاهدة على استقلال الجبل الأسود. وسُلّمت «بانيالوكا» كذلك لدولة النمسا. واحتلت القوات النمساوية ـ والمجرية بعد ذلك كامل أراضي «البوسنة والهرسك» بغية ضمّها رسمياً لدولتها. ولكن هذا الضم لم يتمّ إلا في ٥ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٠٨م، حين أصدر الامبراطور فرانسوا جوزيف الأول قراراً بهذا الضم. وتمّ إبلاغ الدول بذلك دون أن تعترض عليه.

ومن أجل عزل البوسنة والهرسك وشعبها المسلم عن دار الخلافة، العزل الذي كان يرفضه المسلمون، فقد أحدثت السلطة الحاكمة مركز رئيس العلماء ومجلس العلماء سنة ١٨٨٢م.

ولكن المعارضة الشعبية ظلت تعمل قدر استطاعتها، وظلت تطالب بحريّتها الدينية. فقد أعطى الحكمُ النمسويُّ المجريُّ الحرية الدينية للصرب وغيرهم إلا





من كتاب الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين

عبدالله عاصم إسمايتش ـ إخراج ونشر معهد الدراسات السياسية ـ إسلام أباد ـ باكستان

للمسلمين، فلم يعطوا طرفاً من ذلك إلا في سنة ١٩٠٩م من خلال قانون ونظام محدَّد صدر في ذلك الوقت.

وفي سنة ١٩١٠م مُنِحَت البوسنة والهرسك دستوراً يجيز لها إنشاء مجلس نيابي (سابور Sabor) مكون من (٧٢) نائباً بالإضافة إلى عشرين عضواً يعيّنون من أعضاء الهيئات الدينية.

بالرغم من أن معاهدة برلين نصّت على احترام حقوق المواطن دون التمييز في المعاملة والوظائف والحقوق بسبب من الدين، إلا أن هذه النصوص لم يتجاوز أثرها الورق. فقد تعرَّض المسلمون بعدها إلى حرب تصفية مستمرة لم تتوقف على أيدي العصابات الصربية والكرواتية المدعومة من النمسويين والهنغاريين. وكانت هذه الأعمال تأخذ أشكالاً مختلفة خلاف القتل والتصفية البدنيّة، تتمثّل في الضغوط الماديّة والمعنوية والحرمان من الحقوق المدنيّة خلال تاريخ طويل ممتدٍّ إلى يومنا هذا.

لقد نما مع أوائل القرن التاسع عشر «ادعاء» النزعة العرقية العنيفة لتغلّف مصالح الصرب والكروات والسلوفينيين، نزعة تدعو لتوحيد السلافيين الجنوبيين في دولة واحدة. وبدأ «ادِّعاء» هذه النزعة من الكروات والسلوفينيين حينما كانوا خاضعين لحكم نابليون الأول الذي امتد من (١٨٠٩م - ١٨١٥م). وقويت هذه النزعة بعد أن نال الصرب الاستقلال الكامل عن الدولة العثمانية بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م. وكانت الإمبراطورية النمساوية تسيطر على الكروات وسلوفينيا منذ سنة ١٨٤٩م. وقد تحوّل اسم الإمبراطورية النمساوية إلى الإمبراطورية الأسترو - هنغارية منذ سنة ١٨٦٧م. وبموجب

معاهدة برلين خضعت البوسنة والهرسك لهذه الإمبراطورية كما ذكرنا قبل قليل. فتكوَّن بذلك شكل من أشكال التجمع غذَّى «ادِّعاء» هذه النزعة في نفوس الصرب خاصّة، وأخذت الصرب تطمح إلى تكوين دولة كبرى لها تضم ماحولها[1]. وتكونت سنة ١٩١٥م هيئة تمثيلية لمعظم المجموعات السلافية الجنوبية. وقد تمكَّنت دولة الصرب من أن توسع أراضيها خلال الفترة السابقة. فوقعت معاهدة سنة ١٩١٧م مع هذه الهيئة التمثيلية التي سُمّيت «اللجنة اليوغسلافية»[2].

قُبيل الحرب العالمية الأُولى، كان الخلاف في المصالح شديداً بين الدول الأُوروبية حول قضايا البلقان بعامة، وبخاصة بالنسبة للصرب والبوسنة والهرسك وكرواتيا. ولكل دولة موقف خاص كما نرى الحالة اليوم. هذا من ناحية، ومن ناحية أُخرى فقد كان للصرب والكروات دائماً أَطماع في ثروات البوسنة والهرسك وأَراضيها الغنيّة، ولكنهم كانوا يغلّفون هذه الأَطماع بغلاف النزعة العرقية أَو النزعة الدينيّة. فمن الناحية العرقيّة كانوا كلهم ذوي أُصول عرقيّة واحدة، فلا مسوّغ إذن للاقتتال، فهي دعوى باطلة. ومن الناحية الدينية لم يكن الصرب الأرثوذكس متبعين لتعاليم دينهم في شئون حياتهم الاجتماعية أَو السياسية أَو الفكرية. ولم يكن الكروات الكاثوليك أَكثر تمسكاً بدينهم. كانوا جميعهم يتّبعون الأَفكار الانحلالية ومبادىء عزل الدين عن الدولة والتصورات

---

(١)، (٢) عبدالله عاصم إسمايتش وكتابه المذكور (ص: ٢٢، ٢٣). كلمة «ادعاء» الواردة في النصّ أعلاه وضعت بين أقواس لأُبيّن أنها ليست واردة في أصل النصّ. ولكنّي أضفتُها لأُعبّر عن رأيي الخاص الذي أُفصله في الصفحات المقبلة.

التي تسمّى «علمانية»، شأنهم في ذلك شأن الدول الأوروبية الأخرى، حيث لم يعد للدين من دور في الحياة إلا في روّاد الكنائس القليلين، وفي الحركات التنصيرية التي تغذيها الدولة لتنشط خارج حدودها ولتكون ممهّدة لجيوش العدوان والاحتلال، وكذلك في المستشرقين الذين يقومون بخدمات شبيهة بخدمات الحركات التنصيرية لتوفير الفرصة للدولة لاستغلال الدين في تنفيذ الجرائم والعدوان والظلم في الأرض. فلا مسوّغ إذن للاقتتال باسم الدين الذي هجروه وما ابقوا منه إلا شعارًا يستغلونه، وأحقادًا يغرسونها في قلوب العامة ويغذونها بكل وسائل التربية والإعلام. والعامة لا تدري حقيقة هذا الدين الذي يتبعونه اتباع تقليدٍ وجهل، وعاطفة وهوى، أخذت هذه كلها شكل الحقد المتوارث ونوازع الكراهية المغروسة. فأصبحت هذه الشعوب تضمّ طائفتين: طائفة تستغلّ الدين فتفسح له من المجال بما يتناسب وحاجة الاستغلال، وطائفة جاهلة حاقدة تتمثل في العامة والجمهور، تندفع مع أحقادها المتوارثة لتحقيق مصالح الطائفة الأولى. ويغلّف هذا كله شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان، والإخاء والعدالة والمساواة. ثمّ تتبدّل الشعارات حسب تبدّل المستغلّين والأحوال، فتأتي شعارات الاشتراكية والإنسانية، والشرعيّة الدوليّة والنظام العالمي الجديد. وتمضي الشعارات تتجدّد ولكنها تظل تؤدّي المهمة ذاتها.

فعندما أعلنت دولة النمسا والمجر انتهاء السيادة الاسمية للدولة العثمانية على البوسنة والهرسك سنة ١٩٠٨م، وضمهما إليها رسمياً لتكون من أملاكها وجزءاً من دولتها ثارت ثائرة «الصرب» وغضبت لذلك كثيراً. وقاوم أهل البوسنة

والهرسك هذا الضمّ بكل ماأوتوا من قوة وبذل. ولكن الدول الأوروبية وقفت موقف المتفرّج دون أن تعترض على هذا الضم الذي يخالف معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م، والذي يخالف الشرعية الدولية وحقوق الإنسان وحقوق الشعوب، ويخالف المبادىء والعقل والخلق، وكان الصرب يمنّون هم أنفسهم بانتزاع البوسنة والهرسك وضمها.

لذلك، لما لاحت الفرصة لأحد رجال الصرب للانتقام من دولة النمسا والمجر، لم يتردّد ولم يفوّت الفرصة، وقام بجريمة الاغتيال التي فجّرت الحرب العالمية الأولى، وفجّرت أطماع ومصالح الدول كلها في لهيب ممتدّ، ظلّ فيه الدين والأعراف وقوداً تدفعه الأطماع والمصالح لإشعاله لهيباً. يمضي مع الزمن!

إنها دائماً حروب الأطماع والمصالح، كما نراها في واقع أوروبا. ولكنها في الإسلام فتوح خير وإصلاح، ودعوة صدق إلى العدالة والأمن والحقوق.

في ٢٨ حزيران سنة ١٩١٤م قام أحد الصرب البوسنويين ويدعي «جابريلو برنسيب Gavrilo Princip » باغتيال الآرشيدوق ـ الدوق العظيم ـ الاسترو ـ هنغاري «فرانسيس فردناند» في مدينة «سراييفو». وقد أطلق هذا الحدث الشرارة التي فجّرت الحرب العالمية الأولى، حيث حمّلت الإمبراطورية الإستروهنغارية الصرب مسئولية مقتل الأرشيدوق. ولكن الحرب العالمية الأولى انتهت بهزيمة هذه الامبراطورية وتفكيكها، وتهيئة المناخ المناسب لتغذية نزعة التوحيد السلافية، ونمو العصبية الصربية الجاهلية وأطماعها الوحشية فقامت في الأول من كانون الأول ـ ديسمبر سنة ١٩١٨م مملكة الصرب والكروات والسلافيين (SHS) تضم سلوفينيا، كرواتيا، دالماسيا (جنوب كرواتيا)، الجبل

الأسود، البوسنة والهرسك، وصربيا، وقسماً من مقدونيا، ونصّب ملك الصرب «الكسندر كراجور جافيتش» حاكماً على هذه الدولة كلها التي كانت تدعمها الدول الأوروبية آنذاك. وحملت هذه الدولة على المسلمين حرباً شرسة فألغت الحروف العربية وفرضت الحروف السريلية، أو الشيرلسكية (Cirilica).

ولكن بدأت النزاعات الداخلية في هذه الدولة تهدد كيانها. وخاصة النزاعات بين الصرب والكروات. إلا أن المسلمين ظلّوا يعانون أشد المعاناة من الضغوط السياسية والعسكرية والماديّة والاجتماعية، مما حدا أعداداً كبيرة من المسلمين إلى الهجرة إلى تركيا. فقد حدث أثناء انعقاد الجمعية الوطنية اليوغسلافية سنة ١٩٢٥م، أن قدّم وفد «المنظمة الإسلامية اليوغوسلافية» اعتراضاً على قضية عُرِضت، فقام أحد الوزراء الكروات يَرُدّ بقوله: «أنتم أيها الأتراك ارحلوا إلى آسيا». إن هذه الكلمات تمثّل سياسة ومنهجاً متفقاً عليه بين القوى العاملة، كانت تنكشف في الواقع في إجراءات ومواقف وحروب وأساليب وحشيّة، كانت كلها تدفع إلى مزيد من الهجرة[١].

لقد حملت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م - ١٩١٨م) مآسي مفجعة لمسلمي البوسنة والهرك، حين استباح المجرمون المدن وحرقوا مساجدها ونهبوا ثرواتها وقتلوا أبناءها. وغدر الأرثوذكس بالمسلمين فصادروا الأراضي وملّكوها للأرثوذكسيين، وقضوا على المدارس والكتاتيب. وكان في بلغراد مئات المساجد فلم يبق إلا القليل القليل[٢] وحوّلوا بعض المساجد إلى ميدان لسباق الخيل، والمسرح المركزي، والبرلمان اليوغوسلافي.

(١) عبدالله عاصم إسمايتش. الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ٢١ - ٤٢).

(٢) محمود السيد الدغيم. مقالته في جريدة العدد (١٠٨٦٨) تاريخ ١٧/٥/١٤١٣هـ =

وفي سنة ١٩٢٩م ألغى الملك الدستور وأقام حكماً ديكتاتورياً، وغيّر اسم المملكة من (SHS) إلى مملكة يوغوسلافيا، حتى قتله أحد الكروات سنة ١٩٣٤م.

وازدادت هجرة المسلمين بسبب الضغوط المستمرة في الثلاثينات، وامتدت الهجرة حتى بلغ عدد المهاجرين خلال هذا القرن (٤) ملايين، وخلال القرن الخامس عشر (٣) ملايين[1] فيكون المجموع (٧) ملايين.

ونالت كرواتيا حكماً ذاتياً سنة ١٩٣٩م بموجب معاهدة وقعتها مع الصرب هي معاهدة «سفيتكوفيتش ماتشك». كما ضمّت إليها بموجب المعاهدة كافة الأراضي التي يزيد فيها عدد الكروات عن الصرب بما في ذلك البوسنة والهرسك متجاهلين الوجود الإسلامي. ووقع المسلمون في عزلة شديدة وحرمان واسع.

ودخلت القوات الألمانية وسائر قوات المحور في الحرب العالمية الثانية أراضي يوغوسلافيا. ونشأ عن ذلك تشكيل مجموعات مقاومة تمثّلت في قسمين: الجيش اليوغوسلافي أو «التشتنيك»، وجيش التحرير الوطني يقوده جوزيف بروز تيتو الكرواتي الأصل الذي أصبح أميناً عاماً للحزب الشيوعي. وتكونت قوة ثالثة هي «الأستابشا» وهي حركة كرواتية مؤيدة للنازية. ودار التنافس بين هذه القوى الثلاث وأدى ذلك إلى حرب أهلية نُفّذت فيها عمليات إبادة منهجية بين المسلمين، حتى بلغ عدد الضحايا التي قتلها «التشتنيك» بحدود نصف مليون شخص في البوسنة والهرسك وسنجق وكوسفو[2]، كما يذكر الأستاذ عبدالله

= (١١/١١/١٩٩٢م). ـ رضا العراقي البوسنة والهرسك (ص: ١٨).

(١) عبدالله عاصم إسمايتش. (ص: ٢٩). وتختلف الأرقام بين مصدر وآخر.

(٢) عبدالله عاصم في كتابه المذكور سابقاً، (ص: ٣١ ـ ٣٥).

عاصم في كتابه. ولكن الأرقام تختلف من مصدر إلى مصدر. وربّما كان العدد النصف مليون يمثل الضحايا في المناطق كلها.

ويذكر سماحة الحاج محمد أمين الحسيني في كلمته عن البوسنة والهرسك في مجلة فلسطين أن عدد القتلى أربى على مائتي ألف، وأن هذه الفاجعة كانت بتوجيه «دراجا ميخائيلوفتش» وزير حربية يوغسلافيا ورئيس العصابات الصربية للقضاء على المسلمين في سنجق بني بازار، وعلى المسلمين والكاثوليك في البوسنة والهرسك، وذلك على أثر الخلاف الشديد بين الصرب وكرواتيا ورغبة كل منهما بالتوسع وضمّ عناصرهم الموزعين في البوسنة والهرسك وغيرها إليهم.

لقد استنجد أهل البوسنة والهرسك آنذاك بكل من يعرفونه لمساعدتهم على النجاة من المجازر المروّعة التي يرتكبها الصرب ضد المسلمين العزّل. فاتصلوا بسماحة مفتي فلسطين الحاج محمد أمين الحسيني. وكانت تربطهم به معرفة سابقة حيث حضر بعض رجالهم المؤتمر الإسلامي الكبير الذي عُقد في القدس سنة (١٩٣١م) كما ذكرنا سابقاً. كما اشترك بعض رجالهم في الجهاد في فلسطين، وهاجرت بعض عائلاتهم وأقامت فيها. واهتمّ سماحته بهذا الأمر أثناء وجوده في ألمانيا. ويقول سماحته: «لقد كنت في روما في ١٩ كانون الأول سنة ١٩٤٢م، حينما اتصل بي السيد «مصطفى بوصولا جيتش» البوشناقي الطالب في جامعة روما، وأنبأني بالمجزرة الوحشية التي اقتُرفتْ في المسلمين في منطقتي بوسنة وهرسك من قبل عصابات «الشتنيك» الصربية. ثمّ تتابعت الأنباء المحزنة تفصّل تلك الفظائع الرهيبة».

كذلك أبرق بعض رجال البوسنة والهرسك إلى سماحته في برلين مستنجدين. ثمّ وصلت إليه رسائلهم شارحة تلك الفظائع الرهيبة. ثم جاء وفد برئاسة

مفتيهم «حافظ عمر أفندي جابيتش»، ومن أعضائه الشيخ «أحمد أفندي قرة بك» وآخرون. فراجع سماحته وزارة الخارجية الألمانيّة وأطلع وكيلها «الهرفون وايتسيكر» على حقيقة الأمر وعلى برقياتهم ورسائلهم التي يطلبون فيها التوسط للسماح لوفد منهم بالحضور إلى برلين لمقابلته. فأبدى وكيل وزارة الخارجية أسفه وقال إن تلك المناطق هي في المجال الحيويّ لإيطاليا فلا يمكن القيام بعمل جدِّيٍّ قبل الرجوع إليها. فسافر سماحته إلى روما وقابل موسوليني الذي استقبله في قصر «فينيسيا». وكانت تلك المقابلة الثانية له. وحدثه عن المجازر التي تقع في المسلمين في المناطق التي تحتلها حوالي تسع فرق عسكرية إيطالية وفرقتان ألمانيتان. ويقول سماحته: «وقلت له لو حدث جزء يسير من هذه الفظائع في الشرق للأوربيين لقامت الضجة العظيمة وانطلقت الدعايات والاتهامات...»! فأبدى موسوليني اهتماماً شديداً ونظر إلى «شيانو» الذي ظلّ واقفاً على قدميه طول مدة الحديث. ثمّ قال له موسوليني: «إن هذا الموضوع خطير فاتصل بالسفير الألماني في روما لاتخاذ جميع الوسائل مع السلطات الايطالية والألمانية لوقف هذه الحالة المؤسفة». وكان السفير الألماني حينئذ الهرفون ماكنزن نجل القائد العام لقوات ألمانيا وحلفائها في البلقان في الحرب العالمية الأولى.

ولما توالت أنباء المجازر قابل سماحته فون وايتسيكر مرة أُخرى وطلب السماح بزيارة تلك البلاد. فقال إن هذا متعلق بالدولتين الكرواتية والإيطالية. فقابل سفير كرواتيا المسيو «بوداق» وحدثه في الموضوع وطلب منه أن يسافرا معاً إلى «زغرب» ثمّ إلى «سرايبفو». ولكن وزارة الخارجية الألمانية ظلت على موقفها السلبيّ فقابل حينئذ الجنرال «برغر» رئيس أركان قوات الصاعقة (إس. إس S.S) فأعد لهم «برغر» طائرته العسكرية الخاصة وثمانية من الضباط الألمان.

فتحركوا جميعاً مع بعض إخوان سماحته وزملائه في الجهاد إلى فينّا في ٢٤ مارس ١٩٤٣م، في يوم غزير المطر، ثمّ إلى زغرب، حيث قابل رئيس الدولة الكرواتية «الدكتور آنته بافيليتش» ورئيس الوزراء «جعفر بيك كولينوفيتش»، وكذلك وزير الدولة «حقّي حاجيتش». وبالإضافة إلى مآدب التكريم تبرّع رئيس الدولة بمليون كونة كرواتية لمساعدة المنكوبين. ثم وصل إلى زغرب الكوماندور «ماالليني» من وزارة الخارجية الإيطالية ومندوب من وزارة الخارجية الألمانية. وحاولوا جميعهم أن يُثنوا سماحته عن متابعة الرحلة ولكنه أصر، وكتب تعهداً خطياً بأنه يتحمَّل مسئولية ما قد يصيبه من خطرٍ أو تهلكة. وتابع الرحلة إلى «سراييفو» يرافقهم مفتي الجيش الكرواتي الشيخ عاكف خانجيتش. ولكن عاصفة ثلجية أرغمتهم على العودة. فهبطوا في مطار «بانيا لوقه» ويصف سماحته الرحلة فيقول: «. . . فلما خرجنا من المطار، دهشنا لمشاهدتنا أهل «بانيا لوق»» يلبسون العمائم والطرابيش، ونساؤهم متحجبات، وشعرنا كأننا نجتاز شوارع القدس القديمة أو سوق الحميدية في دمشق أو حي السيدة زينب في القاهرة. وبقينا ثلاثة أيام دعانا خلالها إلى الغداء مفتيها «الحاج مصطفى نورفيتش» الذي كان يتكلم العربية ويحسنها، وقال على المائدة: «لا تؤاخذونا. لقد غلاَ قِدْرُنا على قَدْرِنا»[1].

نذكر هذه الحقائق لتعريف المسلم بحقيقة أهله وإخوانه الذين نسيناهم طويلاً، ولندرك هول التغيّر الذي يطرأ على العالم الإسلامي!

ويتابع سماحته والوفد المرافق الرحلة إلى سراييفو حيث اجتمعوا بزعمائها.

---

(١) مجلة فلسطين. العدد (١٤٢) (ص: ٤ ـ ١٢).

وبعد البحث معهم ومع قيادة القوات الألمانية، وافقت الحكومة الألمانية على تجنيد الشبّان وتدريبهم وتسليحهم للدفاع عن أنفسهم وعن عائلاتهم داخل بلادهم. فتطوع من أهل البوسنة والهرسك آلاف الشباب ليتدرّبوا ليدافعوا عن أنفسهم. وتكونت فرقتان مدربتان: فرقة خنجر وفرقة قاما بلغ عدد جنودهما ٣٧ ألفاً. كما تكونت فرق من الشرطة والحرس حتى بلغ مجموع المجاهدين كلهم بحدود مائة ألف. وكان من شروط تكوينها أن تقوم بحماية الأنفس والأموال والأعراض من المجرمين المعتدين عليهم داخل بلادهم، على أن لايقوموا بأي عمل عسكري خارج حدودهم، ولا بأي عمل خارج حماية أنفسهم وممتلكاتهم وبلادهم. فاستطاعوا بذلك إيقاف المجازر عن جميع مسلمي البلقان. ولقد حاول «ميخائيلوفتش» العودة إلى الاعتداء على المسلمين، عندما ساعدته ألمانيا للوقوف في وجه «تيتو». ولكنه لم ينجح لوجود قوة للمسلمين من ناحية ولرفض ألمانيا السماح له بذلك. وقد كتب سماحة المفتي الحاج محمد أمين الحسيني إلى مصطفى النحاس باشا يطلعه على تفاصيل عمليات الإبادة ويطلب منه التدخل مع ملك يوغوسلافيا الملك بطرس الذي كان مقيماً في مصر. فقام مصطفى النحاس بجهد طيب بذلك وزار الملك وهدّد بإخراج جميع اليوغوسلافيين من مصر إذا استمرت المذابح. ولقد كان ميخائيلوفتش، قائد المجازر والمذابح، من أتباع الملك، وكان الملك على علاقة وديّة مع بريطانيا وحلفائها. وتبرّعت الحكومة المصرية يومها بخمسة وعشرين ألف جنيه وكذلك الهلال الأحمر المصري، مما خفف آثار المأساة المروّعة في تلك المرحلة.

وقد حمل الرسالة من سماحته إلى مصطفى النحاس باشا الدكتور مصطفى الـوكيل الذي كان من أخلص الرجال العاملين كما يذكر عنه سماحته. وقام الدكتور مصطفى الوكيل بالسفر إلى استانبول حيث سلّم الرسالة إلى قنصل مصر العـام السيّد أمين زكي. فحملها السيد أمين زكي إلى النحاس باشا. وتلقّى سماحته جواباً على رسالته بما اتخذته مصر من إجراءات.

وبعدما أتمَّ الجيش الألماني تدريب الفرقة البوسنوية الأولى «خنجر»، ذهب سماحة مفتي فلسطين والدكتور مصطفى الوكيل لزيارتها في قرية «نوي هامر» في مقاطعة سيليزيا. ومكثا أربعة أيام رأيا خلالها دقة التدريب والنظام والتجهيز.

واتفق سماحته مع السلطات الألمانية على إنشاء معهد للأئمة لتوزيعهم على وحـدات الفرقة. وأنشيء المعهد في مدينة «غوين»، واختير له عدد من علماء البشناق. وقام سماحته بإلقاء عدد من المحاضرات وكذلك الدكتور مصطفى الوكيل والشيخ حسن أبوالسعود. ولقد كان الهدف من ذلك هو توفير التعبئة الـروحية. وقد نجحت هذه الخطوة وأصبح كلُّ إمام ضابطاً مقاتلاً في الوقت نفسه. وقد أبدى هؤلاء كلهم تشوّقهم للجهاد في فلسطين. ولقد حضر منهم من شارك في الجهاد بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وساهموا ببسالة رائعة.

ولقد كان المسلمون في شتى أنحاء الأرض يتشوقون للجهاد في فلسطين لولا هوان العـالم الإسـلامي ونجـاح السياسة الدولية في وضع قضية فلسطين في ثلاجة، كما صرح وكيل الخارجية الأمريكية جيمس غرانت في ٣٠ نيسان ١٩٦٣م[١].

---

(١) مجلة فلسطين. العدد (١٤٢). (ص: ١١).

ويقول سماحته: «من أخصّ مزايا مسلمي البوشناق ثقافتهم الإسلامية وأخلاقهم الكريمة، وإقبالهم على حفظ القرآن الكريم وتجويده رجالاً ونساءً. وأذكر أن أعيان سرايفو أقاموا حفلة شهدها عدد كبير من القرّاء المثقفين لتلاوة القرآن، فلما سمعتهم كانوا كأحسن القرّآء في مصر وغيرها، كما أن بعض النساء كنَّ يحفظن القرآن كله. ولقد زارني في برلين عام ١٩٤٢م وفد بوشناقي كان من بين أعضائه سيّدة مهندسة حافظة للقرآن متخرِّجة من جامعة برلين».

ويصف سماحته شجاعتهم فيقول: «. . . فكانوا يقتحمون الميدان بشجاعة عظيمة، وحين يقتربون من العدوّ يسْتلّون «قاماتهم» (والقامة سيف قصير صقيل ذو حدّين) يعضّون عليها بنواجذهم، حتى إذا التحموا بالعدو نقلوها إلى أيديهم فأبلوا بها أحسن البلاء»[1].

وفي ١٩٤٣/١١/٩م شكّل تيتو حكومة مؤقتة في مدينة «يايسي» البوسنوية مهّدت لإنشاء الجمهورية اليوغوسلافية الفيدرالية المكونة من ست جمهوريات. سنة ١٩٦٣م. وقضى الشيوعيون في هذه الدولة على حركة «الشباب المسلم» سنة ١٩٤٩م والسنوات التي تلتها بصورة وحشية وعمليات إبادة كاملة.

وفي دستور سنة ١٩٧٤م اعترفت الدولة بالقومية الإسلامية على قدم المساواة مع الصرب والكروات. ودخلت أعداد من المسلمين في الحزب الشيوعي، كما ظهر نوع من الاندماج بالزواج المختلط بين المجموعات الدينية والعرقية المختلفة[2].

---

(١) مجلة فلسطين. العدد (١٤٢). (ص: ١٢).

(٢) مجلة فلسطين (ص: ٤ ـ ١٢).

ولكن الشيوعية لم تلغ العصبية الصربية الهائجة وأطماعها الممتدة إلى بناء صربيا الكبرى. واستمرّ الضغط والإرهاب على المسلمين. وظهر التمرّد الاجتماعي للألبان في كوسوفو على شكل إضرابات بلغت سنة ١٩٨٧م حدّاً كبيراً شمل مساحات واسعة[١]. وصادر النظام الشيوعي الممتلكات الإسلامية الشخصية والوقفية.[٢] قُرى ومدن إسلامية كاملة تُمسح من الوجود: عمائرَ وزرعاً وضرعاً وخلقاً، لايبقى فيها أثر للحياة. رجال ونساء وأطفال وشيوخ يقتلون أو يُهجَّرون أو يُجبرون على التنصّر.

لقد سجل القسيس الشاعر نيقوس في ديوانه «انتقام الجبل» - أي الجبل الأسود - الأعمال الإجرامية التي قام بها الصرب منطلقين من الجبل الأسود. هذا القسيس يسوّغ كلّ جرائم الذبح في المسلمين مثيراً كلَّ النعرات الجاهلية. وأهدى ديوانه هذا إلى القائد الصربي الأعلى لأول عدوان صربيٍّ ضد مسلمي البوسنة. وأسوأ حالات الإبادة لمسلمي البوسنة كما صورها ديوان «انتقام الجبل» وقعت عشية رأس السنة الأرثوذكسية. أي دين هذا؟! أي عيد هذا؟! أي حضارة هذه؟! وظلت ذكرى ليلة رأس السنة الأرثوذكسية يحييها الصربيون بمذابح جديدة في المسلمين كلّما واتتهم الفرصة لذلك، وخاصة خلال سني الحرب العالمية الثانية (١٩٤١م - ١٩٤٥م)[٣].

---

(١) عبدالله عاصم وكتابه (ص: ٣١ - ٣٣).

(٢) محمود السيد دغيم - مقالته في جريدة الحياة العدد (١٠٨٦٨) المذكور سابقاً.

(٣) وكالة الأنباء الإسلامية كتابها البوسنة والهرسك (ص: ١١، ١٢).

لم تكن أعمال التصفية مقتصرة على مسلمي البوسنة والهرسك، ولكنها طالت المسلمين في كل أرض البلقان حيث كانت أيدي النصارى الصرب تنالهم. ففي ١٨٠٧/١/٨م دخل المجرمون الصرب مدينة بلغراد وأشعلوا المذابح بالمسلمين وغيرهم، وهدموا المساجد والمدارس والقبور ولم تشهد بلغراد ليلة مثل تلك الليلة في تاريخها المليء بالمآسي.

وفي بداية نوفمبر سنة ١٩٢٤م وقعت أبشع جرائم الإبادة في قُرى «صاهوبيتش» و «بافينو بوليا» في مقاطعة «بيلوابوليا»، حيث ذبح رجال الجبل الأسود (٦٠٠) مسلم في ليلة واحدة. كانت أجسام الرجال الأحياء تُقطع، والعيون تُخرق، والآذان تقطع، وأجزاء من الجسم تفصل، والأجهزة الداخلية كالمعدة وغيرها تُخرج، وترسم علامة الصليب بالسكاكين على الأجسام. ثمّ يتبع ذلك احتفالات حيوانية يقيمها المجرمون[١].

ومن الوسائل البشعة للتعذيب سلخ جلد الوجه والرأس والظهر للمرأة المسلمة إشارة من الصرب المجرمين إلى انتقامهم من حجاب المرأة المسلمة. وكذلك سلخ جلد اليدين إشارة إلى انتقامهم من وضوء المسلم وغسل يديه عند الوضوء[٢].

وذُبِح المسلمون على ضفاف نهر «درينا» حتى يُظهِر لهم المجرمون الصرب أنه لم يعد لهم جسور تربطهم بالمستقبل.

---

(١) المصدر السابق (ص: ١٦).

(٢) المصدر السابق. (ص: ٢٢).

وكان يُلقى بالمسلمين أحياء في آبار طبيعية، ويضرب الأطفال الضعفاء على الصخور، ويذبح بعضهم ويلقى في الأنهار، أو تلقى الجثث دون دفن أشهراً عديدة.

أعـداد كثـيرة من النـاجـين لايُعرف مصيرهم. قصص مُرعبة تقشعرُّ منها الأبـدان، تشيب لهولهـا النـواصي، ترتجف القلوب وتتجمد الدماء. وتتكتَّم العناصر الصربية على هذه الجرائم وتعاقب من يحاول الإشارة إليها، وتزيل آثار أماكنها. وعجيب لهم، وهم يدّعون انتسابهم لدين، ألا يعلمون أن الله يراهم ويعلم سرهم ونجواهم، وأن الحساب الحق عنده، والعذاب الشديد للمجرمين يوم القيامة؟!

نبشوا قبور المسلمين وأزالوها. حرقوا الكتب ودمروا المكتبات، وغيّروا أسماء الشوارع.

عمليات إبادة ومناهج إبادة تمتد قروناً طويلة ضدّ المسلمين، في زمن تضج فيه شعارات الحضارة وحقوق الإنسان!

مقـارنة بسيطة بين هذه الأعمال وبين فتوح المسلمين ومعاملتهم للشعوب تكشف لنـا عظمة الإسلام في التاريخ البشري كله، كأنه الجوهرة واللؤلؤة، وكأنه نبع الخير والنور للإنسانية.

وظلت العصبية النصرانيّة تنمو مع نموّ الجريمة. وظلت أطماعهم بصربيا الكبرى تنمو وتتضّخم، دون أن تجد من يخفف من غلوائها. لقد كان رجال الدين يغذون اللهيب ويزيدون الوقود. وكان البابا في روما يجمع الحلف بعد الحلف ليحارب المسلمين حرباً جنونية لا فسحة فيها لعقل أو دعوة أو بحث عن الحق، أو تفكر وتدبّر.

وعادت القومية الصربية بعد ذهاب تيتو وحكمه أعنف وأشد. وفاز الحزب الاشتراكي الصربي في الانتخابات الصربية، وفاز «سلوبودان ميلوسوفتش» سنة ١٩٨٩م رئيساً للقيادة الصربية. وهو صربي قومي. وفي سنة ١٩٩٠م انتخب الكروات «فرانيو توجمان» رئيساً لكرواتيا في مرحلة مابعد الشيوعية. وهو جنرال قومي كرواتي عاش في المنفى مدة حكم تيتو.

وأسس «علي عزت بيجوفتش» حزب العمل الديمقراطي ١٩٩٠م: «وعلي عزت بيجوفتش» محام ومفكِّر إسلامي سُجن أيام تيتو سنة ١٩٤٩م، وسجن بعده سنة ١٩٨٣م. وفاز في الانتخابات التي جرت في البوسنة والهرسك في أكتوبر سنة ١٩٩٠م. وأصبح هؤلاء الثلاثة: علي عزت بيجوفتش، ميلوسوفيتش وتوجمان يمثلون القوى الفعَّالة في يوغوسلافيا.

مناهج للإبادة والتصفية واضحة ممتدة على مدى قرون طويلة، تقوم بها عصابات إجرام ظاهرة وخفيّة، محلية ودولية. وكانت هذه المناهج تمتد وتتسع مع الأيام بدلاً من أن تضيق وتخف. ووجد المجرمون عوناً واسعاً على إجرامهم، ولم يجد المسلمون عوناً من هؤلاء ولا هؤلاء، لا من النصارى الذين يدعون انتسابهم إلى عيسى عليه السلام، ولامن الدول التي تدّعي الحضارة، ولامن الذين ينادون بحقوق الإنسان، ولا من الهيئات الدولية. وكذلك لم يجدوا عوناً من تركيا التي أصبحت علمانيّة فأدارت ظهرها للشعوب المسلمة التي وقفت معها في طريق الإسلام قروناً طويلة، ولامن العالم الإسلامي الذي غرق لقرون طويلة في سبات عميق، لم يكن يفيق منه إلا على ضجيج الفتن ودويّ الكوارث.

لقد شهد العالم خلال القرنين الأخيرين التاسع عشر والعشرين تحوُّلات خطيرة واسعة في كل نواحي الحياة الإنسانية. ولقد انعكست هذه التحولات في

الواقع البشري على صورة مآسٍ ازدادت وحشية وضراوة وفتكاً وحروباً واسعة زادت في القرن العشرين وحده عن (١٣٠) حرباً كان ضحاياها من القتلى فقط أكثر من (١٢٠) مليوناً من البشر. وجميع العلوم والصناعات لم تقدِّم للإنسان مع رفاهية السكن والسيارة والرياش راحة أو سعادة أو قيماً إنسانية. لقد دفعت العلومُ والصناعة، بالإضافة إلى الحروب المجنونة في الأرض كلها، الانحلال الجنسي وتفكّك الأسرة، وانتشار الخمور والمخدرات، وثورة الأهواء والشهوات، والمصالح المادية والأطماع، لتلهب هذه كلها الأرض براكين تتفجّر ولهيباً يتلظّى وجرائم تمتدُّ وتتسع.

ولكن الجريمة الكبرى التي لم يشهد لها التاريخ البشريّ مثيلاً أبداً في وحشيّتها وقذارتها وانهيار كل معاني الإنسانية كانت في البوسنة والهرسك مما نشهده اليوم في هذه اللحظات التاريخية، في هذه اللحظات التي تكشف وحشية من يدّعون الانتساب إلى الحضارة أو الدين، يقودها الصرب وأعوانهم الظاهرون والمتخفّون.

إنها الجريمة الكبرى التي تدور حولها هذه الملحمة. إنها امتداد لجريمة حقيقيّة يرتكبها المشركون في الأرض، في تاريخ طويل من حياة الإنسان. إنها الجريمة ضد المؤمنين بالله، ضدّ الصادقين، على مدى التاريخ البشري:

يعرض لنا القرآن الكريم صورة من هذه الجريمة الممتدّة:

﴿والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قُتِلَ أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود. ومانقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد﴾. [البروج: ١ ـ ٩].

وعندما دخل الصليبيّون القدس سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) ارتكبوا من الجرائم مايشيب له الولدان. يصف شاهد عيان مارأى فيقول: «قطعت رؤوس عدد كبير من المسلمين، وقتل غيرهم بالسهام، أو أُرغموا على أن يلقوا بأنفسهم من فوق الأبراج. وظل بعضهم يعذّبون أياماً ثمّ يُحْرَقون بالنار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام. والنساء كنَّ يقتلن طعناً بالسيوف والحراب، والأطفال الرضّع يُخْتَطفُون بأرجلهم من أثداء أُمهاتهم ويقذَف بهم من فوق الأسوار، أو تهشّم رؤوسهم بدقّها بالعمد. وذُبِحَ سبعون ألفاً من المسلمين الذين بقوا في المدينة...»[1].

أما في الهند فماذا فعلت الدولة البريطانية المتحضرة، عندما أرادت أن تقضي على مطالبة المسلمين باستقلالهم وحرّيتهم؟

دخلت الجيوش الإنجليزية دلهي. فبدأ القتل والنهب، والرصاص ينهمر على الخلق دون تمييز بين مقاتل أو غير مقاتل، أو رجل أو امرأة، والبيوت تنهب كما يَنهب الصربيون بيوت المسلمين اليوم في البوسنة، وهرب كُلّ من استطاع النجاة حتى لم يبق إلا الجثث المتعفنة والجنود المفترسة والبيوت المهدّمة. ويصوّر قائد قواد الإنجليز لورد روبرتس (وانتبه هنا فإنه لورد...!) فيقول: كان السكون سكون الموت، والجثث تنهشها الكلاب أو تحوّم فوقها النسور، ومناظر من الموت مرعبة حتى الخيول التي كانت تمرّ بينها فزعت وأَجْفلت. إن أهون طريقة كانت

(١) البداية والنهاية لابن كثير. (ح: ١٢) (ص: ١٥٦). الكامل في التاريخ لابن الأثير. (ح: ٨) (ص: ١٨٩). د. محمد علي الهرفي ـ شعر الجهاد في الحروب الصليبية في بلاد الشام. نشر دار الإصلاح (ص: ٤٠). نقلاً عن ول ديوارت عن القس ريموند الأجيلي الذي حضر المذبحة.

الإعدام ورمي الضحيّة بالمدفعيّة، ونسفت مقابر المسلمين. وكانوا يعتمدون إبادة المسلمين الشباب الوسيمين. واستمرّت المجزرة الأُولى سبعة أيام شنق خلالها سبع وعشرون ألف مسلم. وقتلوا الصبيان وعاملوا النساء بطريقة قذرة وحشية تقشعرّ من هولها الجلود. وحاولوا استئصال الأُسرة التيمورية...! وقتلوا أبناء الملك بهادر بعد أن أعطوهم الأمان فأسروهم وقتلوهم، وشنقوا ثلاثة وعشرين من أبناء الأُسرة المالكة وفيهم المرضىٰ والشيوخ. ولاتسل كم قتلوا من علماء المسلمين وأئمتهم![1].

هذه الجرائم ارتكبها الإنجليز بعد ١٠ مايو ١٨٥٧م أي بحدود عام ١٢٧٤هـ. ولكن جرائمهم هذه ظلّت ممتدّة مدة حكمهم في الهند.

ولقد أدار البرتغاليون محاكم التفتيش في الهند في المناطق التي نزلوا بها، ليبيدوا المسلمين على غرار مافعلت محاكم التفتيش في إسبانيا.

خلق فاسد واحد، وطبع إجراميٌّ واحد، ومنهج واحد ممتد مع التاريخ البشري!

ولو أخذنا وصف الأعمال الإجرامية المروّعة في مخيمات تل الزعتر وعين الحلوة وصبرا وشاتيلا في لبنان وغيرها، وأضفنا أعمال اليهود في دير ياسين وقبية، وأعمال الهند في كشمير، وأعمال الطرد والقتل والإبادة في مسلمي بورما، وماسبق عمله بالمسلمين في زنجبار في أفريقيا، وتابعنا ذلك هنا وهناك لوجدنا صوراً مفزعة ترتجف منها القلوب وتقشعر منها الأبدان، ولرأينا الوحوش الضواري أرحم من

(١) ملحمة الإسلام في الهند للمؤلف. (ص: ٧٨ : ٧٨ ـ ٨٢). وكذلك: المسلمون في الهند للأستاذ أبي الحسن الندوي، حيث يقدّم وصفاً مفصّلاً.

الإنسان حين ينزل الإنسان أو يردّ إلى أسفل سافلين:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثمّ رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾. [التين: ٤ - ٦].



الفصل الرابع

الجريمة الكبرى

لقد بدأ المسلمون يهاجرون من ديارهم في البلقان مع تضعضع كيان الدولة العثمانية الذي انكشف بصورة جليّة في معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م. وعندما ظهر التحوّل في قلب الدولة العثمانية وأخذت الفتن تتوالىٰ والقوميات تتصارع تأكّد المسلمون في البوسنة والهرسك أن تركيا لم تعد مستعدة لحمايتهم. ومع قيام دولة صربيا سنة ١٨٧٨م زادت الصورة وضوحاً. وازداد اليقين عند سقوط الخلافة الإسلامية وإعلان انتهائها سنة ١٩٢٤م.

وعندما أخذت الشيوعية تنهار في شرق أوروبا ابتداء من عام ١٩٨٨م، بدأت الجمهوريات اليوغوسلافية الست تتفكك والقبضة الشيوعية الحديدية تنحل.

كانت صربيا هي الدولة الوحيدة المستفيدة من جمهورية يوغوسلافيا. فالنسبة الكبرى من الموظفين منهم، وكذلك النسبة الكبرى من القياديين في الدولة في مختلف الأجهزة. وكان لرجال الصرب كل الامتيازات الاقتصادية والاجتماعية داخل النظام الاشتراكي. وكذلك كانت ساحة الديبلوماسيين والمراكز العسكرية القيادية في الجيش والأمن. لقد كان الجيش النظامي أقرب مايكون لجيش صربي.

لقد كانت بعض المناطق تتحرّك مطالبة بالاستقلال مثل كوسوفو سنة ١٩٨١م. فَسَحقت الدولة هذه الحركة وأبادت ألفين من المسلمين. وفي سنة ١٩٨٩م هددت الدولة بالبطش بأي حركة مماثلة تقوم في كوسوفو.

في ٤ يوليو سنة ١٩٩٠م أعلنت جمهورية سلوفينيا أنها ستطبق قوانينها الخاصة بدلاً من قوانين الاتحاد، وصادق برلمان سلوفينيا على قرار يمنح الجمهورية حق الاستقلال. وفي ٢٤ ديسمبر ـ كانون الأول ـ سنة ١٩٩٠م أيَّد التصويت الاستقلال التام. ولما أعلنت صربيا الحرب على سلوفينيا هبت أوروبا وأعلنت تجميد المساعدات ليوغوسلافيا، وأرسلت لجنة لتقصي الحقائق. وكان من أثر هذا الضغط الظاهري ومارافقه من ضغوط خفيَّة أن انسحبت القوات الصربية إلى ثكناتها.

وبالإضافة إلى موقف أوروبا فإن أمريكا أعلنت استعدادها للاعتراف بجمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا كدولتين مستقلتين إذا تحققت الرغبة لديهما للاستقلال ودارت الحرب بين القوات الفيدرالية، أي الصربيّة عملياً، وكرواتيا. وتدخلت المجموعة الأوروبية بقوة ودعت إلى وقف القتال وحل المشكلات سلميًا.

وفي ١٠/٩/١٩٩١م أعلنت مقدونيا رغبتها بالاستقلال بالرغم من أن سكانها أرثوذكس مثل الصرب. ومع ذلك فقد صوّت البرلمان بأغلبية ٧٤٪ مع الاستقلال. وفي ٢٤/١٢/١٩٩١م اعترفت ألمانيا بجمهوريتي سلوفينيا وكرواتيا مستقلتين.

فعاد القتال مع كرواتيا في ٢٢/٩/١٩٩١م، وحركت بلغراد أرتال الدبابات إلى كرواتيا عبر أراضي البوسنة والهرسك. وبدأت مظاهر انجراف البوسنة والهرسك إلى ميدان الصراع. ولكن تدخل الدول الأوروبية والضغط الدولي الجاد أدى ذلك كله إلى توقف القتال في كرواتيا وسلوفينيا.

لقد كان أول تحرّك للبوسنة والهرسك في ١٦/٨/١٩٩١م، حين أعلن وزير خارجيتها السيد «حارث سيولو جتش» أن حل مشكلات يوغوسلافيا لن يكون على حساب جمهورية البوسنة والهرسك. وفي ١٥ اكتوبر ١٩٩١م أعلن برلمان سراييفو استقلال جمهورية البوسنة والهرسك عن بلغراد، ودعا إلى قيام كومنولث بين الجمهوريات الست، والاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك[١].

أعلن مجلس الأمن في ٢٧/٩/١٩٩١م حظراً على مبيعات الأسلحة ليوغوسلافيا وفي ٢١ ديسمبر ١٩٩١م قرر وزراء خارجية الدول الأوروبية في اجتماعهم في بروكسل إرسال قوات للبوسنة والهرسك لمنع انتشار القتال.

وفي ٥/١/١٩٩٢م أعلن الصرب قيام دولة يوغوسلافيا الجديدة من الصرب والجبل الأسود والمناطق الصربية في البوسنة والهرسك وكرواتيا.

لقد اشتدَّ الخلاف بين دول المجموعة الأوروبية بشأن يوغوسلافيا حتى كاد يشكل خطراً على الوحدة التي تسعى إليها أوروبا. فقد أعلنت ألمانيا وإيطاليا والدنمارك، بدعم من الفاتيكان والمجر والنمسا وبعض الدول الغربية الأخرى، اعترافها أو عزمها على الاعتراف باستقلال كلٍّ من كرواتيا وسلوفينيا بغض النظر عن قرار المجموعة الأوروبية. أما اليونان فقد أعلنت معارضتها الشديدة للاعتراف باستقلال مقدونيا. ولكن بريطانيا أعلنت عن تعهدها بدعم ألمانيا في موقفها بسبب دعم ألمانيا لموقف بريطانيا في قمة «ماستريخت»، ووعدت بالاعتراف بكرواتيا أيضاً[٢].

---

(١) عبدالعزيز المهنا البوسنة والهرسك. (ص: ٢٧).

(٢) عبدالله عاصم إسمايتش. الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ١٥٧).

وفي ١٥/١/١٩٩٢م صدر القــرار بأن يتم الاعـتراف بكـل من كرواتيا وسلوفينيا وحـدهما في تلك المرحلة، على أن يترك المجال مفتوحاً أمام البوسنة والهرسك ومقدونيا لتقديم المزيد من الوثائق التي تثبت التزامها ووفاءها بشروط الاعتراف باستقلالها.

فبهـذا الإعـلان الصادر في ١٥/١/١٩٩٢م تكون «يوغوسلافيا تيتو» قد انتهت فعلاً من الوجود في ميزان الدول الأوروبية المؤثرة في الميدان.

وموقع «البوسنة والهرسك» من ناحية، وأوضاعها الداخلية، وتعدّد القوميات فيها ووجود نسبة عالية من المسلمين، وتاريخها الإسلامي الطويل، ومايحمل هذا التاريخ من علاقات مضطربة مع المناطق المحيطة بها مثل صربيا وكرواتيا، ووجود أطماع لهذه الدول فيها، كلّ هذا جعل من البوسنة والهرسك أكثر المناطق حساسية، وأكثرها استعداداً للانفجار. وكان النظام الصربي يحاول جاهداً، عن طريق الصرب المقيمين في البوسنة والهرسك، أن يجرّها إلى الحرب.

وتقـدّمت البوسنة والهرسك بطلب الاعتراف باستقلالها في ١٥/١/١٩٩٢م. ومـع أن الطلب قد رُفِض في حينه، إلا أنه كان المتوقع إعادة النظر فيه عند استكمال الوثائق المطلوبة.

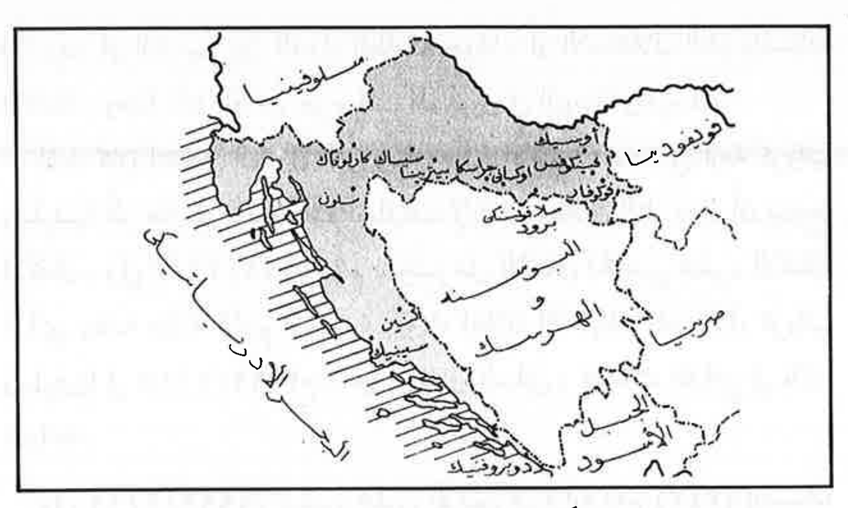
لقد كان هنالك على الأقل أربع قوى عاملة لكلّ منها وجهات نظر في وضع البوسنة والهرسك: الأطماع الصربية، المصالح الكرواتية، موقف المسلمين، موقف الجيش اليوغسلافي. هذه القوى المحلية يضاف لها الواقع الدولي. ولقد طُرِحَتْ آراء متعددة من هذه الأطراف كانت تعبّر عن جوهر الأطماع والمصالح والتقـديرات. فمن الـدخول في اتحاد فيدرالي محدود مع دولة الصرب والجبل

الأسود، أو التقسيم بين الدول الطامعة حولها، أو الاستقلال التام والسيادة الكاملة. وهذا الحل الأخير هو موقف المسلمين في البوسنة والهرسك.

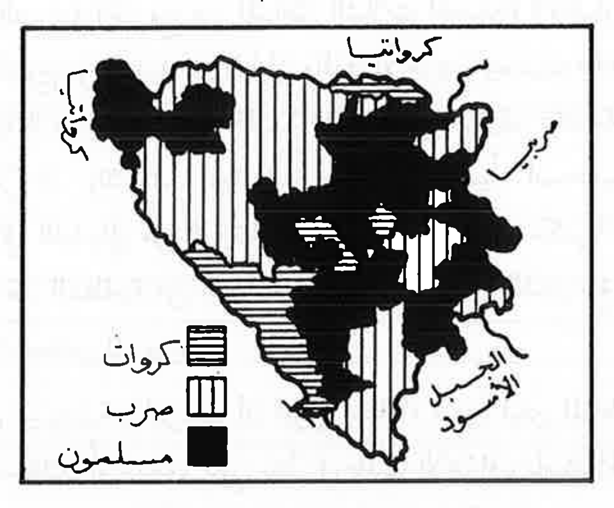
لقد كان لتدخل الدول الأوروبية وهيئة الأمم المتحدة في أزمة كرواتيا وسلوفينيا أثر هام في توقيع عدة اتفاقيات لإيقاف إطلاق النار دون أن ينجح الاتفاق. وفي ١٩٩٢/١٢/٣م تم التوقيع على الاتفاق الخامس عشر، الاتفاق الذي رعته هيئة الأمم المتحدة. وجاء إعلان الاعتراف باستقلال كرواتيا وسلوفينيا في ١٩٩٢/١/١٥م داعماً للاتفاق السابق، فهدأت المدافع في تلك الساحة.

وفي ١٩٩٢/٢/٢١م تبنى مجلس الأمن في قراره رقم (٧٤٣) إرسال (١٤٠٠٠) جندي إلى كرواتيا والطلب إلى القوات الفيدرالية اليوغوسلافية والمليشيات الصربية الخروج من المناطق الثلاث المحددة لانتشار القوات الدولية، والخروج من العديد من المناطق والمدن الأخرى. وسميت هذه العملية «قوة الحماية الدولية» واتخذت الهيئة الإدارية من سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك مقرّاً لها. واشتملت المهام الّتي أُعلن عنها رسمياً: انسحاب الجيش اليوغوسلافي الفيدرالي من كرواتيا، تجريد الوحدات العسكرية الصربية والكرواتية غير النظامية من السلاح، عودة اللاجئين الذين بلغ عددهم ٦٠٠,٠٠٠ شخص إلى بيوتهم

كان على البوسنة والهرسك أن تجري استفتاء شعبياً ليعبّر المواطنون عن رغبتهم بالاستقلال أو عدمه، لكي يُنظَرَ في طلبها الاعتراف باستقلالها. ولقد كان هنالك صعوبات جمة أمام تنفيذ هذا الاستفتاء يمكن أن تثيرها العناصر



المدن الكرواتية التي شهدت أعنف المعارك بين تموز (يوليو) ١٩٩١م إلى كانون الثاني (يناير) ١٩٩٢م



التوزيع العرقي للسكان في البوسنة والهرسك

الصربية والكـرواتية المقيمـة داخل البوسنة والهرسك، وكذلك تدخل الدولة الصربية والكـرواتية وغيرهما، ووجود الجيش اليوغوسلافي يشكل أيضاً عنصر تهديد. يضاف إلى هذا كله حوادث خطيرة كانت تقع في بعض المدن الهامة تزيد من التوتر في جمهورية البوسنة والهرسك. ومع ذلك قد أجرت الحكومة الاستفتاء الشعبي في الموعد الذي حدّده البرلمان البوسنوي وهو ٢٩/٢/١٩٩٢م و١/٣/١٩٩٢م. وكانت نتيجة الاستفتاء ٩٩,٤٣٪ بالموافقة على الاستقلال، بالرغم من وقوف كرواتيا عشية الاستفتاء إلى جانب الصرب مطالبة بتقسيم البوسنة والهرسك تبعاً للحدود العرقية. ونتيجة لهذا الاستفتاء أعلن رئيس الجمهورية البوسنوي «علي عزت بيجوفيتش» استقلال الجمهورية رسمياً في ٤/٣/١٩٩٢م[1].

وبدأت المفاوضات حول مستقبل البوسنة والهرسك بمبادرة من اللورد كارينجتون شارك فيها ثلاثة أحزاب: حزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي، والحزب الديمقراطي الصربي، وحزب العمل الديمقراطي البوسنوي، في ١٣/٢/١٩٩٢م. وعلى أثر ظهور نتائج الاستفتاء اضطر ممثل الصرب رادوفان كراجيتش إلى القبول بمبدأ استقلال البوسنة والهرسك في الجولات اللاحقة للمؤتمر في ١٨/٣/١٩٩٢م وأُجْبِر ممثل المسلمين على الخيار بين التجزئة السياسية أو الجغرافية لتوفير حكم ذاتي للمقاطعات مع احتفاظ البوسنة والهرسك بحدودها الخارجية.

لقد كان تنفيذ هذا التقسيم صعباً ومعقداً بسبب الاختلاف المحتمل الواسع

(١) عبدالله عاصم إسمايتش. الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ١٨٢ ـ ١٨٨).

بين الأطـراف المعنية على الحدود العادلة لكل مقاطعة. إن توزع السكان في داخل الجمهورية يجعل هذا التقسيم أمراً غير ميسور.

ويبدو أنه تم اتفاق خاص بين الصرب والكروات على تجزئة الجمهورية ولكن الاقتراح التنفيذي الذي تقدّم به حزب الاتحاد الديمقراطي الكرواتي قوبل بالرفض.

وبـذلـك أصبح مبدأ تقسيم البوسنة والهرسك صعب التنفيذ من ناحية، ولايوفـر حلاً يمكن الاتفـاق عليه بين الأطـراف المعنية، خاصة وأن المصالح والمطامع هائجة والأهواء ثائرة لاتتبنى قيماً عادلة ولا أسساً منطقية.

كذلـك أثـار وجود الجيش اليوغسلافي في البوسنة والهرسك قضيَّة خلاف واسع، فقد طلب المسلمون أن ينسحب الجيش قبل الاستفتاء كما انسحب من سلوفينيا وكرواتيا. ولكن ذلك لم يتمّ ووقع اصطدام بين هذا الجيش ووحدات الدفاع المحلية الكرواتية في مدينة «بوسانسكي برود». فأصدر مجلس الرئاسة البوسنوي أمراً إلى الجيش يطالبه بالانسحاب. ولكن الجيش رفض بإصرار، ورفض الدخول في أي حوار حول موضوع الانسحاب.

وأصبح الوضع في الجمهورية البوسنوية متوتراً ينتظر شرارة ليشتعل ويتفجر في حرب أهلية مدمرة. وجاءت الشرارة في ١٩٩٢/٣/١م أثناء الاستفتاء حيث قُتِـل رجـل صربيّ في حيّ يقـطنه المسلمون. فاستغلت القيادة الصربية هذا الحـادث، وأقـامت الحواجز في شوارع العاصمة البوسنية. وجرت الأحداث بصورةتوحي أن الأمور مدبّرة وأن هناك خُطّة لإشعال الحرب[1].

---

(١) عبدالله عاصم إسمايتش. (ص: ١٨٩ ـ ١٩٩).

واستمرت الحواجز لعدة أيام تعطي صورة واضحة للتحدِّي. فدعا رئيس الجمهورية إلى خروج مظاهرات احتجاج في جميع أنحاء الجمهورية على خطوة الصرب هذه. فتراجع ضباط الجيش أمام الضغط الشعبي العام، وأعلنوا تراجعهم وتعاونهم مع السلطات لإزالة الحواجز. وبذلك يكون الجيش قد استغل الحادثة ليسوّغ وجوده عنصراً محايداً في الجمهورية.

وكانت مدينة «موستار» الاستراتيجية، مدينة المساجد الجميلة، عاصمة الهرسك، تشكل المنطلق الحقيقي لاندلاع الحرب البوسنوية، لوجود قوميّات متعددة فيها. ففي مطلع شهر شباط (فبراير) ١٩٩٢م اصطدمت قوات الجيش مع وحدات الدفاع الكرواتي، مما أدَّى إلى مقتل عدد من المدنيين. ثم امتدت الاصطدامات إلى مدن: «تشابلينا» في الجنوب، و «بوسانسكي برود» في الشمال، ثمّ مدن «نوم» و «ستولاس» في الهرسك، و «فوتشه» في غرب البوسنة «ودوبوي» في الوسط و «بيهاتش» في الشمال الغربي. فأُقيمت الحواجز وازدادت نيران القنص والمجازر.

كل ذلك، كما يبدو، كان تمهيداً وتهيئة للقيام بعمليات قتالية مدروسة ومخطط لها إلى مدى بعيد، ولتحقيق أهداف مدروسة كذلك ومحدَّدة وبعيدة.

وكانت كلٌّ من «صربيا» و «كرواتيا» تريد أن تستغل هذه الأوضاع في «البوسنة والهرسك» لمصلحتها، وتابعت صربيا إصرارها وإعلانها عن نيّتها لتشكيل يوغوسلافيا الجديدة. وأعلنت الجمعية الصربية غير الشرعيّة في البوسنة والهرسك دستوراً يقضي بانضمام ماتسميه هي بالجمهورية الصربية في البوسنة والهرسك وعاصمتها سيراييفو إلى يوغوسلافيا الجديدة. وكان ذلك في منتصف آذار (مارس) سنة ١٩٩٢م.

لقد تفجّر الموقف في البوسنة والهرسك في ٥ رمضان ١٤١٢هـ (٩ آذار ـ مارس ـ سنة ١٩٩٢) عندما أعلن راديو كرواتيا عن معارك يشنّها الصرب في جمهورية البوسنة والهرسك. وازداد القتال ضراوة عندما دخلت الصرب بالمدرّعات والدبابات بلدة «بوسانسكي برود». فأخلى الجيش الصربيّ المدينة من كل سكانها وأحرق ٨٠٪ من مبانيها. وفي ١٨ رمضان ١٤١٢هـ (٢٢ آذار ١٩٩٢م) بدأ قصف مدينة سراييفو.

وصل أول فوج من قوات الأمم المتحدة في ١٩ رمضان (٢٣ آذار) إلى بلغراد لحفظ السلام، كما يقولون، ولإيقاف اعتداء الصرب على الكروات من جهة وعلى البوسنة والهرسك من جهة أخرى. ولكن السلام لم يُحفَظ، والاعتداء على الكروات توقّف، أما الاعتداء على المسلمين فيمتدُّ ويتسع ويزداد وحشيّة وضراوة وجنوناً. ومَاأتى يوم ٢١ رمضان (٢٥ آذار ـ مارس) حتى عمَّ القتال جميع مدن البوسنة والهرسك، وتشرَّد أكثر من سبعين ألف مسلم بعد أن هُدّمت منازلهم ونجوا بأرواحهم.

في هذه اللحظات يطالب الشيخ سالم شابيتش ـ نائب رئيس الحزب الإسلامي اليوغوسلافي ـ الدول الإسلامية بالاعتراف بالبوسنة والهرسك دولة مستقلة، ويقول إن رئيس الجمهورية أرسل مائة رسالة إلى زعماء العالم الإسلامي والدول الأخرى فلم يتلق إلا ثلاث رسائل[1].

ولقد وجدت الصرب الدعم العلني الكامل من الجيش اليوغوسلافي الاتحادي الذي كان أقرب مايكون لجيش صربي. يضاف إلى ذلك أن أسلحة

---

(١) وكالة الأنباء الإسلامية ـ إينا ـ كتاب البوسنة والهرسك. (ص: ٣١).

الجيش الثقيلة وقعت بأيدي الصرب عندما انهارت يوغوسلافيا، ولم تنقل البوسنة والهرسك سلاحاً يعينها على الدفاع عن نفسها وعن حياة أبنائها.

ويمتد القتال ويشتد وسلاح المسلمين ضعيف خفيف قليل. وتبدأ المذابح الوحشية للأطفال والنساء والرجال العزّل المدنيين. وشهدت عدة مدن مذابح رهيبة في شهر شوال كان من أشدها ماتم في مدينة «بيلينيا».

وفي ٥ شوال ١٤١٢هـ (٧ نيسان ـ إبريل ١٩٩٢م) أعلنت النمسا والولايات المتحدة الأمريكية والمجموعة الأوربية اعترافها بجمهورية «البوسنة والهرسك». وازداد عدد الدول المعترفة حتى بلغ في منتصف نيسان (إبريل) ٢٧ دولة[١].

لم يبال الصرب بقرارات هيئة الأمم المتحدة ولا بالإنذارات ولا بالنداءات، ولم يبالوا بفزع الطفل الذي يذبحونه والشيخ الذي يقطّعونه. ومضوا في جريمتهم تزداد كلّ يوم وحشية، ويزداد العالم من حولهم صمتاً وعجزاً.

لانهدف هنا إلى تسجيل تاريخي لكل الأحداث، فمع كل يوم فاجعة جديدة، وربما مع كل ساعة. ولكننا نرسم صورة للمأساة المروّعة والحقد المتفجّر الذي لم يشهد التاريخ له مثيلاً. والصحف والمجلات والإذاعات تدوّي بالتفصيلات.

اشترك في الجريمة جميع أنواع الأسلحة التي يملكها الصرب أو الجيش الاتحادي، من دبابات وطائرات وقاذفات وأسلحة خفيفة وثقيلة. حتى الخناجر والمدى الكبيرة والصغيرة اشتركت في صنع الجريمة، وحتى الفؤوس ومختلف أدوات التعذيب.

---

(١) عبدالله عاصم إسمايتش. الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ٢٠٥).

بلغ عدد القتلىٰ في البوسنة والهرسك، حسب تصريح وزير خارجيتها في مؤتمر وزراء خارجيّة الدول الإسلامية في جدة، في ٩ جمادىٰ الآخرة ١٤١٣هـ، ٣ ديسمبر ١٩٩٢م مائة وعشرين ألف قتيل تقريباً.

كانت عمليات الذبح بالمدى واسعة الانتشار. يُقيَّد الشاب الأعزل ويُلْقَى أرضاً ثم يُذْبَح، ثم يلقى في نهر أو في أكوام، أو يُمَثَّل بالجُثَّة تمثيلاً قذراً نستحي من وصفه، أو يُقَطَّع إرباً إرباً.

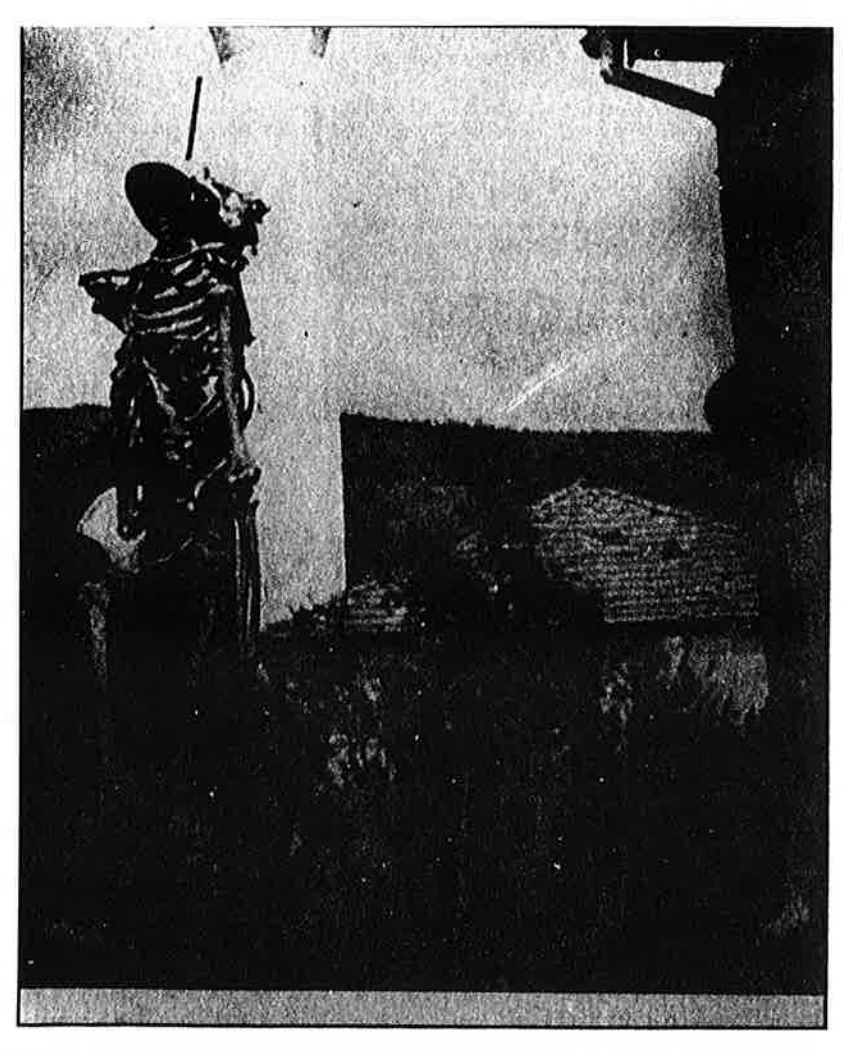
كانت عمليات الذبْح والتمثيل تشمل الشباب والشيوخ والأطفال والنِّسَاء. والصور التي توزعها وكالات الأنبياء تقشعر منها الأبدان.

كان الاعتداء على النسَاء واغتصابهن يمثل عمليّة مخططاً لها، تتبنّاها قيادة الصرب النصرانية وجنودها، وتنزل التعليمات الرسميّة المشدّدة بها. والأعجب أنَّ رجـال الدين الأرثوذكس كانوا هم أنفسهم يُحرِّضون الجنود على اغتصاب المسلمات(١). ونشرت الصحف الأجنبية قصصاً مفزعة عن هول هذه الجرائم. وتقول إحدى الصبايا التي اعتدي عليها مخاطبة العالم الإسلامي: «إن عجزتم عن مدّنـا بالسلاح للدفاع عن شرفنا وديننا فأمدونا بحبوب منع الحمل حتى لاتتعاظم المصيبة».

امتدَّ الاعتداء على المساجد التاريخية ودور العلم وتهديمها وقتل من فيها. وكم قتلوا من أئمة فيها، ثم يُعلّقون جثثهم على المنابر أو الشجر أو يُمثِّلون بهم بصورة يتفجّر الحقد منها.

---

(١) البوسنة والهرسك ـ القضيّة والمأساة ـ عبدالعزيز المهنا. (ص: ٦٩). والكتاب يروي مآسي كثيرة في صفحات متعددة. وكذلك كتاب وكالة الأنباء الإسلامية، وكتاب رضا العراقي، وكتاب الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين لعبدالله عاصم إسهايتش.



في مدينة «فوكا» في ديسمبر ١٩٤١م قامت عصابات «الشنتيك» الصربيّة بغلي السيد موفتيش صانع الساعات المسلم ثمَّ شنقوه أمام المسجد (من كتاب «البوسنة والهرسك» لوكالة الأنباء الإسلامية).

الهجرة الواسعة التي تهدف إلى تفريغ الأرض من سكانها المسلمين بعمليات الإبادة الوحشيّة أو التهجير. كان أهل البوسنة يضطرون بالقوة والتهديد إلى ترك منازلهم وأثاثهم وثرواتهم. وربما كان يأخذ رجال الصرب النَّصارى توقيعهم على التخلّي عن ذلك كله مقابل خروجهم أحياء. لقد امتدّ اللجوء إلى دول أوروبا حيث تتلقّف المؤسسات النصرانية الأعداد الهائلة لتحوّلهم إلى النصرانيّة تحت ضغط الحاجة أو تحت تأثير الإغراء. ولقد كان العدد الأكبر من اللاجئين من الأطفال، وربما تجاوزت نسبتهم ٦٠٪ من مجموع اللاجئين. إنهم الأطفال الذين فقدوا آباءهم، أو نُزِعُوا مِنهم حتى يبقى الآباء في ميدان القتال. ونسبة أخرى عالية كانت من النساء الصبايا أو الأيامىٰ والثكالى، ممن نَجين بأرواحهن أو بشرفهنّ أو تركن أزواجهن وأبناءَهن في ساحات القتال. مُزِّقت العائلات المسلمة بين قتلى ومقاتلين ولاجئين. افترق الابن عن أبيه والزوجة عن زوجها في متاهة مظلمة تلفّها الأعاصير. وربما تجاوزَ عدد الذين أُرغموا على ترك منازلهم ١,٥ مليون[1].

وأقام الصرب معتقلات عدة حجزوا فيها عشرات الألوف الذين تجاوز عددهم ستين ألف معتقل يذيقونهم أشدَّ أنواع التعذيب المختلفة المروّعة، والتجويع والقتل، وحيث تدور الأعمال الوحشية فيها بصورة تقشعرُّ منها الأبدان.

امتدّ إجرام الصرب حتى مَنَعُوا إمدادات الأمم المتحدة من غذاء ودواء للمدن المحاصرة. كانوا يسدُّون المنافذ أو يعتدون على قوافل الإغاثة أو يعطلون مسيرتها، أو يفسدون فى الأرض بأي وسيلة إجرامية.

---

(١) وكالة الأنباء الإسلامية ـ إينا ـ البوسنة والهرسك (ص: ٥٠).

وحاصر الصرب عدداً من المدن كان من أهمها «سـرايـيفو» . وعطلوا الكهرباء والمياه ومصادر الحياة لينشروا الموت والهلاك فيها .

كل هذا يتمّ على مسمع ومرأىٰ العالم المتحضّر الذي يتحدث في مؤسساته عن حقوق الإنسان . هذه المؤسسات المتحضرة التي تغضب وتشغل العالم بسبب خطف رجل أو بضعة رجال . إنها تغضب وتعتبر هذا إخلالاً بحقوق الإنسان . وتعتبر إسقاط طائرة هنا جريمة كبيرة وإسقاطها هناك مسألة بسيطة . قضية رجل أو طائـرة تستدعي الحصار والحرب والويل والثبور. وقضيّة شعب كامل يباد لاتستدعي التدخل العسكري ، ولاالغضبة الإنسانية ، ولاتحرك لجان حقوق الإنسان :

قتـل امـريء فـي غابـة		جَريمـة لا تُغْـتَفَـرْ
وقتـل شعـب آمـنٍ		مَسْـألـةٌ فيهـا نَظَـرْ

عالم كأنّما تموج به الوحوش الضواري ، والأفاعي والذئاب والثعالب ، ويطلع هؤلاء بمبـادىء برّاقـة كلّ يوم : حقـوق الإنسـان ، النـظام العالمي الجديد ، الديمقراطية ، الحرّية ، حرِّية الأديان .

في بلاد المسلمين يجب إعطاء المسيحي حرية دينه وإقامة كنائس ولو لم يكن من أهـل البـلاد . وإذا منعتَ ذلـك فهـذه جريمة كبيرة واعتداء على حقوق الإنسان وحرية العبادة . وأنت لاتمنعه عادة إلا بصورة قانونية أو لأنهم مفسدون في الأرض . أمـا في البوسنة والهرسك فتهدم المساجد وتحرق ويقتل المصلون والأئمـة والعلماء ، ويعلّقـون على الأشجـار والأعمـدة أو يُقَـطَّعـون ويمثـل بأجسـادهـم ، وتغتصب النسـاء ، ويزيد عدد القتلىٰ على (١٣٠) ألف قتيل ، وتمزّق العائلات ، ويقطّع الأطفال ، ويُحرِّك رجالُ الكنيسة كلَّ هذه الجرائم ،

والعالم أعمىٰ، أصم، أبكم، وتُطْوَى حُقوق الإنسان وحرّية العبادة والمبادىء كلها.

موقف الهيئات الدولية ورجالها موقف مضحك مبكٍ. يصرح بطرس غالي المصري العربي أمين عام هيئة الأمم المتحدة، القبطي، في ٢٤/١٠/١٤١٢هـ: «إن توسيع عمليات حفظ السلام ونشر قوات الأمم المتحدة في البوسنة والهرسك ليس أمراً عملياً»[1]. ثم يطلب توسيع ذلك في موزامبيق.

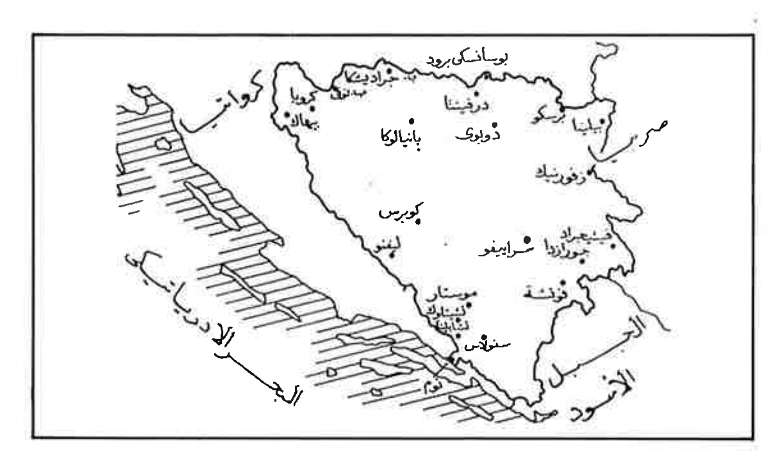
مجلس الأمن يرفض إرسال قوات للبوسنة والهرسك. رئيس أمريكا يصرح بأنه غير مستعد لإرسال جنود أمريكان إلى منطقة فيها رمال متحرّكة. أما لمناطق أخرى لاتقع فيها هذه الجرائم فالرمال تصبح ساكنة والجيوش تتحرّك بسرعة مذهلة.

ولعلّ المجموعة الأوروبية كشفت عن عدم عدالتها حين أدّى تدخُّلها لصالح كرواتيا وضغطها إلى إيقاف الاعتداء، أما في حالة البوسنة والهرسك فالموقف مضطرب يزيد النار لهيباً. اليونان وفرنسا وإسبانيا ترفض بصورة قاطعة اتخاذ أيّ إجراء فعّال ضد صربيا وكأنهم يدعمونهم بصورة غير مباشرة. وأكثر مافعلته الدول الأوروبية هو رعايتها لمؤتمر السلام الفاشل في بروكسل ولشبونة وغيرهما.

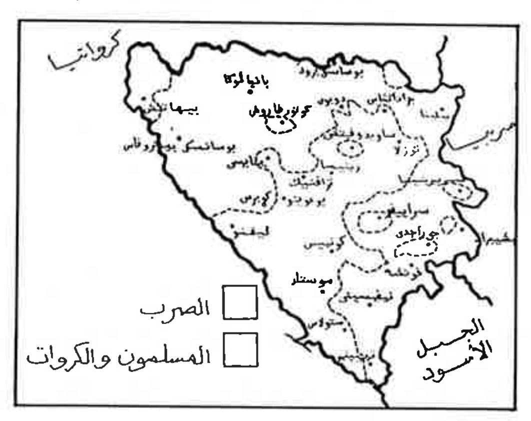
وعندما فُرِض حظر بيع الأسلحة على يوغوسلافيا، شمَل هذا الحظر «البوسنة والهرسك». فلم تتأثّر صربيا حيث ظل كثيرون يَمِدّونها بالسلاح وغيره

---

(١) وكالة الأنباء الإسلامية. (ص: ٣٩).



خريطة رقم (١٧) المدن البوسنوية التي شهدت أعنف المعارك في الفترة من آذار (مارس) إلى نهاية آب (أغسطس) ١٩٩٢م



المنـاطق البـوسنـوية الواقعة تحت سيطرة الصرب والمناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين والكروات في بداية تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٩٢م.

من كتاب : «الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين» ـ لعبدالله عاصم إسمايتش إخراج ونشر معهد الدراسات السياسية ـ إسلام أباد ـ باكستان

إن احتاجت وحاجتها قليلة إلى السلاح لوفرة مالديها. أما الذي تأثَّر حقيقة فهم المسلمون، البوسنة والهرسك، فلم يكن أصلاً لديهم سلاح يكفي لحماية أرواحهم وأعراضهم وديارهم، وسدّت أبواب مدّهم بالسلاح، حتى أصبح الحظر يعني إفناء شعب البوسنة والهرسك المسلم. وظل الحظر ماضياً وأبشع الجرائم تُرْتَكب والعالم ينظر غير مبالٍ.

أما العقوبات الاقتصادية والحصار الاقتصادي على الصرب فلم يكن له أي تأثير فعّال. وموقف الولايات المتحدة الأمريكية، وإن اتخذ صورة مغايرة إلا أن النتائج كلها كانت واحدة، والقتال والإجرام امتدّ واتسع ولا من رادع. أدانت أمريكا الصرب وطلبت فرض حصار، وساعدت على إرسال بعض المساعدات من أغذية وعلاج، وطلبت تعليق عضوية يوغوسلافيا في «مؤتمر الأمن والتعاون الأوروبي»، وانتقد جيمس بيكر موقف أوروبا، ولكن هذا كله لم يوقف الجريمة، وكأننا أمام مسرح يشترك فيه عدد كبير من الممثلين يتقنون أدوارهم المختلفة لإنجاح الجريمة، وامتصاص النقمة هنا وهناك، ولاكتساب دعاية إعلامية.

وقامت منظمة الأمم المتحدة بقبول البوسنة والهرسك عضواً كامل العضوية فيها في **٢٢** أيار (مايو) **١٩٩٢**م[1]. وتحرك سايروس فانس مبعوث الأمم المتحدة للدراسة والتحقيق، وظلّت الجريمة تمتدّ وتتسع. وكانت الصين وروسيا العضوان الدائمان في مجلس الأمن تشكلان معارضة دائمة لفرض عقوبات فعالة. وأما روسيا فقد كانت من أكبر المزوّدين للصرب بالبترول وغيره. دول

---

(١) عبدالله عاصم. الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ٢١٣ ـ ٢٢٧).

كبرى تدَّعي المبادىء والقيم، وتشارك في هيئات دولية ومجالس أمن ولجان حقوق الإنسان، دول كبرى كهذه تدوس كلّ المبادىء والقيم، ولاترحم دمعة الطفل والثكْلى واليتيم، ولاتبالي بأنهار الدم التي تسيل ظلماً على أرض البوسنة والهرسك وكوسوفو وغيرها.

وأعلنَ الصرب عن تشكيل «جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية» في ٢٧ نيسان (إبريل) ١٩٩٢م. وأُجريت الانتخابات في ٣١ أيار (مايو) ١٩٩٢م لانتخاب رئيس للاتحاد. ولم يكن تشكيل هذا الاتحاد يعني أن صربيا تخلّت عن حلمها في «صربيا الكبرى» وعن أطماعها التوسعية. كيف وهي ترى العالم كله يقف هذه المواقف الواهية أمام هذا الهول المرعب من الجرائم.

والعالم الإسلامي! كيف كان موقفه؟! تحرَّك المسلمون ليجمعوا المال والزاد. دفعت المملكة العربية السعودية التبرّعات وقامت بدور ظاهر في هذا الأمر، وقامت دول إسلامية أُخرى بالتبرّعات، ولعل جهوداً بذلت على الصعيد السياسي والدبلوماسي. وبالإضافة إلى هذا وذاك كان هناك نشاط إعلامي في وسائل الإعلام. وهرع نفر قليل من المسلمين ليقاتلوا هناك، علماً أن المنتسبين للإسلام يقاربون ثلث سكان العالم.

وقد دعت المملكة العربية السعودية إلى مؤتمر خاص عقدته منظمة المؤتمر الإسلامي لوزراء خارجية الدول الإسلامية في مدينة جدة خلال يومي الأول والثاني من شهر ديسمبر ١٩٩٢م. وأُصدر المؤتمر قراراته. ونأمل أن يتحرك العالم الإسلامي كلّه بعد هذا المؤتمر، حكومات وشعوباً، لإيقاف شلّال الدم المسلم والجريمة المروّعة على أرض الإسلام، البوسنة والهرسك، وكوسوفو، والسنجق، وألبانيا وغيرها.

وإذا لم يتحرك العالم الإسلامي بقوّة على صعيد السياسة والدعم العسكري، فإن أبسط النتائج أن يصبح العالم الإسلامي كله مفتوحاً لجرائم متتالية لايعلم مداها إلا الله.

وإن هذا الهوان، كما نعْتقد، هو الذي يسّر للهندوس في الهند أن يهدموا مسجد البابري يتحدون بذلك المسلمين في الأرض كلها. ولعله قبل أحداث البوسنة والهرسك كان في قلوب الهندوس شيء من الرهبة والخشية أزاله ما انكشف من هوان المسلمين.

ومن المؤلم أن عدداً قليلاً من الدول الإسلامية تطوع فقدّم مساعدات من مال وغذاء ودواء طوال الفترة العصيبة التي مرّ فيها المسلمون هناك. وكذلك فإن «البابا» نفسه قد عبّر في رسالة منه للرئيس علي عزّت بيجوفتش عن دعم الفاتيكان للشعب البوسنوي، وكان ذلك في الأسبوع الثاني من شهر نيسان (إبريل) سنة ١٩٩٢م، قبل أن يتحرك الكثيرون من العالم الإسلامي ومؤسساته[1].

وتمّت الجريمة الكبرى، ومازالت أحداثها تمضي في درب مظلم لاتضيئه إلا الدماء المشتعلة فيه!

إلى أين تتجه الأحداث؟!

إلى أين يسير العالم الإسلامي؟!

إلى أين يسير المسلمون؟!

ونحن نكتب هذه الكلمات يوافق مجلس الأمن على إرسال قوات سلم مبكرة

---

(١) عبدالله عاصم إسمايتش ـ الصراع في يوغوسلافيا. (ص: ٢٤٥).

إلى مقدونيا! عجيب! ولماذا مقدونيا وحدها؟! لماذا كرواتيا؟! لماذا سلوفانيا؟! كأنما الإجراءات تقول: ياأهل الصرب اذبحوا المسلمين فقط؟!

إذن هي جريمة مروّعة يشترك فيها الجميع! إنها الجريمة الكبرى!

المذهل المرعب هو أن القتل والذبح، والاغتصاب والتعذيب، والاعتقال والتهجير، كلُّ هذا ينال مئات الألوف من المسلمين، ويمتدّ زمناً طويلاً، وتصدُر قرارات واهية عن الأمم المتحدة ومؤسساتها، والصرب يتحدّى كلّ القرارات، ويتحدّى العالم كله، والقادة الدوليون، في أحسن حالاتهم، يهدِّدون وينذرون ولايعملون! وإذا نشطوا دعوا إلى مؤتمرات يجمعون بها الأطراف المتنازعة للتفاوض من أجل حلٍّ سلمي! نعم! من أجل حلٍّ سلميّ والدماء تتدفّق من البوسنة والهرسك والأشلاء تتطاير!

عُقد مؤتمر لندن وانتهى دون الوصول إلى أي نتيجة تذكر. ولكن الدماء ظلت تنزف. وبطرس بطرس غالي ظلّ يقول إن المفاوضات هي السبيل! وعقدت مؤتمرات في جنيف دون نتيجة، وكان آخر المؤتمرات مؤتمر جنيف الذي ابتدأ يوم السبت ٩ رجب ١٤١٣هـ (٢/١/١٩٩٣م) في مدينة جنيف. ويبدو أن هذا هو أول لقاء يجمع الأطراف المتحاربة في لقاء مباشر في محادثات سلام منذ بدء القتال قبل تسعة أشهر، ولم يتصافح الزعماء الثلاثة وجلسوا ووجوههم متجهمة. وجهان يحملان صورة الجريمة التي يقومان بها ويقودانها وهما: رئيس جمهورية يوغوسلافيا المتبقية (الصرب ومونتينيغرو) دوبريتسا كوسيتش، والزعيم الصربي البوسني رادوفان كاراجيتش. ووجهان ساهما على قدر متردِّد فيها وهما: الرئيس الكرواتي فرانيو توجمان وزعيم الكرواتيين البوسنيين ماتي بوبان. ووجه كان يحمل في تجهمه صورة الجريمة التي تُرْتكب في بلده وضدَّ شعبه المسلم، مع

صورة العزيمة الماضية إلى حقّها. إنه رئيس جمهورية البوسنة والهرسك الأستاذ علي عزت بيجوفيتش. وبالإضافة إلى هؤلاء كان هنالك بعض القادة العسكريين.

يلتقي المؤتمر ودولة الصرب قد احتلت ٧٠٪ من أراضي جمهورية البوسنة والهرسك، الجمهورية المعترف بحدودها دولياً، والجمهورية التي هي عضو في هيئة الأمم المتحدة. كل هذه الاعتبارات القانونية والتاريخية والدولية تنهار في الاقتراح الذي يتقدَّم به رئيسا المؤتمر: سايروس فانس وديفيد أوين لتقسيم البوسنة والهرسك تقسيماً يخسر فيه المسلمون نصف بلادهم. ولعل تصريح الأستاذ علي عزت بيجوفتش يوجز الموقف كله بكلماته القليلة حين قال في رسالة وجهها إلى الشعب إن حكومته لن تقبل أي صفقة تفرض عليها بالقوّة. وأضاف: «لم يبق أمامنا سوى حلٍّ واحد هو الاستمرار في القتال والمحافظة على ماحرّرنا وتحرير مااغتصب منا ومعاقبة المجرمين»[1]. إن اقتراح رئيسيَ المؤتمر ينصّ على تقسيم البوسنة والهرسك إلى عشر مناطق تتمتع كل واحدة منها بالحكم الذاتي، وينصّ على أن تكون سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك مدينة مفتوحة. ومع هذا التساهل الدوليّ المفضوح لصالح الصرب والتجاهل المكشوف لحقوق المسلمين وللقوانين الدولية، فإن الصرب مازالوا يتحدّون ويطالبون بإقامة دولة صربية في قلب البوسنة والهرسك. وانفضّ المؤتمر دون الوصول إلى أي اتفاق، على أن يعقد ثانية يوم الأحد التالي، أي بعد ستة أيام من انفضاضه. وستمضي المفاوضات وعمليات الفتك والإبادة ماضية! والجريمة الكبرى ماضية.

---

(١) جريدة الحياة. العدد (١٠٩١٩). ١ رجب ١٤١٣هـ، ٣ كانون الثاني ١٩٩٣م. [أسست سنة ١٩٦٤].

الفصل الخامس

بين لهيب الأهواء
وعجز الإخوان والأقرباء

من العرض السابق للأرض وتاريخها وأصولها العرقية ومذاهبها الدينية ندرك الصعوبة البالغة التي تتميَّز بها هذه المنطقة من أجل الوصول إلى سلام حقيقي .

إن جوهـر المشكلة هي الأهواء والمطامع والمصالح المتضاربة التي لاتخضع لميزان أو عقل أو قيم . حتى أولئك الذين يرفعون شعارات دينية خلال تاريخ طويل لم يكن للدِّين الذي يدّعونه ولا لمبادئه أيّ دور في حسم المشكلات وإيجاد الحلول لها . إلا الإسلام وحده فهو الذي جاء بالقيم والميزان والمبادىء ، وعامل الشعوب والأفراد على أساسها . ولا أظنّ أنّ أرض البلقان عرفت الأمن والعدالة كما عرفتـه في ظل الإسلام . وحسبك أن تعرف أن المجازر التي يديرها اليوم النّصـارى لم يحدث أن اقـترف الإسـلام مثلها أبداً في تاريخه الطويل . فلقد أصبحت عملية الإبادة والذبح في المسلمين نهجاً يتبعه النصارى في تاريخهم أينما كانوا مع الحقد الإجراميّ الغبيّ الذي لاتجد له مسوّغاً أبداً من دين أو عقل ، ولو أردنا أن نحصر النماذج والأمثلة على هذا الإجرام ماستطعنا ، ذلك لهوله وامتداده وكثرته . انظر ماذا فعل النّصارى بالمسلمين في الأندلس ، ماذا فعل الإنجليز النصارىٰ أبناء العلوم والحضارة بالمسلمين في الهند وفلسطين وغيرهما ، ماذا فعل الصليبيون في فلسطين ، في القدس ، في المسجد الأقصىٰ ، ينزعون الطفل الرضيع من أمّه ثم يطرقون رأسه بعمود أو حائط ثـمّ يُلقونه من عَلٍ .

مجازر الأقصىٰ ومجـازر الهند والدماء التي تسيل في الشوارع والجثث والأشلاء هناك، ومجازر محاكم التفتيش في إسبانيا، والحرق والقتل والتمثيل، كل هذا وكثير مثله مما تضمه كتب التاريخ تجمعه اليوم الجريمة الكبرى في البوسنة والهرسك!

في هذه اللحـظات من التـاريخ نجـد ثلاث مناطق كل واحدة منها كأنها البركان الذي يتفجَّر: القرن الإفريقي، أرض البلقان، الشرق الأوسط. وفي كل واحدة من هذه المناطق لايُفَجِّر أحداثها إلا الأهواء والمطامع حتى لاتجد مايلجمها إلا هوى يصارع هوى. وستظل البراكين تتفجَّر بالأهواء حتى يأذن الله للناس أن يفيئوا إلى الإسلام وأمنه وعدالته.

أرض البلقان، موضوع دراستنا وبحثنا الآن، أصبحت مشكلة تزداد تعقيداً وإجراماً كل يوم. ومن الصفحات السابقة عرفنا بعض ملامح الأزمة والجريمة المـدبّـرة. ولقد تأثرت هذه الجريمة بعوامل داخلية تاريخية وعوامل خارجية. ولابـأس أن نستعـرض بشكل موجز هذه العوامل وتلك استعراضاً مبنيّاً على ماأوردناه سابقاً. ونبدأ بالعوامل الداخليّة:

١ ـ العامل الديني:

لقد نشأت الديانات الثلاث هناك: الإسلام والكاثوليكية والأرثوذكسية، وكـونت هذه الـديانات علاقات داخلية وخارجية. ولكن السؤال الذي يظل يبحث عن الإجـابـة هو لماذا يحمل المتنسبون إلى الدين النصراني هذا الحقد الأسود الكبير على الإسلام، والإسلام لم يقدِّم لهم في تاريخه الطويل إلا الخير والإحسان؟! لماذا يحقدون هذا الحقد الأسود فيرتكبون من الآثام والمعاصي ما

لايأذن لهم به دينهم الذي يدّعون الانتساب إليه؟! ولماذا يبقى العالم النصرانيّ كله أشبه بالمتآمر مع أهل الصرب، كأنه يُغذّي الجريمة ويدفع أهوالها؟!

لقد أجبنا على هذا السؤال بتفصيل في كتابنا «الصحوة الإسلامية إلى أين؟!». ونوجز ذلك بأننا نعتقد أنه يمكن قسمة النصارىٰ إلى فئتين، الفئة الأولى وهي القادة المتنفّذون الظاهرون والمتخفّون، أصحاب المصالح المادية الدنيوية والشهوات والمطامع. فهذه الطبقة هي التي يسميها القرآن الكريم بالمجرمين أو أكابر مجرميها. وهي لاتعرف من الدين النصراني إلا مايحمي مصالحها فتستغله أبشع استغلال وتستغلّ رجاله كذلك ليمهّدوا أو يساهموا في جرائمهم وإشباع أهوائهم ومطامعهم. فهم الذين يدعون إلى العلمانية وينكرون حق الدين في بناء الدولة والمجتمع. وحين يحتاجون الدين ورجاله يتناسون دعوى العلمانيّة ولو مؤقتاً. والفئة الثانية هي الأتباع الذين أُرْضِعوا كراهية الإسلام في بيوتهم ومعاهدهم وكنائسهم، وفي إعلامهم وضلالهم، وفيما يفترونه على الإسلام ومايشوهونه من تاريخه. ولو سألت واحداً من هؤلاء الأتباع لماذا تحقد على الإسلام؟! ماذا تعرف عن الإسلام؟! هل درست الإسلام؟! لوقف مبهوتاً حائراً أو مفترياً كاذباً مضلّلاً! ولو سألته هل يعرف دينه؟! هل يأذن دينه بالزنا والفجور، والقتل والعدوان؟! لوقف حائراً عاجزاً مبهوتاً كذلك.

إن هذه الجرائم الممتدة في تاريخ الإنسان تمثل أبشع استغلال للدين وأهله، وأبشع الافتراء على الله أو الصدّ عن سبيله.

قضيّة الدين إذن عامل مستغل في تحريك الجريمة. ولكنه ليس العامل الوحيد.

المسلمون في أرض البلقان يمكن اعتبارهم ثلاث فئات[1]:

أ - البوسنيون وهم المقيمون في البوسنة والهرسك والسنجق، ويمثلون نسبة عالية من السكان.

ب - الألبان: وهم المقيمون في ألبانيا وكوسوفو.

جـ - أقليات إسلامية: من أتراك وغوران في مقدونيا، وغجر مفرقون هنا وهناك، ومسلمون أقلية في كرواتيا وسلوفينيا.

ولقد بدأت مضايقات المسلمين كافة بعد انسحاب العثمانيين سنة ١٨٧٨م. ولقد ترك انسحاب العثمانيين المسلمين محاطين ومطوّقين بالصرب والكروات والمقدونيين. فبدأت عمليات الإبادة تشتد وكذلك الهجرة والنجاة. فاختفىٰ الوجود الإسلامي في الصرب تقريباً، وتقلّص في مناطق أُخرى، وحاولوا المحافظة على هويتهم في البوسنة والهرسك والسنجق وكوسوفو وألبانيا. ولقد كانت الهجرة واسعة حتى بلغ عدد الذين هاجروا إلى تركيا بين (٤ - ٧) ملايين نسمة[2].

٢ - الأطماع القومية والعرقية:

لقد تضخّمت أطماع الصرب عبر تاريخهم تضخماً كبيراً. ولقد كانت دولة الصرب كبيرة منذ إمبراطورية آل هابسبورغ الذين اعتبروا الصرب درعاً ضد الاختراق العثماني. فوضعوا مجموعات منهم على الحدود الغربية الشمالية للبوسنة ونظموها في تلك المنطقة التي أصبحت تعرف بـ «كرانيا». وأخذت الرغبة لدى الصرب بالتوسع تنمو تغذيها المصالح والعلاقات المتناقضة وانفلات الأهواء

---

(١) عبدالله عاصم. كتابه (ص: ٥٧).

(٢) المصدر السابق (ص: ٥٧).

دون أن تجد مايكبح جماحها. ولقد توافرت ثلاث وثائق تكشف حقيقة هذه الأطماع الصربية[1]:

أ ـ وثيقة «ناشرتاني»: وهي منهج وبرنامج وضعه «إيليا جراسانين» وزير خارجية صربيا. وقد وضعها سنة ١٨٤٤م يدعو لتوحيد الصربيين لمقاومة العثمانيين وإبادة المسلمين.

ب ـ وثيقة صربيا أحادية العرق: وضعها «ستيفان موليفيتش» في ١٩٤٢/٦/٣٠م. وكان المستشار السياسي درازا ميهلوفيك قائد حركة «التشتنيك» التي ظهرت مع الحرب العالمية الثانية كما ذكرنا في فصل سابق. وهي تدعو لتكوين صربيا من عرق واحد لتكون دولة كبيرة قوية تمتدّ غرباً. وكانت هذه الوثيقة ومارسمته من مناهج إبادة للمسلمين سبباً في قتل نصف مليون مسلم في البوسنة والهرسك وكوسوفو والسنجق.

جـ ـ وثيقة مذكرة الأكاديمية الصربية للعلوم والفنون: وقد وضعها المعهد المذكور سنة ١٩٨٦م لترسم التحرك الصربي الاستراتيجي في الوقت الحاضر. وقد اشترك في وضعها عدد من المفكرين القوميين الصربيين وكان على رأسهم «دوبريسا تشوسيتش» الذي انتخب أول رئيس لجمهورية «الاتحاد اليوغوسلافي الجديد» في حزيران (يونيو) ١٩٩٢م.

لذلك يعتبر الصربيون أن تيتو أنزل صربيا إلى منزلة ثانوية. والحزب الشيوعي هو الذي أعدم درازا ميهيلوفيتش سنة ١٩٤٦م باعتباره مجرم حرب[2].

---

(١) عبدالله عاصم كتابه (ص: ٥١ ـ ٥٥).

(٢) المصدر السابق (ص: ٥٤).

ومن هذه الوثائق نرى نمو التخطيط الإجرامي وتطوره خلال أكثر من قرن ونصف. علماً أن هذا الجنون القومي كان قبل ذلك ولكنه لم يكن موجهاً ضدّ الإسلام والمسلمين حين لم يكن الإسلام قد وصل إليهم بعد.

وأصبح لدى الصربيين وغيرهم مايشبه القناعة بأنه لاشيء يقف أمام هذه الأطماع الإجرامية الهائجة إلا الإسلام بميزانه الحق العادل. إنهم لايريدون الحق ولاميزانه، ولا العدل ولا أحكامه. إنهم يريدون الأهواء والمصالح الثائرة ومايدعمها.

ولو كانوا يريدون شيئاً من العدالة لما تنكّروا كلية إلى مبادىء دينهم حتى لم يبقوا منها إلا عاطفة جاهلة وشعارات مضللة. وإن الله سبحانه وتعالى يكشف لنا حقيقتهم وحقيقة انحرافهم في كتابه العزيز:

﴿قل ياأهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وماأُنزل إليكم من ربكم وليزيدَنَّ كثيراً منهم ماأنزل إليك من ربّك طغياناً وكفراً فلا تأسَ على القوم الكافرين﴾. [المائدة: ٦٨].

٣ ـ المراحل الرئيسة التي مرّت بها البوسنة والهرسك:

أ ـ منحت حكماً ذاتياً تحت ظل الحكم العثماني سنة ١٨٧٨م بموجب معاهدة «سان ستيفانو San Stefano» ولكن تغيّر الحال في نفس السنة بموجب معاهدة برلين حيث أُصبحت خاضعة لحكم الإمبراطورية النمساوية الهنغارية (المجرية).

ب ـ أُصبحت مستعمرة للإمبراطورية النمساوية الهنغارية تابعة لها مباشرة ولسلطانها وحكمها المباشر سنة ١٩٠٨م.

جـ ـ أصبحت جزءًا من مملكــة (SHS) ـ مملكـة الصرب والكـروات والسلافيين سنة ١٩١٨م بعد الحرب العالمية الأولى التي قضت على إمبراطورية «النمسا ـ الهنغار».

د ـ أصبحت جمهـورية باسم جمهـورية «البـوسنة و الهرسك» في مؤتمر «يايسي» للحـركــة الـشيوعية في ١٩٤٣/١١/٢٩م على قدم المســاواة مع الجمهوريات الخمس الأُخرى التي كونت معها «جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية».

هـ ـ بعـد تفكك جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية تابع المجرمون تنفيذ جريمتهم الكبرى، ومضت البوسنة والهرسك في محنتها التي عرفناها في الفصول السابقة.

إن هذا التاريخ يرسم لنا المراحل التي كانت تعدّ خلالها الجريمة الكبرى من خلال العوامل التي سبق ذكرها والعوامل الأُخرى التي سنذكرها.

وحـدود البوسنة والهرسك التي عُرفت بها مؤخرًا قبل ابتداء هذه المرحلة من الجريمة تشكلت بموجب معاهدات ووثائق دولية ثابتة معترف بها[1]:

أ ـ معاهدة سريمسكي كارلوفسي سنة ١٦٩٩م.

ب ـ معاهدة بوجاريفاس سنة ١٧١٨م.

جـ ـ معاهدة بلغراد سنة ١٧٣٩م.

د ـ معاهدة سفشتوف سنة ١٧٩١م.

هـ ـ مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨م.

---

(١) عبدالله عاصم كتابه (ص: ٥٦ ـ ٦١).

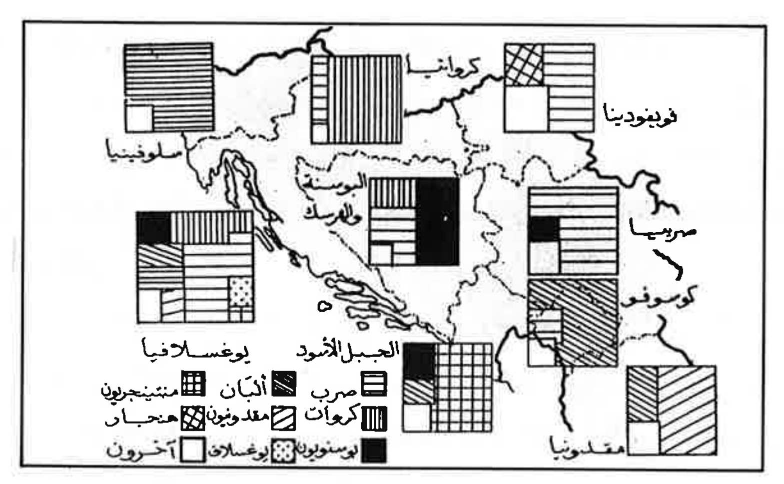
وبالرغم من هذا التاريخ الطويل الذي ثبتت به الحدود والمعاهدات الدولية والمواثيق، فمازالت الأطماع الهائجة تجعل من الحدود مشكلة كبيرة. وسبب ذلك أن البوسنة والهرسك محاطة بالصرب وكرواتيا والجبل الأسود مع امتداد سكانهم فيها ليستغلوا هذا الوضع للمطالبة بالتقسيم، وللتمهيد للحرب الأهلية القائمة.

٤ ـ تفكك الاتحاد اليوغوسلافي السابق «جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية»:

لقد كان الجيش اليوغوسلافي الذي بناه «تيتو» يعتبر من أقوى الجيوش الأوروبية إعداداً وقوة. وبدأ التفكك كما ذكرنا سابقاً بمطالبة سلوفينيا وكرواتيا الاستقلال وماتبع ذلك من قتال بينهم وبين الصرب، مما دفع الدول الأوروبية للتدخل، فأصبح تفكك الاتحاد قضية دولية تنكشف فيها الأطماع الخارجية التي سنعرض لها.

لقد كان الجيش اليوغوسلافي أشبه بالجيش الصربي. وعندما ظهرت بوادر التفكك تمّ مؤتمر موسكو في منتصف تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٩١م، فحضره كل من سلوبودان ميلوسوفتيش، وفرانيو توجمان، وغورباتشوف[١]. فأدركت البوسنة والهرسك احتمالات الخطر الذي يتهددها. فما كان أمامها إلا أن يتقدم الحزب الحاكم ـ حزب العمل الديمقراطي «الإسلامي» والحزب الإتحادي الديمقراطي الكرواتي بمذكرة لبرلمان البوسنة والهرسك تنص على استقلالها. فأقرها البرلمان باستثناء الحزب الديمقراطي الصربي. فأجرت الأقلية الصربية استفتاءً بينها لتؤيد الانفصال عن يوغوسلافيا وتدعو إلى دولة صربيا.

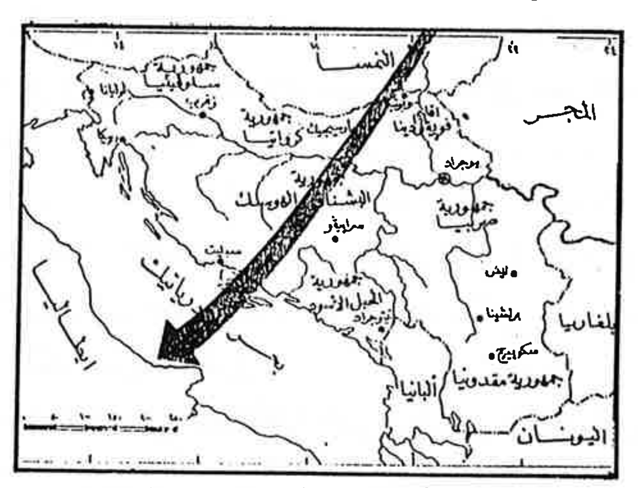
(١) المصدر السابق (ص: ٦٦).



التوزيع السكّاني العرقي في الجمهورية اليوغوسلافية سنة ١٩٨١م

(من كتاب الصراع في يوغوسلافيا ومستقبل المسلمين ـ عبدالله عاصم اسمايتش)

(إخراج ونشر معهد الدراسات السياسية ـ إسلام أباد ـ باكستان)



(من كتاب البوسنة والهرسك ـ رضا محمد العراقي)

ومضى التفكك في طريقه المتزايد ليلهب الصراع الداخلي والخارجي .

فقام رئيس الحزب الديمقراطي الصربي وخيّر رئيس جمهورية البوسنة والهرسك علي عزّت بيجوفتش بين الانضمام لاتحاد صربيا أو التقسيم إلى دويلات عرقية . فرفض على عزّت بيجوفتش العرضين رفضاً قاطعاً وماكان أمامه إلا أن يرفض .

وظهر كذلك أن معظم القوى التي برزت عن التفكك كان لديها كلها رغبة بمسح الهوية الإسلامية ، وأنها كانت تضع الخطط والمناهج منذ عهود سابقة .

عندما أصبحت البوسنة والهرسك خاضعة للإمبراطورية النمساوية الهنغارية كونت حكومة الإمبراطورية مجالس دينيّة يرتبط بها المسلمون لتعزلهم عن الارتباط بالخلافة . فقد كان يدرك المسلمون آنذاك أن الدين يفرض هذا الارتباط فَطَالبوا به . ولكن الدولة رفضتْ وأقامتْ لهم مجالس لتصرفهم عن طلبهم ، ومَنَعتْ مُفتي موستار عن العودة إلى بلاده بعدما ذهب لمقابلة السلطان عبدالحميد الثاني في استانبول . ذلك لأن مفتي موستار دعا إلى تحقيق الاستقلال الديني والتربوي ذاتياً . واضطرت الحكومة النمسَوية أن تعطي المسلمين بعض الاستقلال الديني كما أعطت الطائفة الأرثوذكسية ثم أخذت بعد ذلك تعزل المسلمين عن الخلافة القائمة[1] . ومضت مع التاريخ الرغبة في مسح الهويّة الإسلامية تنمو وتغذيها قوى الإجرام كلها . وأخذت تخرج التصريحات التي تكشف النيّة المبيّتة للجريمة الكبرى .

يقول رادوفان كراجيتش زعيم الأقلية الصربية في البوسنة والهرسك من أنه

---

(١) محمود السيد الدغيم . مقالته في جريدة الحياة . العدد ١٠٨٦٨ المذكور سابقاً .

في حال انتقال القتال بين الصرب والكروات إلى البوسنة والهرسك فسيقضى على المسلمين قضاء تاماً[1].

وتدل الوثائق التي سبق ذكرها عن هذه النيّة الإجرامية الخبيثة. وتصريحات كثيرة أخذت تعلو وتتجدّد بصورة وقحة لاتجد في العالم من يسكتها أو يردّ عليها. ثمّ تتحوّل التصريحات إلى منهج تنفيذي في أرض الواقع على صورة الجريمة الكبرىٰ أمام العالم كله.

ولقد أصبح أمام المسلمين خيارات عدة كلها شرٌّ وفتنة وتآمر عليهم. كانت الخيارات مطروحة من خلال الواقع الملتهب لكل الجمهوريات: فمن سيادة كاملة لكل جمهورية، إلى اتحاد فيدرالي، إلى تقسيم عرقي، إلى مشروع صربيا الكبرى، إلى اتحاد فيدرالي، إلى تحالف مرن[2]. وكل خيار منها كانت تقوم عقبات كثيرة تحول دون تنفيذه، حتى أصبح الواقع أشبه باللغز المعجز نتيجة لتصارع الأهواء المتضاربة. وأنّى لمثل هذه الأهواء المتفلّتة من أي ضابط أن تلتقي على حلّ إلا أن يكون جريمة كبيرة!

أما العوامل الخارجية فكانت تلتقي مع العوامل الداخلية في عدة نواحٍ أهمها ناحيتان: الأهواء المتفلّتة والمصالح المتصارعة، وكذلك الحقد الأسود على الإسلام والمسلمين تخفيه أحياناً الديبلوماسية الميكيافيلية والبسمات الصفراء. ويمكن أن نوجز العوامل الخارجية بنقاط رئيسة كما يلي:

١ ـ الاتجاه العام لعزل المسلمين الألبان والبوسنويين ثم لمسح هويتهم :

ذلك أن هذا الاتجاه لم يكن محصوراً في الداخل ولكنه ممتد إلى أوروبا

(١) عبدالله عاصم. كتابه (ص: ٦٢).

(٢) عبدالله عاصم. كتابه (ص: ٨٨ ـ ١١٤).

وغيرها. ولقد رأينا كيف كان البابا يجمع بعد الحلف ضد المسلمين، ورأينا رجال الدين الأرثوذكس يحرّضون على اغتصاب الفتيات والقتل والتمثيل والنهب وعمليات الإبادة. لقد تمثّل هذا الشعور والاتجاه في كل حركة حتى في محاولات الإغاثة.

٢ - المصالح الملتهبة المتناقضة المتفلتة من أي ضابط[1] :

أ - شعور بعض الدول بالخطر من قيام دولة صربية كبرى وأن قيامها يغيّر الموازين في المنطقة.

ب - اليونان لديها مجموعات سلافية في الشمال ذات أصول مشابهة لأصول المقدونيين. ولذلك تدّعي اليونان أن لها حقوقاً إقليمية في مقدونيا. يضاف إلى ذلك أن اليونان من أكثر الدول تضرراً من القيود الاقتصادية على صربيا والجبل الأسود.

جـ - إن بلغاريا تعتبر أن مقدونيا تمثل مصطلحاً جيوسياسيّاً يعبّر عن أحد أجزاء الأمة البلغارية. فلها مطالب وادِّعاءات في مقدونيا.

د - المجر (هنغاريا) قلقة بشأن الجزء الشمالي من «منفويفودنيا» المتاخم للأراضي المجرية يقطنه بحدود (٣٥٠,٠٠٠) من أصول مجرية يمثلون ثلثي سكانها.

هـ - إيطاليا، وتدعمها الصرب، تطالب بجزيرة استرا وبعض أجزاء دالماسيا، المنطقتين اللتين اقتطعتا من إيطاليا سنة ١٩٤٧م.

---

(١) عبدالله عاصم إسمايتش وكتابه: (ص: ١١٩ - ١٣٤) وكالة الأنباء الإسلامية وكتابها (ص: ١٢٥ - ١٣٨). عبدالعزيز المهنا (ص: ١٩ - ٣٥). رضا العراقي (ص: ٦٥ - ٧٣).

و- كوسوفو في أصلها جزء من ألبانيا، ضُمّت إلى الصرب خلال الحرب البلقانية (١٩١٢، ١٩١٣م).

ز- النمسا لها اهتماماتها بكرواتيا وسلوفينيا بسبب أُصول عرقية، وبسبب الرغبة بالوصول إلى ساحل البحر الأدرياتيكي. وكان يجمع هذه الدول الثلاث مصالح مشتركة خلال حكم مملكة هابسبورغ، والإمبراطورية النمساوية المجرية.

ح- إيطاليا تدعم كرواتيا وسلوفينيا اتباعاً لحليفتها التاريخية ألمانيا ومعارضة لفرنسا.

ط- ألمانيا تدعم كرواتيا وسلوفينيا بسبب الروابط التاريخية والحاجة إلى موانيء على البحر الأدرياتيكي ووجود نصف مليون كرواتي مهاجر إلى ألمانيا وترغب ألمانيا بتوسيع نفوذها في أوروبا.

ي- فرنسا لها علاقات قوية مع الصرب. وتؤثر عليها علاقات ألمانيا مع كرواتيا وسلوفينيا. وهذه العلاقات مخالفة للمذاهب الدينية.

ك- بريطانيا: تخشى من انتفاض إيرلنده واسكتلندة إن شجعت هي كرواتيا وسلوفينيا.

ل- إسبانيا: يشابه موقفها موقف بريطانيا لأنها هي أيضاً تخشى انتفاض «الباسك» و «كتالونيا» ومطالبتها بالاستقلال عنها.

م- روسيا: هي حليف طبيعي لصربيا تمدّها بالبترول وربما السلاح. وأهم من ذلك هو الدعم السياسي والمعنوي وفي الصعيد الدولي. ولقد سبق أن تحدثنا عن مؤتمر موسكو وأثره. كما تبيّن كذلك أن بعض الروس كانوا يقاتلون مع الصرب ضد المسلمين.

ن ـ تركيا: كان يفترض أن يكون دعمها للمسلمين أقوى وأشد على المستوى السياسي والاستراتيجي. وموقف تركيا يتأثر كذلك بالمصالح المادية الآنية ورغبتها بالانضمام إلى المجموعة الأوروبية، ومعارضتها لسياسة اليونان. ولتركيا ١٠٠,٠٠٠ رجل تركي في مقدونيا.

س ـ الصين: تؤيِّد الموقف الصربي القومي لتدعم بذلك موقفها من الأقليات العرقية عندها. والصين تعارض التدخل الدولي ولو كان هذا التدخل ضرورياً لينقذ أرواح الملايين وأرواح الأطفال! ماأسهل المبادىء في تغيّرها وتبدلها. وهي بلد شيوعي ملحد فكيف يدعم بلداً مسلماً.

ع ـ الهند: بالنظر لادعاءاتها في كشمير واعتبارها قضية داخلية، فهي تتبنّى موقفاً مماثلاً في الصرب ليكون موقفها ظالماً هناك وظالماً هنا، ولتغذّي العدوان ولتحارب المسلمين.

ف ـ دول عدم الانحياز: وقفت موقفاً سلبياً. ومنها من عارض اقتراح المقاطعة النفطية لصربيا في تشرين الثاني ١٩٩١م وهددت باستخدام حق النقض.

ص ـ الولايات المتحدة الأمريكية: لقد سبق أن عرضنا موقفها الذي كان أكثر ليناً. ولكنه لم يغيّر من واقع الجريمة ولم ينقذ طفلاً ولاشيخاً ولاعرضاً. لقد أقامت أمريكا الدنيا وأقعدتها لعدد محدد خُطفوا وهم من رعاياها. وتريد أن تطارد الخاطفين وتحاكمهم. فمالها تركت مئات الألوف يموتون ويُذَبَّحون، وتركت المعتقلات تمارس وحشيّة التعذيب، فما قدمت إلا تصريحات إعلامية.

ق ـ هيئة الأمم المتحدة ومؤسساتها وسائر المؤسسات الدولية: كان

موقفهـا عجباً! نشطت في قضايا وسكنت وسكتت هنا في البوسنة والهرسك. وقفت موقف العـاجـز المتفـرّج أمام شلال الدم المتدفّق في البوسنة والهرسك والجـريمة المتفجّرة المدبّرة. ولو شاء محرّكوها لتحرّكت ونطقت وأمينها العام لم تحرّكه لحمة إنسانية ولا لحمة عروبة ولا لحمة قومية، فكان يقف في أكثر من مكان موقفاً عجباً: في بورما، كشمير، الهند، البوسنة والهرسك! وغيرها! هو من؟ وولاؤه لمن؟! ولماذا لايجد الحقُّ هناك أنصاراً ويجد الباطل أنصاراً؟!

ر. العالم الإسلامي: لقد كان أبرز مايتصل بهذا الموقف هو التبرّعات المـالية التي قامت بها بعض الدول الإسلامية كالمملكة العربية السعودية التي دعت كذلـك إلى المؤتمر الذي عقد في جدة لوزراء خارجية الدول الإسلامية وتبنّته منظمة المؤتمر الإسلامي. ولكن المسلمين في البوسنة والهرسك والسنجق وكـوسـوفـو وألبـانيا كانـوا يتوقعون غضبة إسلامية تزلزل الأرض تحت أقدام المشركـين، يقـوم بها العـالم الإسلامي كلُّه صفّاً واحداً على جميع الأصعدة: العسكرية والمالية والاجتماعية والسياسية والدولية!

س. **اليهـود**: يُعْتَقـدُ أن اليهود كان لهم دور كبير في مسار هذه الجريمة الكـبرى وتغذية الفتك في المسلمين. ذلك لامتداد اليهود ونفوذهـم في الدول الكـبرىٰ والهيئات الدولية. ولقد قام مسئولون من الصرب يطلبون المساعدة منها رغم معارضة الحكومة الفيدرالية. ولقد وردت أسلحة للصرب تمَّ نقلها بسريّة تامة إلى الجبل الأسود. وتدور الشبهة حول مصدر هذه الأسلحة بين روسيا أو الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل[1].

---

(١) عبدالله اسمايتس (ص: ١٢٨).

وقد أعدَّت حكومة اليهود مخطّطاً تستغل فيه الأحداث الجارية في البوسنة والهرسك لنقل اليهود المقيمين في البوسنة والهرسك إلى أرض فلسطين المسلمة المغتصبة. واستخدموا من أجل ذلك مختلف مؤسساتهم وعلاقاتهم الممتدَّة المتشعبة. ولقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير. ومن أجل ذلك فقد أرسلت حكومة اليهود وفداً صهيونياً يضم من بين أعضائه: «يوسي ساريد» عضو الكنيست اليهودي، و«توفيا لافيف» مندوب الوكالة اليهودية. لقد أرسلت حكومة اليهود هذا الوفد إلى زغرب للإشراف على نقل (٣٠٠) يهودي، وللإشراف على عمليات تهريب لأعداد أخرى[١].

وتذكر الأنباء (كما يذكر السيد رضا العراقي في كتابه) أن الإرهابي «إريل شارون» وزير الإسكان اليهودي السابق، اتفق مع بعض المسئولين الصربيين على تشييد سبعة معسكرات اعتقال لتعذيب المسلمين، وأن رئيس الوزراء «إسحق رابين» بارك هذا العمل الإجرامي وشجّعه ودعمه. كما تذكر الأنباء أن الاتفاق الصربي اليهودي يشمل إمداد الصرب بأسلحة تتعدّى بثمنها المليار دولار أمريكي[٢].

من هذه المعلومات يتبيّن لنا شدّة المفارقة بين اهتمام اليهود بإخوانهم وأبنائهم أينما كانوا وانشغال المسلمين عن إخوانهم بالرغم من عِظم رابطة الإيمان والتوحيد وأُخوة الإسلام في دين الله. ولقد تكررت هذه المفارقة المؤلمة في أحداث كثيرة في واقع المسلمين، مما يوجب التحذير من خطورة هذه الغفلة التي يمتدّ خطرها على جميع المسلمين.

(١) رضا العراقي وكتابه. (ص: ١٢٠ - ١٢٢).
(٢) المصدر السابق. (ص: ١٢٠ - ١٢٢).

من هذا العرض السريع الموجز تنكشف لنا النفسيات والعقليات التي أخرجت مايُسمى النظام العالمي الجديد. نفسيات وعقليات تعصف بها الأهواء والمصالح، وتداس عندها المبادىء والقيم، وتظلّ الزخارف تموج فوق حمامات الدم وأكوام الجماجم وفضائح الأعراض! ومن هذه النفسيات الإجرامية تنطلق شعارات حقوق الإنسان والنظام العالمي الجديد، وغير ذلك!

٣ ـ ضعف العالم الإسلامي :

لقد تحدَّثنا عن ذلك بصورة موجزة. وهنا نبرزه عنواناً لنبيِّن أهمية هذا الضعف على الساحة الدولية. وإن تفكك العالم الإسلامي والصراع الداخلي فيه يمثل النكبة الكبيرة للمسلمين. وسيكون هذا الموضوع محور حديثنا في الفصل المقبل: وقفة مع التاريخ دروس وعبر.

ولكننا لابد أن نؤكِّد هنا أن هذا الموضوع لاتكفيه صفحات قليلة في دراسة موجزة. ولذلك نعتبر أن دراسات موسعة سبقت في بعض كتبنا، وفي كتب أخرى أيضاً.

ولابد أن نشير إلى أن هذه الدراسات عن واقع العالم الإسلامي لايجوز أن تقف عند حدّ الشكوى والنقد، والنواح والتباكي. لابد من وضع مقترحات للعلاج وحلول للمشكلات. لابد من أن تنصرف الجهود إلى أكثر من طرح شعارات تدغدغ العواطف وتلهب الشعور، حتى إذا انتهى الصراخ والهتاف وانصرف الناس نظروا في أنفسهم وفيما بين أيديهم فوجدوها خواء.

لابد من دراسات مفصلة منهجيّة إيمانية. حاولنا جهدنا أن نقدّم شيئاً منها في كتب الدعوة الإسلامية التي تدعو إلى لقاء المؤمنين، وإلى بناء الأمة المسلمة الواحدة كما أمر الله سبحانه وتعالى. وحاولنا أن نحدِّد النظرية العامة للدعوة

الإسلامية، ونرسم معالم النهج والأهداف ليقوم هذا كله على القاعدتين الرئيستين: المنهاج الربّاني والواقع البشري.

٤ ـ امتداد المشكلات الدولية في الأرض :

لو نظرت إلى واقع الكرة الأرضية اليوم لوجدتها لهيباً ممتدّاً هنا وهناك، وبراكين متفجّرة هنا وهناك. ولو تمعّنْتَ في دراسة هذه المشكلات لوجدتها كلها نتيجة أهواء تتصارع. ولوجدت أن هنالك عصبة مجرمة في الأرض تلتقي على مصالح وتفترق على مصالح، وتقود من خلال ذلك الشعوب إلى مصارعها.

لقد غابت القيم والمبادىء، واضطربت الموازين، وغلب الهوى. وأصبحت القضايا متشابكة فيما بينها تشابكاً عجيباً، يزيدها ضراوة وإجراماً بدلاً من أن يخففها.

ولقد أشرنا في أول هذا الفصل إلى ثلاثة أماكن: البلقان، القرن الأفريقي، الشرق الأوسط. ولكنها ليست وحدها المناطق المتفجرة. في كل بلد مشكلة تفجّرت أو على وشك أن تتفجر. جنوب شرق آسيا، الفلبين، الهند، أفريقيا شمالها ووسطها وشرقها وغربها وجنوبها. أمريكا الجنوبية، أمريكا الشمالية، أوروبا، الأرض كلها تكاد تتفجّر!

هذه المشكلات وتعقّدها أثّر على قضيّة المسلمين في البوسنة والهرسك تأثيراً سيئاً بحيث سمح للجريمة أن تمتد وتتسع. ولكننا لانيأس من رحمة الله. والشعب البوسني لم ييأس. ولقد قدّم الضحايا الكثيرة، والصبر الكثير، ومازال في الميدان صابراً يقدِّم الضحايا، ومازال العالم الذي استعرضناه قبل قليل يتفرّج مشتركاً في الجريمة، أو لاهياً، أو عاجزاً.

الفصل السادس

وقفة مع التاريخ

دروس وعبــر

لابـد من وقفة مع التاريخ الإسلامي، نأخذ العبرة من هنا وهناك، حتى تتصل الأحداث في قلوبنا، وترتبط آيات الله في تكاملها وتناسقها حقاً مطلقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه:

﴿**إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز. لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾. [فُصلت: ٤١، ٤٢].

عندما سقطت بغداد، هزّ سقوطها العالم الإسلامي كله، ولم يقتصر أثر ذلك على بغـداد وحدها. ولقد كان في سقوطها دروس وعبر وآيات بينات. فَحَوْلَ الخليفة كان أُناس مجرمون منافقون، وأناس ضعفاء مهزومون، مهّدوا للنكبة بالخيانة والضعف. فالوزير ابن العلقمي ـ وزير الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ـ كان وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، كما يقول ابن كثير[1]. كان رافضياً خبيثاً رديء الطويّة على الإسلام وأهله. مالأ الكفّار ومالأ «هولاكو» على الإسلام وأهله. وكذلك نصير الدين الطوسي الذي حضر بغداد في حاشية «هولاكو» وأغرى هولاكو بالفتك بالخليفة وببغداد وبأهلها. وسقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) بفاجعة رهيبة.

وفي الأنـدلس تآمـر وزيران أيضـاً على الملك أبي عبـدالله الصغير، ملك

---

(١) ابن كثير ـ البداية والنهاية ـ (ج: ١٣) (ص: ٢١٢).

غرناطة، آخر معقل للمسلمين. تآمرا واتصلا سرّاً مع فرديناند وإيزابيلا ودخلا في مفاوضات لم يعلم بها أبو عبدالله. وكان الوزيران هما يوسف بن كماشة وأبو القاسم عبدالملك «المليخ»[1]. ووقعت النكبة وسلَّم أبو عبدالله مفاتيح الحمراء، وذهب ملك بني الأحمر وسقطت غرناطة، وضاع ملك المسلمين في الأندلس، ليتلو ذلك فواجع رهيبة يتفجّر فيها حقد رهيب، لاتجد له تأويلاً إلا نزعة الشر المغروسة في طباع المجرمين في الأرض، غلبتهم الأهواء وحبّ الدنيا فصدّوا عن سبيل الله، أو هوان المسلمين حين ذلّوا فلم ينهضوا للدفاع عن دين الله وحرماته.

وحين كان المسلمون ينهزمون في ميدان الأندلس، وحين كانت تلك الفرجة للنور والإيمان تُغْلَق، يُغْلِقها مجرمو أوروبا، كان النور يزحف من شرق أوروبا، والإسلام يتقدّم من نصر إلى نصر، لتُدَوِّي بعد ذلك المآذن بالنداء العظيم، الله أكبر!

وأقبلت فئات كثيرة من الناس على الإسلام: شعوب البوسنة والهرسك والسنجق وكوسوفو وألبانيا كلها وكثيرون من الشعوب الأخرى. ووجد الجميع رحمة الإسلام ورحمة فتوحاته مما لم يعرفه الناس من غير المسلمين أبداً.

وانطلق سليمان القانوني يتابع نشر الإسلام ويمضي في فتوحاته، ويعيد الاستقرار إلى مناطق تتحرك فيها الفتنة بين حين وآخر. فاستولى على بلغراد عاصمة صربيا سنة ٩٢٧هـ (١٥٢٠م) وطرد منها المجر. ثم انتصر على المجر

(١) جريدة الحياة. العدد (١٠٨١٤) الجمعة ٢١ ربيع الأول ١٤١٣هـ (١٨ أيلول (سبتمبر) ١٩٩٢م) دكتور جودت الركابي. في الأدب الأندلسي (ص: ٣٠ ـ ٣١).

سنة ٩٣٢هـ (١٥٢٦م)، وفتح رودس سنة ٩٢٩هـ (١٥٢٢م) وأجلىٰ عنها فرسان القدّيس يوحنا فرحلوا إلى مالطة، وحرّر جزءاً من بودابست من النمساويين سنة ٩٣٦هـ (١٥٢٩م). ثم حاصر فيينا في ٢٠ محرم ٩٣٦هـ الموافق (١٣/١٠/١٥٢٩م) ولكنه عاد عنها حين حلّ فصل الشتاء بعد أن تعهّدت النمسا أن لاتتدخل في شؤون المجر.

ولكن النمسا ظلت تنقض عهودها وتنقضُّ على الخلافة كلما واتتها الفرصة. فيعود لها الخليفة ويحتل بعض قلاعها ومدنها. ثم وقع الطرفان المعاهدة في ٢٨ ذي القعدة ٩٣٩هـ (٢٢ حزيران ـ يونيو ـ ١٥٣٢م)، سلمت النمسا بها مدينة غران للعثمانيين، وتعهدت أن لاتعتمد أي اتفاق مع المجر إلا إذا اعتمده الباب العالي.

وتتابعت الحروب بين الخلافة وبين الدول الأوروبية. وكانت ساحة المعارك أوروبا من ناحية وشمال أفريقيا من ناحية أخرى. ذلك لأن الدول الأوروبية غزت شمال أفريقيا بعد سقوط الأندلس. فسقطت مراكش بيد البرتغال، ووهران تحت حكم الإسبان سنة ١٥٠٥م، وتونس سنة ١٥٣٥م. فتحرّكت الخلافة لتستعيد تلك الأقطار ودارت معارك بحريّة يقودها خير الدين بارباروس (ذو اللحية الشقراء). وتتابعت المعارك بعد وفاة سليمان القانوني وامتدت في خلافة السلطان سليم الثاني (٩٧٤هـ ـ ٩٨٢هـ) الموافق (١٥٦٦م ـ ١٥٧٤م)، وكذلك في خلافة السلطان مراد الثالث (٩٨٢هـ ـ ١٠٠٣هـ) الموافق (١٥٧٤م ـ ١٥٩٥م)، وكذلك في عهد الخليفة السلطان محمد الثالث (١٠٠٣هـ ـ ١٠١٢هـ) الموافق (١٥٩٥م ـ ١٦٠٣م). واستمرت حرباً ممتدة في عهود جميع الخلفاء. ذلك أن دول أوروبا غشى الله على بصيرتها فلم تتقبَّل نور

الهداية وأصرّت على الصدِّ عن سبيل الله. وكانت الحرب سجالاً ولكن الغلبة كانت أكثر للخلافة، وظلّ للإسلام سلطانه الدولي الذي تهابه دول الأرض كلها. وظل البابا في روما يحرّض الدول الأوروبية ويجمع الحلف بعد الحلف.

احتل العثمانيون قبرص وأصبحت ولاية عثمانية في ١٠ ربيع الأول ٩٧٩هـ (٢ آب أغسطس ١٥٧١م)، حتى احتلها الإنجليز سنة ١٨٧٨م حين أخذت الخلافة العثمانية تضعف وتتراجع، كما تحدَّثنا في فصل سابق.

كذلك أصبحت تونس ولاية عثمانية اعتباراً من ٢٣ محرم سنة ٩٨٢هـ (١٥٧٤م) ودخلت مراكش كذلك تحت النفوذ العثماني بعد أن انتصر الجيش العثماني على الجيش البرتغالي سنة ٩٨٦هـ (١٥٧٨م) في معركة عند طنجة فتحرر الشمال الأفريقي كله من نفوذ أوروبا.

وظلت دول أوروبا تنتقض مرة بعد أخرى. فأخذت تتحرَّك بولونيا والمجر والألمان، ولكن الخليفة محمد الثالث دمّر جيوش المجر والنمسا في معركة سهل «كرزت» سنة (٩٩٤هـ) ١٥٩٦م. واستمر العثمانيون ينتقلون من نصر إلى نصر، والإسلام يمتد بنوره في الأرض.

ثم أخذت الدولة العثمانية تضعف. وأخذت الفتن الداخليّة تزداد مع الأيام يغذّيها ضعف النفوس والجهل وغلبة الأهواء وضعف الحكم وانصرافه إلى البذخ والترف والإسراف. ولقد فتح هذا كله أبواباً واسعة للدول الأوروبية لتنفذ إلى الداخل فتحاول تدمير الخلافة من الداخل والخارج. وجاءت الحروب مع روسيا القيصرية فأتعبت الدولة العثمانية وأرهقتها.

ولقد شهد القرن التاسع عشر التحوّل الواضح في واقع الدولة العثمانية حين

تجمعت الدول الأوروبية تحت قيادة بسمارك ومباركة البابا في روما ضد الخلافة الإسلامية.

لقد امتدّ الحكم الإسلامي العثماني في كرواتيا (٤٠) سنة، وفي صربيا (٣٨٠) سنة وفي البوسنة والهرسك (٤١٥) سنة، وفي الجبل الأسود (٤٢٠) سنة، وفي كوسوفو (٤٣٠) سنة، وفي مقدونيا (٥٤٧) سنة. أما سلوفينيا فلم يحكمها العثمانيون[١].

وامتد حكم المسلمين في الأندلس قروناً طويلة! وامتد حكم المسلمين في الهند قروناً طويلة!

واليوم يقف المسلمون في الأرض أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، بعد أن أعطاهم الله كلّ أسباب القوّة المادية:

١ ـ أعطاهم الثروة الهائلة الممتدة في باطن الأرض وظاهرها في العالم الإسلامي كله.

٢ ـ أعطاهم العدد الكبير حتى كادوا يتجاوزون ثلث سكان العالم.

٣ ـ أعطاهم الموقع الوسط الممتد على مساحات واسعة يسهل لها الحركة والاتصال.

٤ ـ أعطاهم الدين الحق والمحجة البيضاء حتى لا يضلّوا ولا يذلّوا ما استمسكوا به.

فلم يبق من أسباب القوّة إلا العزيمة الذاتيّة والإرادة القويّة والإيمان الذي لا يعتوره نفاق. فإذا صحّ هذا، صحّ الإيمان والتوحيد، وصحّت العزيمة، فإن الله وعد المؤمنين بالنصر، ووعده حق!

---

(١) رضا محمد العراقي. البوسنة والهرسك. شعب يباد وأمة تغتصب (ص: ١٧).

فالخلل إذن في أنفسنا. لم تقع هزيمة لنا في تاريخنا كله إلا بما كسبت أيدينا. فهي أحياناً غفلة وخيانة كما حدث في بغداد، والأندلس، وأحياناً أخرى هي غفلة من لهو وهوى وشهوات، وإقبال على الدنيا، واستغراق في مُتَعها ورياشها.

لقد كان من أول نتائج هذه الغفلة في تاريخنا، سواء في ذلك الغفلة والخيانة والغفلة واللهو، هو الإدبار عن الواجب الأول للأمة المسلمة، لجيوشها وعلمائها وسلطانها وأبنائها، ذلك الواجب الأول هو تبليغ رسالة الله إلى الناس، والتخطيط لذلك تخطيطاً نامياً متطوِّراً، يأخذ بكل إمكانات الواقع المتجدّدة لجمع القلوب على دين الله الحق، على صدق الإيمان والتوحيد، على رسالة الإسلام، على كتاب الله وسنّة رسوله.

لقد كانت الجيوش الزاحفة تتوقّف أحياناً عن التبليغ، أو تتوقّف الأمة كلها، فتكون الخسارة كبيرة!

لقد بقي المسلمون في كرواتيا أربعين سنة فهل بلّغوا الرسالة وأدوا الأمانة وأرضوا الله بذلك. لقد بقوا في صربيا ثلاثمائة وثمانين سنة فلِمَ لمْ تصبح صربيا كلها مسلمة قانتة لله؟! هل كان ذلك بسبب عناد أهلها وتعصبهم الأرثوذكسي فحسب، أم كان هنالك تقصير من جانب المسلمين كلهم في الأرض، لا من جانب العثمانيين وحدهم؟! الدعوة إلى الله ورسوله واجب أمة كاملة بمختلف أجهزتها ومؤسساتها. وهي واجب كل مسلم قادر على ذلك! وإذا كان عذر المسلمين أن الخلافات بينهم هي التي حالت دونَ نشاط الدعوة، فهل هذا العذر مقبول عند الله، أم أنه يضيف ذنباً إلى ذنب؟!

هذه واحدة! وقضيّة أخرى أبعد خطراً! لقد غلب الوهم على كثير من المسلمين حتى اعتقدت هذه الفئة أو تلك أنها تستطيع أن تجابه مشكلاتها

وحدها. وجاء الواقع ليكذّب هذا الوهم. وكلّما امتدّ الزمن حمل معه هزيمة جديدة لفئة أُخرى كانت تظنّ أنها ناجية بانعزالها، حتى عمّ البلاء، وحتى أصبح الخطر يمتد وينتشر، حتى كاد يعم العالم الإسلامي، وينال الطفل والمرأة والشيخ.

مجازر في زنجبار، مجازر في الصومال، في فلسطين، في الهند، في الفلبين، بورما، أفغانستان، كشمير، المسلمون في البلقان عامة، هناك وهناك وهناك! والجريمة الكبرى في البوسنة والهرسك.

في هذا التمزّق نخسر أمرين. نخسر قوة الاتحاد من ناحية، ونخسر رضاء الله ورحمته وعونه! ويمضي المسلمون من هزيمة إلى هزيمة دون أن يستيقظوا لينهضوا إلى اللقاء الضروري!

لقد عمّ تمزّق المسلمين الديار والأقطار والدول والحركات والهيئات، ومازال يمتد، ومازالت الهزائم تتوالى، والهوان والذلة تنكشفان عن خزي كبير.

وأنا أكتب هذه الكلمات تحمل الصحف كلها نبأ هدم المسجد البابري التاريخي في أيوديا شمال الهند في ولاية أوتار براديش، عندما اقتحم المسجد عشرات الألوف من الهندوس يوم الأحد في ١٢ جمادى الآخرة ١٤١٣هـ، ٦ كانون الأول ١٩٩٢م ودمّروه كليّاً. وقابل العالم الإسلامي هذا العمل بالاحتجاج وقابله أهل الهند المسلمون بالمظاهرات الغاضبة التي حصد رصاص الجيش الهنديّ الآلاف منهم بين قتيل وجريح. عمت المظاهرات الهند وباكستان، والاحتجاجات عمّت بعض أقطار العالم الإسلامي. لقد بنى هذا المسجد التاريخي الملك المسلم ظهر الدين محمد بابر (٨٨٨هـ ـ ٩٣٩هـ) الموافق

(١٤٨٣هـ - ١٥٣٠م). أي قبل حوالي خمسمائة سنة لم يكن الهندوس خلالها يتجرأون على هذا العمل أو على مثله![1] ويجيء هذا العمل المتحدِّي المشين كجزء من سلسلة من العدوان الممتد على المسلمين اليوم، كأنه منهج موحّد وخُطة يتعاون عليها أعداء الله في الأرض.

مثل واضح على هوان المسلمين وضعفهم، حتى تجرّأ الهندوس على أمر ماكانوا يستطيعونه قبل اليوم أبداً.

لقد كان هذا التمزّق، كما رأينا في الفصول السابقة، سببًا في ضياع الأندلس، حين لم يستطع العالم الإسلامي كله آنذاك نجدتهم مع توافر الإمكانات الممزّقة المتفرّقة هنا وهناك، الإمكانات المتصارعة التي يتآمر بعضها على بعض، ويفتك بعضها ببعض.

ولقد كان هذا التمزّق سبباً في ضياع فلسطين. وهو اليوم سبب في احتمال ضياع بلاد البلقان المسلمة!

كيف يتصور عاقل أنَّ فئة واحدة من مجموعة ممزّقة تستطيع وحدها أن تجابه صفّاً مرصوصاً من الأعداء. إن أعداء الله حين يجابهوننا يتناسون خلافاتهم فيما بينهم حتى يطلعوا علينا صفّاً واحداً.

إن العقل لايجيز ذلك، والدين يحرّمه تحريماً قاطعاً حاسماً، فما بالنا لم يعد ينفع فينا عقل ولادين؟! ومابالنا تزداد فرقتنا شِيعاً وأحزاباً؟!

إن في واقعنا الإسلامي أمراضاً وعللاً واضحة ممتدة في تاريخنا حتى يومنا، فهل ستمتدّ إلى مستقبلنا؟!

---

(١) راجع ملحمة الإسلام في الهند للمؤلف (ص: ٦٠).

وظاهرتان أُخريان واضحتان في تاريخنا: أولاهما هي الانصراف إلى الزينة والبذخ والمظاهر. وثانيهما ترك الجوهر أو التقصير فيه. وكل واحدة من هاتين الظاهرتين تدمر وتفسد.

إننا نحتاج إلى وقفة إيمانية طويلة. وقفة المسلم مع نفسه، وقفة الحركات الإسلامية مع نفسها ومراجعة حساباتها، وقفة الأُمة كلها مع ماضيها وحاضرها، والنظر في مستقبلها.

وقضيّة أُخرى كذلك! لقد حسب بعضهم أنه حين يتودّد لعدوّ الله تودُّد خضوع وموالاة وتأييد فإنه يكسب ودّه وعطفه وعونه. وغاب عن باله قول الله سبحانه وتعالى:

﴿لايرقبون في مؤمن إلّاً ولا ذمّةً وأولئك هم المعتدون﴾. [التوبة: ١٠].

وغاب عن باله قوله سبحانه وتعالى:

﴿يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا بطانة من دونكم لايألونكم خبالاً ودّوا ماعنتُّم قد بدت البغضاء من أفواههم وماتخفي صدورهم أكبر قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون﴾. [آل عمران: ١١٨].

وغاب عن باله قوله سبحانه وتعالى:

﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلّتهم. قل إن هدى الله هو الهُدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولانصير﴾. [البقرة: ١٢٠].

«فالولاء» اضطرب في واقع المسلمين اليوم وفي فترة طويلة من تاريخهم. وغاب عن وعي المسلمين معنى «العهد مع الله»، ومعنى الحب الأكبر لله ولرسوله، وأُصبح الحبّ والعهد والولاء عاطفة هائجة وممارسة مضطربة خاطئة

ابتعدت عن نور القرآن وهدي منهاج الله . فانفصمت عُرى الأُخوة في الله التي أَمر الله بها، وانحلّت عُرى كثيرة من عُرى الإيمان وارتخت حباله .

نستطيع أَن نوجز أَسباب مصائبنا وهزائمنا كلها في قضيّة واحدة تنبع منها سائر القضايا والأَسباب . هذه القضيّة هي الخلل والاضطراب في التصوّر الإيماني والتوحيد في واقع المسلمين اليوم .

للإيمان والتوحيد نهج خاص محدّد متميّز للتفكير والتأمُّل والتدبُّر . فعندما اضطرب الإيمان والتوحيد اضطربت مناهج التفكير، حتى صرنا نرفع شعار الإسلام ونفكر تفكير الاشتراكيين والديمقراطيين والميكافيليين وغير ذلك . أَصبحت ضلالات الوثنيات كلها تصبُّ في واقعنا ، وانحرافات أَهلها تجرُّ المسلمين إلى ضلالة وانحراف ، وحيناً إلى تبعيّة وذلّة وهوان .

وحين اضطرب الإيمان والتوحيد ، واضطرب الفكر والتدبر، حينئذ وهنت القدرة على التخطيط الإيماني . وغلبت على مواقفنا ردود الفعل الهوجاء الآنيّة ، الارتجال والسطحية ، حتى كأننا نرفض العمل المنهجي المدروس ، نرفض التخطيط والإدارة والنظام . واختلطت الأُمور.

إذا أراد المسلمون النجاة فلا سبيل أَمامهم أَبداً إلا بالسرعة في معالجة هذه الأَمراض ومظاهر الخلل . ولابد من البدء بقضية الإيمان والتوحيد، لتكون القاعدة الصلبة التي تُبنى عليها الأُمة المسلمة الواحدة . وبغير الأُمة المسلمة الواحدة ، الأُمة الملتزمة عمليّاً بمنهاج الله ، الأُمة التي تحمل رسالة الله إلى عباده في الأَرض كلها ، وتعدُّ القوة اللازمة لهذه المهَمَّة العظيمة ، بغير ذلك لانرى مخرجاً ولاسبيلاً .

وإن عقاب الله قد يأتي ومعه نذير يصاحبه قبل وقوعه بقليل، وقد يأتي عقاب الله والناس على تخوّف، أو بياتاً وهم نائمون، أو ضحى وهم يلعبون. إنه لايأمن مكر الله إلا القوم الكافرون.

وحين نوجه التحية والاحترام إلى جميع المؤمنين الصادقين الصابرين على أرض الإسلام في البلقان، إلى كلّ من يجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا، حين نوجه التحية والتقدير والدعاء إلى هؤلاء، فإننا في الوقت نفسه نهيب بالمسلمين جميعاً أفراداً وجماعات وشعوباً ودولاً أن يستيقظوا فالخطر داهم قريب عليهم جميعاً. وإن الأعداء دنت من الأبواب كلها، وإن الأبواب مفتحة، والأعاصير هائجة.

﴿فلمّا نسوا ماذُكِّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون. فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين﴾. [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

كلُّ إنسان معرَّض لخطرين لاشك فيهما. وكذلك الجماعات والشعوب. فأما أوّلهما فهو خطر الدنيا وفتنتها وعذابها وبلاؤها. وأما الخطر الثاني فهو مابعد الموت. ولانجاة لأحد من هذا أو ذاك إلا برحمة الله وعفوه. إلا بالعودة الصادقة إلى الله، فهو وحده الذي ينجي في الدنيا والآخرة.

والقضية الهامة تصبح بعد ذلك كيف نعود إلى الله! كيف نتوب ونعتصم بحبل الله! أهي شعائر معزولة عن الحياة، وأعمال مجزَّأة لايربطها نهج؟ كلّا! إنها نهج ممتدٌّ بإذن الله، واتباع النهج والصراط المستقيم. اتباع خطة صادقة تعيد الصادق إلى الحق، إلى ربّه وخالقه، عسى أن يعفو الله ويغفر ويرحم وهو أرحم الراحمين.

إنَّ النهج، والخطة التي تقوم عليه يجب أن يكونا عمليين، ينهجهما الفرد والجماعة والأمة. ويجب أن يحملا أسس النجاة من هذا الخطر وذاك إذا صدقت النيّة والعزيمة، وصحّ التوجه إلى الله!

وإنها مسئولية المسلم الفرد نفسه، حيث لايغني في هذا الأمر أحد عن أحد، أن يطمئنّ هو بنفسه إلى أن النهج والخطة يحملان العناصر المتناسقة المتكاملة والأهداف البيّنة الجليّة، واستقامة الدرب، وأن الدرب يؤدّي حقّاً للأهداف، وأن ذلك كله يؤدِّي إلى الجنة!

ومن هذا التصور يصبح النهج والتخطيط، والعمل والسعي، والدراسة والتدبر، وكل نشاط آخر، يصبح هذا كله خاضعاً لقاعدتين كبيرتين، ومنطلقاً منهما. وهاتان القاعدتان هما: **المنهاج الرباني، ودراسة الواقع ووعيه**. ومن هاتين القاعدتين تنبثق الأسس والعناصر التي تحدّد النظرية العامة للدعوة. وكل قاعدة وأساس وعنصر يحتاج إلى دراسات مفصلة بيّنة[1].

إنها مسئولية الفرد، كل فرد، أن ينهض إلى ذلك، أن يفكر ويتدبّر، قبل فوات الفرصة ولات ساعة مندم:

﴿حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ربّ ارجعون. لعلي أعمل صالحاً فيما تركتُ كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون. فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون﴾. [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠١].

---

(١) تُراجع الكتب التالية من أجل تفصيلات أوسع عن «النظرية العامة للدعوة الإسلامية»: نهج الدعوة وخطة التربية والبناء، النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية، الصحوة الإسلامية إلى أين؟ للمؤلف.

من أخطر مايمكن أن يصيب الأُمة والشعوب والأفراد، أن تُرْفع شعارات تدوِّي بها الحناجر، وأهداف تخفق لها القلوب، ثم يمضي الناس ليكتشفوا بعد عشرات السنين أن الأهداف والشعارات كانت في ناحية، وأن الدرب الذي سلكوه كان في ناحية أُخرى لايوصل إلى الأهداف أبداً.

إن هذا الانفصال بين الدرب المطروق والشعارات المعلنة خطر كبير مدمّر! إنها مسئولية كل فرد أن يطمئن إلى النقاط المحدّدة التالية:

١ ـ حقيقة الأهداف والشعارات وأنها نابعة من منهاج الله.

٢ ـ حقيقة الدرب والوسائل والأساليب وأن ذلك كله نابع من منهاج الله.

٣ ـ أن الدرب ممتدٌّ يوصل إلى الأهداف حقّاً.

ولاشيء يعين على تحقيق ذلك مثل النهج والتخطيط. فعندما يغيب التخطيط تتبعثر الشعارات، وتلتوى الدروب، وتضطرب الجهود وتضيع.

والنهج والتخطيط يجب أن يقوما على القاعدتين الرئيستين الكبيرتين وهما: **المنهاج الرباني والواقع**. ومن هاتين القاعدتين تخرج الأُسس الأربعة الهامّة: الإيمان والتوحيد، المنهاج الربّاني، الواقع، الممارسة الإيمانية. ومن هذه الأُسس الأربعة تنبثق العناصر الهامّة الثمانية لتحتضن العمل والدعوة، وتوجه الجهود. وهـذه العناصر الثمانية يمكن إيجازها بالنقاط التالية: النهج والتخطيط العام للدعـوة، النهـج والتخطيط للبلاغ والبيان، النهج والتخطيط للتربية والبناء، النهج والتخطيط للممارسة الإيمانيّة والتدريب عليها، الميزان وممارسته، التقويم، المؤسسات الإيمانية، والأُسس الأربعة مجتمعة تمثل العنصر الأول تتبعه العناصر السبعة التي ذكرناها.

إن هذا كله يجب أن يوصل إلى بناء أمة الإسلام، لتقف أمام أعداء الله صفّاً واحداً كما أمر الله، حتى ينجز الله وعده.

إن الأمة المسلمة الواحدة التي تحمل رسالة الله إلى خلقه وعباده، هي الحاجة الملحة للإنسان على الأرض. إنها القضية التي تستحق السعي والبذل والجهاد والدعوة.

لقد كشف العرض السابق لهذه الجريمة الكبرى أن الجامعات العصرية كلها ودور العلم، وجميع مظاهر التقدّم العلمي والفني، ورقي السيارات والطائرات، ورقي وسائل الاتصال السلكي واللاسلكي، والصناعة الهائلة المتطورة، وعلوم النفس والتربية، والفلسفات اليونانية والرومانية والأوروبية والأمريكية كلها، وأنماط أدبها من قصص ورواية ومسرح، وشعر ونثر، هذا كله وكثير غيره لم يستطع أن يرتقي بالإنسان، ابن هذه الحضارة، من حالة الوحشية، حالة «أسفل سافلين»، إلى حالة الإنسانية.

إن ابن هذه الحضارة مازال يقوم بأعمال وحشية أسوأ من إنسان العصور البائدة. إن انتماءه للدّين ومذاهبه وتعصّبه الذي يدّعيه، وإن مشاركته في المؤسسات الدولية ومؤسسات حقوق الإنسان والطفولة والأمومة ورعاية المعوقين وكل ماشابه ذلك، هذا كله لم يستطع أن يرفع هذا الإنسان المتوحّش إلى وضاءة آدميّته، وطهارة إنسانيّته! إنه مازال الوحش المفترس المجرم الظالم!

لماذا فشلت هذه العوامل كلها في إصلاح هذا الإنسان المتوحش الذي لم يتورّع عن إلقاء القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكي، ولم يمنع الأمريكي من أن يبيد الهنود الحمر، وحوش تبيد وحوشاً، ولم تمنعه من أن يسرق الأفريقيين

ويخطفهم رجالاً ونساءً وأطفالاً، يفصل الإبن عن أُمه وأبيه في عملية خطف قذرة مجرمة، يسوق فيها الآلاف المؤلفة ليكونوا عبيداً له في مزارعه، ثمّ ليخرج على الدنيا باسم الحضارة والمدنية. إنها حضارة العبيد؟!

لماذا كان هذا الفشل الواسع الممتد في الأرض؟! إن السبب هو أن هذه المظاهر كلها التي عددناها لاتلمس جوهر الإنسان، وإنما تلهب شهواته حتى تنحرف إلى الشرِّ والفساد. إن الطب مثلاً يعالج ظاهر القلب وعضلته وشرايينه، يعالجها للتقيّ وللمجرم. ونحن بحاجة إلى مايعالج جوهر القلب الخفيّ، وجوهر النفس وحقيقة الفطرة. إن جميع المذاهب الفكرية والفلسفية التي عرفها هؤلاء دمَّرت فطرتهم ودفعت قواها وشهواتها إلى الانحراف عن النهج الذي خلقها الله لها، فكانت شرّاً وفساداً.

إنه الإيمان والتوحيد، إنه الإسلام وحده، إنه دين الله، هو الذي يرعى الفطرة ويحميها، وينمّي قواها كلها متوازنة دون أن تنحرف، ويدفعها لتؤدِّي المهمة التي خلقها الله لأجلها، هذا الإيمان والعمل الصالح هو الذي أجره عند الله غير ممنون:

﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم. ثمَّ رددناه أسفل سافلين. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون. فما يكذِّبك بعد بالدين. أليس الله بأحكم الحاكمين﴾. [التين: ٤ ـ ٨].

هكذا يتردّى الإنسان بعمله الإجرامي ليكون ﴿أسفل سافلين﴾. أسفل من الوحوش والأفاعي! إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فإنهم يظلّون على أحسن تقويم، وينالون عند الله أجراً غير مقطوع، أجراً دائماً في نعيم خالد. ومن

يستطيع أن يكذّب هذا الحقّ البينّ، هذا الدين الجليّ، وحيثما التفتَّ تجد الآيات البيّنات! تجد المؤمنين يبنون الخير والصلاح في الأرض، يرعون الطفولة والأمومة وحقوق الإنسان وحدهم، يرعون ذلك كله في السلم والحرب، في الودّ والخلاف، في الصحبة والافتراق. أما ماعداهم فهم مجرمون يردُّهم الله أسفل سافلين. وهذا تاريخ الإنسان كله قديمه وحديثه بينّ تمضي به سنة الله وحكمته فمن يستطيع أن يكذّب ذلك؟ إن هؤلاء المجرمين، وهؤلاء المؤمنين سينالون الجزاء الحق عند الله فهو أحكم الحاكمين، لايظلم أحداً.

من هنا كانت حاجة البشرية كلها إلى هذه الفئة المؤمنة، إلى الأمة المسلمة، لتحمي الأعراض والأموال والحقوق، ولتقيم العدل في الأرض، بعد أن ملأت الديمقراطيةُ والاشتراكيةُ والشيوعيةُ والمذاهب الفلسفيةُ والدينية المنحرفة المحرفة، بعد أن ملأت هذه المبادئُ الضالةُ الأرضَ كلّها حروباً وناراً ولهيباً وفساداً.

﴿ظهر الفساد في البرّ والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾. [الروم: ٤١].

ومن أهم الدروس التي نتعلمها ثبات أهل البوسنة والهرسك ودفاعهم المستميت وتقديمهم تضحيات هائلة، وتحقيقهم انتصارات عسكرية لم يبرزها الإعلام الدولي. فبالرغم من ضعف العدة وهول القتال والمنع الدولي للسلاح عنهم وعدم إعطائهم حق الدفاع عن النفس فقد حرروا منطقة «جودج» في سراييفوا، وكثيراً من بلدية «فيش غراد» و «سيربنتسا» و«برانتوس»، فوصلت قوات المسلمين قريباً من «زفورنيك» على نهر «درينا».

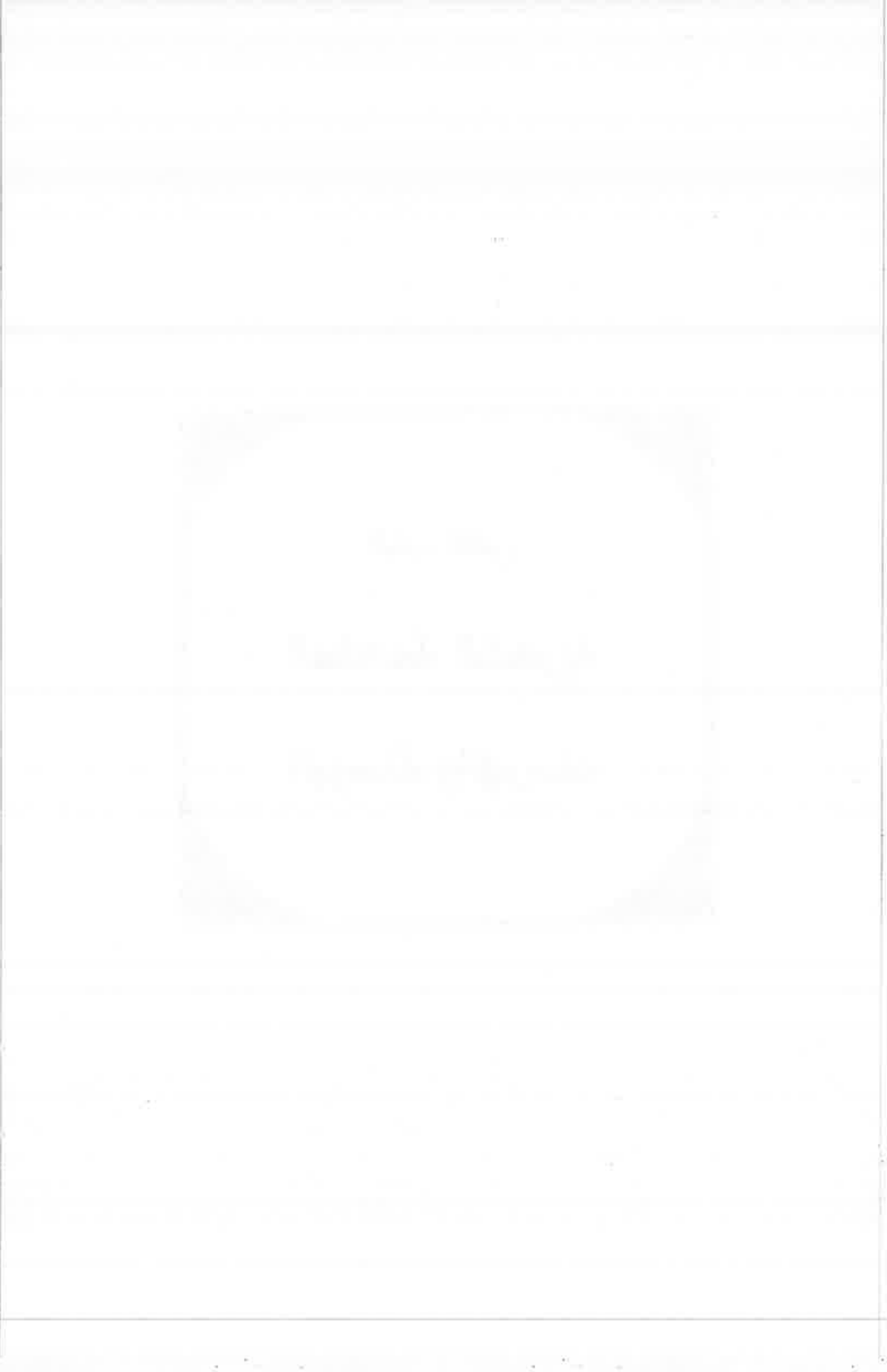
إنها آيات بينات لله تحمل لنا البشرى واليقين الثابت بانتصار المجاهدين في سبيل الله حين يستكملون أسباب العُدة والقوة والإيمان كما أمر بها الله سبحانه وتعالى.



الباب الثاني

الملحمة الشعرية

البوسنة والهرسك



الفصل الأول

دمـوع
تضيء الليل وتنير الدرب

- الافتتاح ـ تحيّة إلى البوسنة والهرسك .
- أطلقي الدمع .
- القطعان التي تساق .
- ملأ الظالمون أرضك يادار .
- غارة تحمل القرون مداها .
- الأحزاب وكيدها .
- بشائر النصر .



الافتتاح

تحية إلى البوسنة والهرسك

لاتُراعي يا «بُوسْنَ»! صبْرٌ جميلٌ سَوفَ نُحيي مَعَ المَـلاحِمِ عِيدَا
ونَصُــوغُ الفُتُــوحَ مِنْـكِ عُقُـوداً وحُـلِيّــاً تَزيـنُ مِنْـك الجـيــدا
يالَتَــارِيـخِــكِ الغَـنيِّ! أَفيضي كُلَّ يَومٍ مِنْـــهُ عطاءً جَديــداً
ودِمـاءً تَدَفّـقَـتْ تمـلأُ التّـا ريــخَ نُوراً وعِـزَّة وشُــهُـودَا
عَبَـقـاً يَمْـلأُ الزَّمَـان فَطِيـبـي وانْثُـري واملأي الحياةَ وُرودَا
حَوْلَكِ اليَـومَ أُمَّـةٌ عَقَدَ الليْـــ ـــلُ عَلَيْهـا ظَلاَمَـهُ الممـدُودَا
أيْـقـظَيـنـا بِدَفْقَـةٍ مِن دِمـاءٍ ودويٍّ يَهـزُّ مِنَّـا النّـجُـودا
ويُهــزُّ القُـلــوبَ! يَالِنيــامٍ! فاقْرَعي ماسْتَطعتِ قَرْعاً شدِيدا
واسْكُبي النُّورَ عَلَّه يُوقِظُ الجَفْــ ــنَ فَنلْقَى هُنـاكَ فجْـراً جَديـدا

أطلقي الدمع

أَطْلِقي الدَّمْـعَ مِنْ فُؤَادِك صُبِّيـ ـه لَهِيبـاً! فكَمْ حَبَسْتِ الدُّمُـوعَا
كَمْ أَبَى الصّبْـرُ أَنْ تُبَـلَّ جُفُـونٌ مِنْ مآسٍ وكـمْ أبـى أَنْ يُذِيعـا
يَسْكُبُ الحُـرُّ دفْقَـةً مِنْ ضُلُوعٍ تُلْهِبُ السّاحَ أو تَصُبُّ النَّجِيعا
أو تَشُقُّ الظّلاَمَ بِالنُّـورِ يَسْـرِيَ أو تَرُفُّ النَّـدَى وتُحيي الرّبيعا
فإذا جَفّـتِ الدِّمـاءُ فَصُـبِّـي مِنْ دُمُـوعٍ ورجِّـعي تَرْجِيعـا
أَطلقي الدَّمْعَ شُعْلَةً في الَّلَيَالي وأَنِيـري دُروبُنـا والتُّلُوعَـا[1]

* * *

اسْكُبي الدَّمْـعَ لا يَعيبُـكِ دَمْـعُ وانْـثُـريـه لآلِئـاً وشُمُـوعـاً
وانْثُرِيه عَلَى الدُّرُوب مع اللّيـ ـلِ ! أَضيئي أَحْناءَنا والضُّلوعَا
ونُفُـوسَاً كالتِّيه، كاللّيلِ ، غابَ النُّـ ـورُ عَنْـهَـا ورُوِّعَـتْ تَرْويـعـا
خَدَرٌ شَلَّهـا! فَأَهْـوَتْ وأَغْـفَـتْ والليـالي تَمُـرُّ عَنْهـا سَرِيعَـا
وبقَـايا الأَحْلامِ تَرْقُدُ في الجَفْـ ـنِ وتُطوَى سكينَـةً وهُجُـوعَا
هَمَسَـاتٌ تَمُوتُ في هَدْأَةِ اللّيـ ـلِ ونَجْـوى وَدَّعْتِهـا تَودِيعـا

* * *

---

(١) تَلَعَ تَلْعاً وتُلُوعاً. تلع الرجل رأسَه: أخرجه من شيء كان فيه.

القطعان التي تساق

كَمْ قَطيعٍ يُسَاقُ في الدّرْب يَثْغُو		نَصَبُوا دُونَـه المُدى والنُّطُوعَا
وَبَقَايَا الأَشْلاءَ تَنْسُفُها الرِّيـ		ـحُ وتَرْوي حَدِيثَها المفجُوعَا
والصَّدَى لم يَزَلْ يَمُوجُ عَلَى الأُفْـ		ـق فَيرْتَدُّ من أَسَاهُ صَرِيعَا
الثَّكالى! ياللثَّكالى! دُمُوعٌ		وكُبُودٌ تَقطّعَتْ تَقْطِيعَا
اسكُبي الدَّمْعَ! أيْنَ طِفْلُك؟! أينَ الأ		هْل؟! أيْنَ الرِّجال؟! غابوا جَميعًا
أَطْلِقي الدَّمعَ! ليْسَ عِندَك إلا الدَّمع! صُبِّيه حَسْرَةً وجُزُوعَا
اليَتامى! يالّلْيَتامى! أنِينٌ		غابَ في زَحْمَة الثُّغَاءِ وَرِيعَا[1]
الصَّبايا ياللصَّبَايا! ذِئَابٌ		وَثَبَتْ شَهْوَةً عَلَيْها وجُوعَا
كَيف يُعْرَضْن عَارياتٍ؟! فَيَجْمَعْـ		ـنَ حَيَاءً وَيَنْحَنِيْنَ دُمُوعا
كُلّما مِلْنَ بالأَكُفِّ لِيَسْتُرْ		نَ أَثَرْنَ السِّياطَ والتَّرْوِيعَا
أَو أَثَرْنَ الرّصَاصَ يُسْكِت منها		رهْبَةً أو فؤادَها المفْجُوعَا
يَتَلَفَّتْنَ! لايَرَيْنَ أَبِيّا		مُنْجِداً ذا عَزِيمَةٍ أَوْ شَفيعا
أَو رَحِيماً تَهُزُّهُ خَشيَةُ اللَّـ		ـهِ لِيرْتَدَّ تَوْبَةً وَخُشوعا
يَتَلفَّتْنَ! مَنْ أولئك؟! أَهْلُـ		ـونا؟! لَقَدْ قَطَعُوا العُرَى تَقْطيعا

---

(١) ريعا: المبني للمجهول من فعل راع أي أخاف. ريعا: أُخِيف.

قَدْ خُدِعْنـا عَلَى الزَّمَانِ طويلاً وحَسِبْنَـا الشَّقِيَّ حمْلاً وَدِيعا

إنَّمـا الأَهْلُ مَنْ يُعينُكَ بالحـ ـقِّ ويَحْميكَ مَا أَردْتَ شُرُوعاَ

يحفظُ العَهْدَ وَالوَفَاءَ ويَخْشى رَبَّه اللُّـه والحِسَـابَ السَّرِيعا

* * *



ملأ الظالمون أرضك يادارُ

يَادِيَارَ الإِسْلام! أَنَّى تَلَفَّـ ـتُّ تَجَرَّعْتُ غُصَّةً وَجُزُوعَا[1]
وخِيامُ اللّجُوءِ تَقْذِفُها الآفا قُ! تَرْمي أَفْواجَها والجُموعَا
غَصَّتِ الدَّرْبُ والشّعابُ ومَاج الـ ـمَوْتُ فِيها جَمَاجِماً وضُلُوعَا

* * *

أيْنَ لُبْنانُ؟! والدَّماءُ التي كا نَتْ تُنَادِي وَمَا تُلاقي سَمِيعا
فَجَّرَ المُجْرِمونَ فيها البَرَاكِيـ ـنَ فَمَادَتْ زلازِلاً وصُدُوعا
يَالهَوْلِ الإجرام! صَبَّ على السَّا حاتِ دَمْعاً مُرَوَّعاً ونَجيعَا

* * *

يارَوابي الأَفْغَان قصِّي علينَا وأعيدي المَلامَ والتّقْريعا
كمْ شَقِيٍّ بَغَى عَلَيْك فَوَلَّى راضِياً بالإِيابِ عَنْكِ قَنُوعا
آيَةٌ منْ مَلاحِمٍ يَسْطعُ الصُّـ ـبْحُ عَلَيْها كما رأيتِ سُطُوعَا

* * *

ياحَنينَ الأَقْصَى! وَيالَهْفَةَ الشّو قِ! وَيَا خفْقَةً تَهزُّ الضُّلُوعا
الحَمامُ الَّذي عَهِدْنَاهُ فِيهِ غابَ يَرْجُو مَعَ الحَنينِ رُجُوعَا
لم تَزَلْ أَنَّةُ اللّجُوءِ تُدَوِّي بَيْنَ أَحْنَائِنا دَوِيّاً فَظيعاً

---

(١) جزع: جزعًا وجزوعاً وهو ضد الصبر.

الهَـوَانُ الذَّليـل خَلَّى رُبَـاهـا عن خُطَى أَهْلِهَا حِمىً مَمْنـوعَا
لايَـزَال الغَـرِيـبُ يَضْـرِبُ في الأَرْضِ ليـلقَـى أُصُـولَهُ والفُـروعَـاَ
حِيـن يَلْقَـى حِمـاهُ في أُمَّـةِ الإِسْـلَام تُغْني رُبُـوعَهـا والجُمـوعَـا
ياطِلالَ الزَّيتُونَ! أَيْنَ حديث الأَمْـ ـس ؟! هَاتِ الحديثَ والتَّرجِيعَا
أَيْنَ عِطرُ اللّيمـون يَنْشُر تَاريـ ـخـاً ويَـرْوِي مَلَاحِماً وصَنيعَا
وطُيـوفُ الأَقْصىَ تُنـادِي: أَبَيْنَا أَنْ نَسُـومَ الدِّيـارَ أَو أَنْ نَبيعَـا

* * *

أَيْـنَ ياقَـلْبُ أَسـكُـب الدّمْـع؟! أَنَّـى طُفْتُ أَلْقَـى مَذَلَّةً وخُـنُـوعـا
أعـلى دَجْـلَةٍ أَصُـبُّ دُمُـوعـي وأُعِـيـدُ الأَحْـزان والتَّقْـرِيعـا
يالهـولِ المُصَـاب فيهـا وقلبي لم يَزِلْ راجِـفـاً يَدُقُّ هلُوعـا

* * *

أم على النِّيل؟! كَمْ أَرادوكَ يانِيـ ـلُ جَنـيّـاً يُرَاودُ التَّطويـعـا
وَأَرادُوك أَنْ تَضِيــع مَعَ الشِّـرْ كِ وتـأبـى عَلَيْـهِمُ أن تَضيعـا

* * *

أم على الشّـام والعَدُوُّ حَوَالَيْـ ـهـا يَمـدُّ السّكِّينَ والتقـطيعا
يارُبى الشـام! يالعْهـدِك ياشَـا مُ أطلتِ الفـراقَ والتَّـودِيـعـا

* * *

أم على الهِنْدِ؟! لهفَ نفْسي! تَراهُمْ نَزَعـوا للفسـادِ فيهـا نُزُوعـا
مَلأوا الأرْضَ مِن جَرَائِـم هِنْـدُو سٍ وسِيـخٍ وصَدَّعوا تَصدِيعا
وأحَـاطوا بالمُسْلِمين وهَـزّوا مِنْ قناةٍ وجَـمّـعـوا تَجْمِيعـا
هَدَمُـوا المسْجِـدَ الغَنِيّ بأمْجا دٍ فأهْـوَى التَّارِيخُ مِنْهُ خُشوعا
لمْ يُرَاعُـوا للمُسْلِمينَ يَدَ الإحْـ ـسَانِ فِيهِمْ ولمْ يَهَابُوا الجُمُوعا
مَسْجِدُ البـابـريّ أصْبَحَ ذِكري لهَـوانٍ، وغُـصّـة ودُمـوعَـا

* * *

يا «لِكَشْميـر» والدِّمَـاءُ عَلَيْهـا صَبَغَتْها رِيعـاً يَمـوجُ فريعَـا[1]
كُلَّ يوم تمُـرُّ فِيـهـا اللّيَـالي وصَـرِيـعُ يَرْثي عَلَيْهـا صرِيعَـا
أُمَّـةٌ تَدْفَـعُ الكـتـائِـبَ لِلحـ ـقِّ وتحْيِي جِهـادَها المَشْروعَا

* * *

يالأرْض «الصُّومَالِ» يَجْرِفُها المَوْ تُ فَتَلْقى به الهَـلاكَ المُـرِيعَا
جُنّ في أرْضِها الشَّيَاطينُ بالمَكْـ ـرِ فَصَبُّـوا الفَنَاءَ والتَّجْويِعَا

* * *

كُلُّهـا سَاحَةٌ يُخَيّمُ فِيهَا الليّـ ـلُ يَطْوي فَضَاءَها والرُّبوعا
الضَّـلالُ البَعيدُ والمكْرُ والمَوْ تُ ظلامٌ يَرُوعُـهـا تَرْويـعَـا

---

(١) الريع: المرتفع من الأرض.

وَظَلامُ السُّجُـون يَطْوي أَنيناً وصـراخـاً من الضّحَايا مُريعا
بَيْــن آلاتِــه تُمَـزَّقُ أَجْـسَــا مُ وتــأبى نفـوسُهَـا أن تُطيعا
سَاحَـــةٌ يَلْعَبُ الشَقِيُّ عَلَيهـا مُجْـرِماً ضَلَّ أو سَفيهاً خلِيعًا
مَلأَ الظّالِمــونَ أَرضَــكِ يادا رُ وكَــانَتْ حمىً أَبَــرَّ منيعــا

* * *

غارة تحمل القرون مداها

اسْكُبي الدَّمْعَ حيثُ شِئتِ وَروِّي واديـاً غائِـراً وسَهْـلاً وريعَـا
أطلقيـهِ من الكُبـودِ وصُبِّيـ ـهِ دَمـاً فائِـراً ودفقـاً سَريعـاً
حيثُمـا مِلْتِ قَلْبي الطَّرْفَ تلْقَيْـ ـنَ عَلَيْهـا مجَنْـدَلاً وصَـريعـا
وَهـوًى حائِـراً وأَحْـزانَ أكْبَـا دٍ وصبْـراً عَلَى البَلاءِ وسِيعَـا
أُمَّـةٌ لم يَعُـدْ لَدَيْها سِوَى الدَّمْـ ـعِ أَضَـاعَتْ قَنَـاتَها والدُّرُوعَـا
ورَجـاءً باللهِ حَلُّوا عُراهُ وحِبـالاً تَقَـطَّعَـتْ تقـطِيعَـا
وجَـرَوا يَلْهَـثُـونَ! خَلْفَ عَدُوٍّ ماكِـرٍ، تابِـعـاً يَجُـرُّ تَبيـعـا
وَجَـرَوا يَلْهَـثُـونَ! يالعَـدوِّ هزَّ بُنيـانَنَـا وشقَّ الصُّـدوعـا
وأَتَـانـا بِكُـلِّ داهِـيَـةٍ كُبْـ ـرى وَأَفْنى ثِمـارَنَـا والزُّرُوعَـا
وَرَمَـى بَيْـنَـنَـا زَخـارِفَ شِرْكٍ فِتْنَـةً تُطْلِقُ الهَـوَى المتْبُـوعـا
صَدَقَ اللّهُ والرَّسُـولُ! تَبِـعْنَـا سَنَنَ المُشرِكـين، ويحي، تبُـوعَا[1]
مَزَّقُـونَـا عَلَى هَوَانٍ فَصِـرْنَـا قِطعـاً يَرْتَعـون فيهـا رُتُـوعَـا

---

(١) إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ: عن أبي سعيد الخُدْريّ قال: قال رسول الله ﷺ: لتتبعنَّ سَنَنَ الذين مِنْ قبلكم شبْراً بشبر، وذراعاً بذراع. حتى لو دخلوا جُحر ضَبٍّ لاتبعتموهم». قلنا: يارسولَ الله! آليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» والتبوع: تبع الشيء تبُوعاً: سار في أثره.

وحُــدُوداً كَأَنَّهــا السّيفُ يَفْـري أمَّــةً أو يَشـقُّ مِنَّــا الضُّلوعَــا
والتَّـقِـيُّ الأَبـيُّ أَضْحَى غريبــاً بَيْنَ أَهْليــه أو قَتِيــلًا صريعــا

* * *

أَتبعْنَا، يا وَيَحنَا، «المنجَلَ الأَحْـ ـمَـرَ» يَلْوي شَبَـابَنَـا المخْدُوعا
حَسِبُــوهُ غنــاءَهم فَاطْمَــأَنّــوا ثُمَّ ذَاقُــوا عَذابَــه والجُــوعَــا
والْتقَى المُجْـرِمـون كُلُّهمُ اليَـوْ مَ صَليباً ومِـنْـجَــلًا مَرْفُـوعَــا
ورَمَـوا في البِـلادِ فِتْنَةَ أَشْـيا عٍ ليُعلوا شِعَـارَهــا الممنُـوعــا
والخَفَـافِيشَ في زَوَايـا الليـالي والأَفَـاعِيْ وسُمَّهــا المَنْقُـوعَــا
ونُيُوبَ الذِّئابِ تَنهَشُ مِنَّا اللـ ـحْمَ دَقَّتْ عِظَامَنَـا والجُـذُوعَا
غَارَةٌ تَحْــمِــلُ القُــرُونُ مَدَاهَــا وأَسَـاهَـا وَكَيْـدَهَـا المَـدْفُـوعـا
لَم نَزَلْ كالعَـبِـيـدِ نُطْلِقُ شَكْـوا نَا ونَـطْوي جِهَـادَنَـا المشْروعَا

* * *

الأحزاب وكيدها

يَالِهَـذا الهَـوَانِ! لايَقْبَـلُ المجْـ ـرمُ إلّا هَوَانَـنَـا والرُّكُـوعَـا
عِنْـدَ أقْـدَامِـهِ تَمُـوتُ مُروءًا تُ ويَهْـوي لَهـا الجَبَانُ خُنُوعَا
كُلَّمـا أوْغَـلَ الجَـبَـانُ بذُلٍّ أمْعَنَ المجْـرمُ الشَّقيُّ ضُلُوعَا[1]
هَكَـذا يُسْحَـقُ ابْـنُ آدمَ يُلْقَى مِزَقـاً أو يُسَـاقُ فيهـا قَطِيعـا
هكـذا تُسْتَبـاحُ أشْـواقُـهُ البِكْـ ـرُ وتُـغْـتَـالُ لَهفـةً ونُـزُوعَـا
تُخْـنَـقُ الفِـكْـرَةُ الأبِيَّـةُ فِيـهِ ثُمَّ يَمْضُـونُ فِيـهِ قَتْـلًا ذَرِيعـا
العِصَـابَـاتُ أو عَبِيدُ الشَّياطِيـ ـنِ أدَارُوا الفَسَـادَ والتَّقْـطيعَـا
وَيْـلَ «واشْنطُنٍ» وَوَيْـلَ فَرَنْسَـا وَبْـرِيـطانيـا وتـابعـاً وَتَبيعـا
وَيْل «مُوْسْكُو»! تَاهتْ مَعَ الكِبْر حتَّى صُدِّعَتْ في هَوَانِهـا تَصْـدِيعـا
فَهَـوَتْ تَعْـصِفُ المـذَلَّةُ فِيهـا قِطعـاً مِنْ أسىً تَضَـوَّرُ جُوعَـا
آيَـةٌ تَرْجِـفُ القـلوبُ لَدَيْـهَـا رَهَبـاً من جَلَالِهَـا أو خُشُـوعَـا

* * *

أقْـبَـلُوا كُلُّهـم عَلَيْنـا بكَيـدٍ لَمْ يَزلْ كَيْـدُهم بِنَـا مَزْرُوعَـا
وأحَاطُوا بنا! فيا أرْضُ مِيدي فَزَعـاً من فَسَادِهم أو هُلوعَا[2]

---

(١) ضَلَع ضُلُوعا: جار، مال، جَنِفِ.
(٢) هَلع يَهْلَعُ هَلَعاً وهُلُوعا.

المـنـــايَــا تَزَاحَمتْ والرَّزايــا هاهُنــا أَو هُنـا تَدُكُّ الرُّبُــوعَــا

بَيْـنَ قَصْـفٍ مَرَوِّعٍ وجَـحيمٍ زَلزَلَ الأَرضَ والذُّرى والجُذوعَا

وأَشَاحَتْ عَنَّا العُصَورُ ومَالتْ خَجَــلًا أَنْ نَذِلَّ أَو أَنْ نَرُوعــا

يَاليــوم الأَحزاب يَبْلو بِه اللّـ ـهُ نفـوسـاً تَضَرَّعَتْ وجُمُوعا

أَيُّها المجرِمُون في الأَرْضِ صُبُّوا حِقْدَكَمْ وانْشُروا البلاءَ المُرِيعا

سَوفَ يَجْلو النَّهــارَ لَيْلٌ يُوَلّي ثم تَجْنُــونَ غَرْسَكُمْ والزُّروعَــا

عَلْقَمــاً مِنْ جَنَى يَدَيكُم وصَاباً ثُمَّ تُسْقَــونَ سُمَّــه المَنْقُــوعَــا

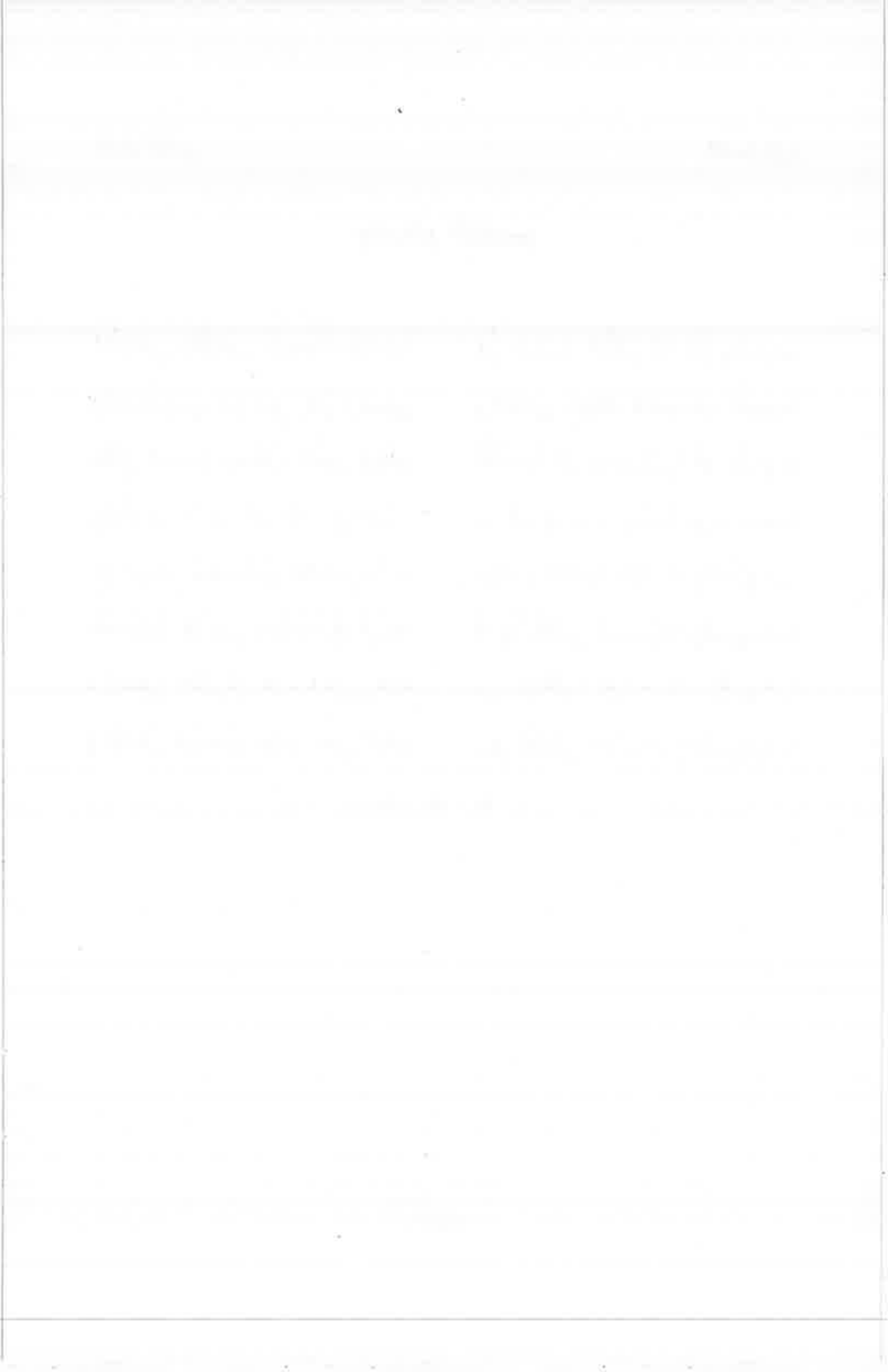
سُنَّةُ اللَّــهِ سَوَفَ تَمضي فَتَطْوي مُجْـرِمــاً ظالماً وتَطْوي تَبيعَا

* * *

بشائر النصر

لاتُراعِي يَاأَرْضَ «بُوسنا» فَصَبْراً إنَّ صَبْـرَ التَّقيِّ لا! لَنْ يَضيعـا
واسكُبـي من دَمٍ زكيٍّ وصبّي وادْفَعي حَوْلَكِ الشَّبـابَ البَدِيعا
طَلَعَ الفَجـرُ يَسْكُبُ النُّورَ يَجْلُو أَنْفُسـاً أو بَصَـائِـراً أو ضُلوعا
والنَّدَى يَسْكُبَ الحَيَاةَ مَعَ الفَجْـ ـرِ فَيَـهْـتَـزُّ جَنَّـةً وَرَبِـيـعـا
كُلُّ لَيْـلٍ سَيَـطْلُعُ الفَجْـرِ مِنْـه نَرْقُـبُ الأُفـقَ لَهْفَـةً والطُّلوعَـا
غَمَـراتُ الدُّجَى سَتَـدْفَـعُ أَبْـطا لاً وتُـلْقـي مُسـوَّداً وقَـريـعـا
يَحْمِلونَ القُـرآن هَدْيـاً إلى النَّا سِ لِيُعْلُوا لواءَه المـرْفُـوعَـا
والأذانُ النَّـدِيُّ دَوَّى على الأفْـ ـقِ فَأَغْنَى النِّـداءَ والتَّـرْجيعـا

* * *



الفصل الثاني
الجريمـة الكبـرى

- تحية إلى سرايفو.
- زحف الصرب على البوسنة والهرسك واغتصاب النساء.
- مصرع الأطفال والنساء والرجال.
- هدم المساجد وقتل المصلين فيها والأئمة.
- فجرٌ في موستار.
- ضياع قوافل اللجوء بين هوان المسلمين واستغلال الدول الكبرى.
- انهيار الحضارة الغربية مع هول الجريمة الدولية.
- عزة الفتوح الإسلامية وخيرها على الإنسان.
- أوروبا تغلق منافذ النّور القادم إليها من الأندلس.
- الفتوح الإسلامية وزحوفها إلى أوروبا.
- فتح مقدونيا ومعركة كوسوفو.
- محمد الفاتح وفتح بلغراد والقسطنطينية.
- فتح البوسنة والهرسك ودخولهم في الإسلام.
- البوسنة والهرسك في عزة الإسلام.

- بدء ضعف الخلافة وسقوط بعض البلدان بيد الأَعداء.
- أُوروبا تعود لتصدَّ الهُدَى وتمنع النور القادم إِليها من الشرق.
- نذير من الله للمسلمين.



تحيـة إلى «سراييفو»

أطِلِّي «سَـرَاييفـو» عَلَيْنَا بدَفْقَة مِنَ النُّور أو دَفْقٍ مِنَ العِطْرِ والدَّمِ

أطِلِّي «سراييفو» عَلَينا بِصَيْحةٍ تُدَوِّي وهُـزِّي من غُفَـاةٍ ونُـوَّمِ

أطِلِّي عَلى الدُّنيـا سَنَا الفجْر دُونَهُ دَيَاجِيرُ مَاجَتْ فَوقَ سَاحٍ ومَعْلَمِ

طَلَعْتِ على الدُّنيا ووَجْهُكِ مُشْرِقٌ وعَهْـدُكِ ميثـاقُ الكميِّ المُصَمِّمِ

فَتُنْمي غِراسَ الحَقِّ بَيْنَ مَجَـازِرٍ وتُحْيي مِنَ الأعْـراسِ في كُلِّ مأتَمِ

وتُعطي إلى الإنْسَانِ جَوْهَرَ عِزِّهِ إبـاءً وإيمـانـاً وجَـوْلَةَ مُسْلِمِ

* * *

رَمَـاكِ عَدُوُّ الله فأنْـتَـفَـضْتِ له عَزَائِـمُ خَطَّارٍ وَوَثْـبَـةُ ضَيـغَمِ

أرادُوكِ للمـوتِ الذَّلِيل فَلَمْ يَهُنْ إبـاؤُكِ! وَاهتَـزَّتْ رُبَـاكِ فأَقْدِمي

فأرْضُـكِ مِيـلادُ الحَيـاة تَفتَّحَتْ وُرُوداً تُرَوَّى مِنْ كُبـودٍ وعَنْـدَمِ

يَصُبُّ بِهَـا التَّـاريـخُ حُرَّ دِمائه وفـاءً لِدينٍ صَادق العَهْـدِ مُلْزِمِ

فَتَـعْبقُ أَزْمَـانٌ بِطيبِ أريجِهـا وتعبقُ سَاحَـاتٌ بِجَـولةِ مُعْلَمِ

تُعِيدُ عَلَى السَّاحَاتِ زَهْوَ جِهادِه وتَـرْوي مَعَ الأيّام قِصَّةَ مُجْرِمِ

* * *

زحف الصرب على البوسنة والهرسك واغتصاب النساء

أغـارَتْ وُحُوشُ الأَرْضِ ! يالِزحُوفها ... ويَــالِهــلاكٍ بَيْــنَ ذِئـبٍ وأرْقَـمِ

تَدَافَـعُ أرتــالُ الجَحيمِ تَدُكُّهـا ... جُنُـونَ لهيبٍ قاصِفٍ ومُدَمْدِمِ [1]

تَزَاحَمُ في عَرْضِ السّماءِ قذائِفُ ... مِنَ الموتِ تَهْوِي بالفَنَاء المُحتَّمِ

كَأَنَّ فضَاءَ الله يَهْوِي عَلى الثَّرى ... ويُطْبِق، يَاوَيحي، على كُلِّ مَعْلَمِ

تَطَايَــرُ أشــلاءٌ وتُلقَى جَمَـاجِمٌ ... وتُـطلَقُ أنْـهَـارٌ تَدَفّـقُ بِالدَّمِ

فَكَمْ مِنْ صبيٍّ في نَضَــارَة عُمْره ... تَمـزَّقَ! لم يأثَـمْ ولمْ يَتَـنَـعَّـمِ

وكم من عَجـوزٍ لم تَرُعْهُ هُمُومُهُ ... فَرَاعَتْـهُ أهوالُ العَدوِّ المُلطَّمِ [2]

وكم كاعِب ردَّتْ عَلَى الطهْـر خِدرَها ... تُنـاشُ بِوَحْشٍ مُجْرِم الطبع مُرْغِمِ

تَلَفَّـتُ لِلآفَـاقِ عَلَّ حُمَـاتَــهـا ... يُطِلُّونَ مِنْ أُفْـقٍ هُنَـالِك مُظْلِمِ

تَلَفَّتُ ! أَيْنَ المُسْلِمـونَ وَأَيْنَ ما ... دَعَوا مِنْ شِعارات الوَفَاءِ المُرَجَّمِ

فَرَدَّتْ على الذُلِّ المـروِّع طرْفَها ... وطوَّتْ عَلَى الأَحْنـاءِ غُصَّة أَيِّمِ

وأَهْوَتْ عَلَى وَحْلٍ ! وأطبق فوْقَها ... ذِئـابٌ! ودَارَتْ قِصَّــةٌ لمْ تُتَمَّمِ

* * *

---

(١) مُدَمْدِم: الذي يَنصبُّ بغضبٍ، المهلك.

(٢) الملطَّم: اللئيم.

مصرع الأطفال والنساء والرجال

وطِفْلٍ يَكَادُ الهَوْلُ يُطْلِقُ صَوْتَه أغيثُوا بَني الإسْلام عِرْضي ومحْرَمي

تَلَفَّت كيْ يَلقَى أبَــاه مُضَــرَّجـاً تَهَاوَى على سَيْلِ الرّصاصِ المُدَمْدِمِ

تَدَفَّقَ مِسْــكُ مِنْ عُروقٍ وأضْلُعٍ وظلَّ حَنَـانٍ من عُيـونٍ ومِنْ فَمِ

وَأُمّــاً يَدَاهَــا مُدَّتــا كَيْ تَضُمّـه فَعَاجَلَهَا قَصْفُ اللّهيبِ المُضَرَّمَ

قَضَتْ ويَـدَاهــا لم تَزالا كَأنَّهــا دُعَــاءٌ إلى مَولىً أبَــرَّ وَأرْحَــمِ

عَلَى شَفَـتَـيْهــا تَتَمــاتُ كَأنَّمــا طَوَاها الرَّدَى عَنَّا فَلَمْ تتكلَّمِ

ولكـن تَلقَّـتْهــا القُلُوبُ وأطْلَقَتْ صَدَاها عَلَى الآفاق غَضْبَةُ مُسْلِمِ

وَفَاضَتْ عَلَى عَيْنَيْهِ حُرْقَةُ أدْمُعٍ وَمَاجَتْ عَلى خَدَّيْهِ أشجانِ يُتَّمِ

وأطْلَقَ عَيْنَيــهِ تَدُورُ مَعَ المَـدَى عَلَى فَزَعٍ أو حَيْــرَةٍ أو تَوَهُّــمِ

* * *

تَلَفَّـتَ والآفَــاقُ جُنَّـتْ وفُـتِّحَتْ عَلَى لَهَبٍ مِنْ وَقْـدِهَا المُتَضَرِّمِ

فَمــا رَاعَــه إلّا طَلائِــعُ عُصْبـةٍ وَوَثْبَةُ وَحْشٍ هائج الطَّبْعِ أيْهَمِ[1]

فَصَــعَّــدَ فِيــهِ ناظِرَيــه: فَكفُّـهُ بَريـقُ شِفَــارٍ لمْ تَجِـفَّ مِن الدَّم

وفـي وَجْـهــهِ شيءُ كَأنَّ سَوَادَهُ بَراكِينُ حِقْدٍ فَجَّرَتْ قَلْبَ غَيْهَمَ[2]

---

(١) أيْهَمَ: من لاعقل له ولافهم.

(٢) الغيهم: الظُلْمَة.

تَلاَقَتْ إذنْ عَيْنَـاهُما: عِزُّ مُسْلِمٍ صَبِـيٍّ وذلُّ الفـاجِـرِ المُتَجَهِّمِ
فَنَـادَتْـهُ عَيْنَاه! فَيَـا لِنِـدَائِـه بَرَاءَةُ طِفْـلٍ تسْتَغيثُ وتحْتَمي
ويـالِنَـداءٍ لَوْ أَصَـابَ حِجـارَةً لَلاَنَتْ لَه مِن صِدْقِـهِ والتَّـوَسُّمِ
ونـادَى نِداءَ المستغيثِ! فَحزَّهُ وأَلْقـاهُ أَشْـلاءَ الإبـاءِ المحـطَّمِ
وغـابَ نِداءُ الطّفـلِ بين زَمازِمٍ تُدَوِّي ومَـوْجٍ زَاحِفٍ مُتَقَـدِّمِ

* * *



هدم المساجد
وقتل المصلين فيها والأئمة

وَدُكَّتْ بُيُـوتُ الله! يَاويـلَ كافِـرٍ إذا ماتَـولَّاهُ سَواءُ جَهَـنَّـمِ
فهٰـذي بُيوت اللّـهِ مَازَالَ عِنْدَهَا صَدًى يَتَعَالَى بَيْنَ سَاحٍ وَرَوسَمِ[1]
تَمُـوجُ عَلَى أطْلَالِهَـا ذِكْـرَيَـاتُها وتَبْحَثُ عَنْ مِحْـرابِهَـا المُتَهَدِّمِ
وَعَنْ أُمَّـةٍ كَانَتْ تَمُـوجُ بِسَاحِها خُشُوعاً، وعَنْ شَيْخٍ هُنَاكَ مُعَمَّمِ
لَقَـد قَتَلُوه وهـو يَدْعـو لربِّـه فأَحْيَتْـهُ أَشْوَاقُ الشَّهَادَةِ والدَّمِ
وكمْ عَابِـدٍ أَرْدَوهُ فِيـهِ ولمْ يَزَلْ يَحِـنُّ صَدَاهُ للجـهَـادِ المُـعَلَّمِ
لقَدْ فجَأوهُمْ سُجَّداً في صَلاتِهِمْ ليَحْصُـدَهُمْ دفْقُ الرَّصاص المحَرَّمِ
فَمـا التَفَتـوا إلَّا لإشْـراقِ جَنَّةٍ أَطَلَّتْ بِبُشْـرَى فَوزِهِم وبِمغْنَمِ
وخَلَّوا جُنُـودَ المُجْـرِمينَ بِغَيِّهِم سُكَارَى عَلى هَوْلٍ وخُسْرٍ ومَغْرَمِ

* * *

(١) رَوْسَم: الرّسم، الأثر.

فجــر في موستار(١)

مَضَتْ هَزَعَـاتُ اللَّيلِ والفجْرُ مُقْبِلٌ ولمْ تُقْطَع الجولاتُ فِيهِ وتُحْسَمِ
كَأَنَّ النَّـدَى يافَجْـرُ دَمْـعٌ تَصُبُّهُ ثُكـالى عَلَى أَطْلالِ بيتٍ مُهَـدَّمِ
كأنَّ الشَّذى أَغْفى على الوَرْدِ وانْطوَى وخَـلَّفَ من عِطْرِ الدِّمَـاءِ لَدَيْهِم
تَسلَّلَ نُورُ الفَجْـرِ في رَعَشـاتِـه تَسَـلُّلَ مَذْعـورِ الفـؤادِ مُلَثَّـمِ
يُرَوِّعــه كَيْـدٌ يُدَارُ وفِـتْـنَـةٌ تُثَـارُ بلَيْـلٍ واسعِ الشَرِّ مُظْلِمِ
يُسَـابِقُ أَهْـوالَ الرَّدى وزُحُوفَها ليُـوقـظَ من طِفْـلٍ وشَيْخٍ وأيِّمِ
ومن أُسْـرَةٍ لمَّ السُّبَـاتُ جُفونَهَا بُعَيدَ شَتَاتٍ في الميادينِ مُقحَمِ
وقَـد غابَ عَنْهُمْ والِدٌ لمْ تَزَلْ لهُ هُنَالِكَ في الميْدانِ جَوْلاتِ مُلْحِمِ
تَمُـوجُ المَنَـايَـا حَوْلَهُمْ ومَكـائِدٌ وتبْتَلِعُ الأَمَـواجُ وثْبَةَ ضَيْغَمِ(٢)

* * *

وأَقْبَـلَ صِربِـيٌّ لئـيمٌ كَأَنَّـهُ تَدَفُّقُ أَرْجَـاسٍ ووحْـلٍ ومَـأْثَمِ
ومِنْ حَولِهِ، لو كُنْتَ تَشْهَدُ، عُصْبَةٌ تُجَمِّـعُ مِن بَاغٍ طَغَى ومُـزَنَّمِ(٣)

(١) موستار: عاصمة الهرسك. وهي من أجمل مدن يوغوسلافيا بعد دوبروفنيك. وتشتهر بمسجد كرادوز بيك الذي أنشيء في القرن السادس عشر الميلادي، وبجمال مبانيها ومساجدها ونوافيرها وجسرها الذي عمره أكثر من ٤٠٠ سنة.

(٢) ضَيغَم: الشديد.

(٣) مُزَنَّم: دعيّ، لئيم، ملحق بقومه.

كَأنَّـك لو أبْصَرْتَ هَوْنَ غُرُورِهِمْ تَرَى قَزَمًا في ثَوبِ أيْهَم أجْسَمِ[1]

فَفُـزِّعَ مَنْ في البَيْتِ مِنْ هول حِقْدِه وهَبُّوا وقَدْ أفْضَىٰ الجَبَانُ إلَيْهِمِ

تَرَى طِفْلَةً لمْ تَبْلُغِ السَّبْعَ رُوِّعَتْ تَمُـرُّ بِعـيـنَـيْهـا تَدُورُ عَلَيْهِمِ

عَلَيْـهَـا رِداءٌ أحْـمَـرٌ لمْ يَزَلْ لَهُ بَقَـايـا حَدِيثٍ للطفـولةِ مُنْعَمِ

وأصْداءُ أشْوَاقِ الطُّفُولَةِ لم تَزَلْ تَمُـوجُ عَلَيْـهِ في رجَـا وتـوسُّمِ

ومِنْ خَلْفِهَـا أُمٌّ حَنَتْ لِتَضُمَّهـا وشَيْخٌ تَشَكَّىٰ يالِضَعْفي ومَهْرمي

وطِفْلٍ رضِيعٍ كَادَ يَزْحَفُ نَحْوَهُمْ ويَصْـرَخُ يَادُنْيَا اشْهَدِي وتَكَلَّمي

ولمـا رَأَتْ ذاتُ الـرِّدَاءِ رَجَاءَها وأشواقَهَا لم تُوقِظِ الخيْرَ فِيهِمِ

تَرَاجَعَتِ الآمَـالُ وارتَـدَّ خَطْوُهَا تَشَبَّثُ بالأم الحَنـونِ وتَحْتَمي

فَصَوَّبَت الدُّنْيا الرَّصَاصَ إلَيْهِمِ تَدَفَّقَ في رأسٍ وصَدْرٍ ومِعْصَمِ

وأبلىٰ النِّظام العـالميُّ بِخنجَرٍ لِيَطْعَنَ في ظَهْـرٍ وجيـدٍ وأعـظِمِ

يَدُورُ عدوُّ الله بالنَّـارِ بَيْـنَـهُـمْ لِيُفْـرِغَ من حِقـدٍ شَدِيـدٍ عَليْهِمِ

تسـاقَطَتِ الأُمُّ الحَنونُ وأفْلَتَتْ يَدَاهَا وأهْوَتْ فِي بِحَارٍ مِن الدّمِ

وطِفْلَتُهَـا أهْـوتْ تَصُبُّ دِمَاءَها عَلَيْهَـا، وطِفْـلٌ قد تَنَـاثَر فِيهمِ

وشيخٍ تَهَاوَى! يَالأشـلاءِ أمَّـةٍ تَهَـاوَتْ بِهِ! يَالِلْحُطَـامِ المُكَوَّمِ

---

(١) أيْهَمَ: من لا عقل له ولا فهم.

ومَجْدٍ تَهَاوَى! بين أَطْلَالِهِ تـَرَى بَقِـيَّـةَ تاريـخٍ ودَمْـعَـةَ يُتَّـمِ

* * *

ولم يبْقَ إلا قِطْعَـةُ مِنْ ردَائِهـا عَلَيهـا بَقايَا من حَديثٍ ومِن دَمِ

كَأنَّكَ لو أَصْغَيْتَ تَسْمَعُ صَيْحَةً تَضِيْـعُ بِدُنيـا مُجْـرِمينَ ونُـوَّمِ

وسَالَتْ دِمَاءٌ! فالتقى النُّورُ عِنْدَهَا وعِـطرٌ وأَنـداءٌ وطلعـةُ مُسْلِمِ

ليبْزُغَ مِنْها الفَجْرِ يَنْشُر من هُدَىً ويجْلُوَ مَيْـدانَ الشَّبابِ المعَلَّمِ

وَدَوَّى مَعَ الفَجْرِ الأَذانُ وأَوَّبَتْ هِضَابٌ وعادَتْ بالدُّعَا والتَرَحُّمَ

كَأَنَّهُـمُ أَهْـوَوْا إلى اللـه سُجَّـداً يُجيبُونَ أَشْوَاقَ النِّدَاءِ المُحوِّمِ

وَقَدْ خَشَعَتْ كُلُّ البِطَاحِ ورجَّعَتْ صَدَاهُ الرُّبى يَا للنِّداءِ المُعظَّمِ

ودَوَّتْ بـه: أَللَّــه أَكْبَـرُ! رَدّدي إذنْ يَا رَوابي مِنْ هُـداهُ وَعَلِّـمي

* * *

ضياع قوافل اللجوء
بين هوان المسلمين واستغلال الدول الكبرى

تَدفَّــقُ مِنْــهَــا كُلَّ يَوْمٍ قَوَافِــلٌ يَشُقُّ دُرُوبــاً بِالأَسَى والتَـظَلُّمِ

دُرُوبَ لجُوءٍ في الفَيافي تَقَطَّعَتْ عَلَى دَمْعَـةٍ أَو حَسْـرَةٍ أَو تَنَدُّمِ

يَمِيلُون بالطَّرْفِ الذَّليـلِ لَعَلَّهُم يَرَوْنَ وَرَاءَ الأُفْقِ طَلَعَــةَ مُسْلِمِ !

قَوَافِلُ تَمْضِي بَيْنَ أَفْوَاجِ رُضَّعٍ وأَحْـزَانِ ثَكْلَى أَو تَبَـارِيحِ أَيِّمِ

وبَيْنَ صَبَــايــا! يالِذُلِّ دُمُـوعِها وأَفْــواجِ أَطْفَـالٍ وأَمْـواجِ يُتَّمِ

قَوافِـلُ تَمْضي وهي تَسْحَبُ خَطْوَها ذَليلاً عَلَى شَوْكٍ مُدَمٍّ ومُوَضِمِ[1]

لَقَدْ خَلَّفُوا التَّاريخَ يَدْمَى وخَلفُّوا أَباً في مَيَادِينِ الجِهَادِ المُضَرَّمِ

لَقَدْ خَلَّفُوا بَيْنَ المَيَادِين عُصْبَةً تُقَــاتِــلُ عَنْ دِينٍ أَعـزَّ وأَقْـوَمِ

فَهـلْ ثَبَتــوا فيهــا أم الْتَقَمَتْهُمُ بُطُونُ وُحُـوشٍ أَو مَخَالِبُ قَشْعَمِ؟!

يُفَـرِّقُــهُـمْ كَيْــدٌ شَديــدٌ مُدَبَّـرٌ ومَكْـرُ شَيـاطِينٍ وعُـدْوانُ مُجْرِمِ

لَعــلَّكَ لوْ عَايَـنْتَ أُمّــاً إذا دَنَــا فِراقٌ وهَاجَتْ بَيْنَ دَمْعٍ ومَبْسَمِ

وزَوجَــاً يُدَاري زَوجَــه وصَبِيَّــةً وطِفْلاً وأَشْوَاقَ الفِراقِ المُصَرِّمِ

تَجَلَّدَ كي يُخفي الدُّموعَ ولمْ يَزَلْ يُدَافِــعُــهــا بَيْنَ الأَسى والتَحلُّمِ

---

(١) مُوضِم: مؤلم، مُذِل.

عَرَفتَ إذَنْ هَوْلَ الجَرِيمَةِ والمَدَى وشِـدّةَ مَكْـرٍ قَاتِـلٍ مُتَـوَغِّمِ [١]

جَرَائِمُ! أشْـواقُ الطُّفُولة لم تَزَلْ تَمُـوجُ بِهَـا في لَهْفَـةٍ وتَلَوُّمِ [٢]

تَكَادُ عُيونُ الطِّفْلِ تَسْأَلُ من أنا؟! إلى أيْنَ أمضي؟! يَافيافي تَكَلَّمي!

وَأَيْنَ أبي والأهل، ويْحي، وإخْوَتي؟! ولَهْفَـةُ سَاحَـاتٍ وطَلْعَـةُ أَنْجُمِ

وأَيْنَ حَنَانُ الأُمِّ أَوْ ضَمُّ صَدْرِها؟! وتَحنَـانُ عَيْنَيْها وحُلْوُ التَّبَسُّمِ

إذا اغْرَورَقَتْ عَيْنَاهُ غَابَ وراءَها مَلَاحِـمُ تاريـخٍ وأَشـواقُ هُيَّمِ

* * *

ويَسْـأَلُ: مَنْ هذي الوجُوه تَحُوطُني تَبِيـعُ وتَشـري بي ولمْ تَتَأَثَّمِ؟!

كَأَنّي إذنْ أصْبَحْتُ سِلْعَـةَ تَاجِرٍ لئـيـمٍ يُواري كَيْـدَه بالتكَـرُّمِ

فَشَتَّانَ بَيْنَ الفَضْلِ يأتِيه صَادِقٌ وبَـيْـنَ يَدٍ مَنَّتْ بِثَـوبٍ ودِرْهَمِ

وبَينَ حَنانِ الأُمِّ هَاجَت ضُلُوعُها وبَـيـن مُراءٍ خَادِعٍ مُتَـعَـلِّمِ

أَتَحْمِلُني دُورُ النَّصَـارَى وبَيْعَةٌ وسَاحَاتُ شِرْكٍ أو منازِلُ سُوَّمَ؟!

لتُـنْـزَعَ مِنّـي فِطْرَةٌ وَطَهـارَةٌ ويُغْـرَسَ بي شِرْكٌ وفِتْنـةُ مَأْثَمِ

فَيَا وَيْحَ نَفْسي! أَيْنَ قَوْمي وعُرْوَةٌ مِنَ الدِّينِ كَانَتْ لُحْمَةً لَمْ تُفَصَّمِ

---

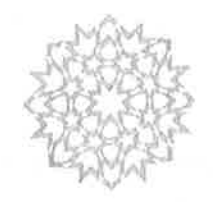
(١) متوغِّم، مغتاظ، قاهر.

(٢) تَلَوُّم: تَلَوَّم في الأمر تَمكَّثَ وانتظر.

أَضَاقَتْ دِيَارُ المُسْلِمينَ وضُيِّقَتْ عَلَى رَحْبِهَا؟! يا للبَلاءِ المُرَغِّم[1]

فسِيحي إذنْ في الأرْضِ يائِسُ! دُونَنا أعاصِيرُ من تِيهٍ وأَمْواجُ غَيْهَمِ[2]

* * *



(١) المرَغِّم: الملصق أو الملزم للتراب.

(٢) غَيَهمٍ: ظلمة.

انهيار الحضارة الغربية
مع هول الجريمة الدولية

هُنا يُسْحَقُ الإنسان! تَهْوِي شوَامِخٌ مِنَ الخيرِ أَطْلالَ البناءِ المَهَدَّمِ
هُنا يُهزَمُ المسْتَكْبِرون بِظُلمِهمْ وَلَوْ فَتَحوا داراً وَفَازُوا بِمَغْنَمِ
تُمَحَّصُ في هذا البَلاءِ حَضَارةٌ لِيُكشَفَ زَيْفٌ مِنْ شِعَارٍ ومَزْعَمِ
وتُشْرِقُ في قَلْبِ الدَّيَاجِير عُصْبَةٌ بِكُلِّ تَقِيٍّ مُقْبِلٍ غَيرِ مُحجِمِ
يَدُقُّونَ أَبوابَ الجِنَانِ تَزَاحَموا عَلَيْها وشَوقٌ قَدْ أَلَحَّ بِهم ظَمِي
أُولئك يَبْنُون الحَضَارَة والنُّهَى ويُعْلُوْن مِنْ مَجْدٍ عَلَى الدَّهْرِ مُلْهِمِ

* * *

ومُسْتَكْبِرٍ في الأرض جُنَّ جُنونُهُ وأَفْرَغ من حِقْدٍ كريهٍ مُذَمَّمِ
وكَيدِ عِصَاباتٍ تَوَارَتْ وراءَهُ تَمُدُّ يَداً تُغْنيهِ إِنْ ضَاقَ أَو رُمي
وَقَالَوا «نِظَامٌ عَالَميٌّ» يَصُونُها وَقَدْ كَذَبُوا والله! ياهَوْلَ مَأْثَمِ!
لَقَدْ كَان بالأمس القَريب مُدَوِّياً عَنِيداً بِمكْرٍ ظاهِر الكَيدِ مُحْكَمَ
فَما بَالهُ أَضْحَى هُنَا أَبْكماً وَعَنْ جرائِم أَهْل «الصِّرْبِ» لاهٍ بِهَا عمِ
وَسَكَّرَت الدُّنيا العُيُونَ فَلَمْ تَعُدْ تَرَى غير أَعمَى أَو أَصَمَّ وأَبْكَمِ
عِصَابَاتُ إِجْرامٍ تَدُورُ بِمَكرِها مَعَ اللّيْلِ أَشتاتَ الهوى المُتَوَهَّمِ

يَظُنُّـون أَنَّ الليـل بَاقٍ ومَـادَرَوْا بِأَنَّ على الآفَـاقِ إِشْـراقَ مُسْلِمِ
يَشُقُّ الدُّجَى نُوراً ويَطْرَحُ ظُلْمَةً عَنِ النّاسِ في فجْرٍ أَطلَّ مُوَسَّمِ
أَمَا عَلِمُـوا! لا يُفْلِـتُ الظالـمُ! إِنَّهُ يُـرَدُّ إلى عُقْبَـى بَـلاءٍ مُـحَتَّمِ
عَلَـى قـدَرٍ للـه مــاضٍ وسُنَّــةٍ وقَهْـرٍ بِكيْـدِ المُجْـرِمِيـنَ مُحَكَّمِ

* * *

عزة الفتوح الإسلامية وخيرها على الإنسان

حَنَنْتُ إلى عَهْد الفُتُوح وعِزَّةٍ أطَلَّتْ عَلَى الدُّنْيا وَزَهْوَةِ مَقْدَم
فُتوحُ يَموجُ النُّورُ في وَثَبَاتِها وتَنْطِلِقُ البُشْرَى لِعَانٍ ومُعْدَمِ
تُعيدُ إلى الإِنْسَانِ فِطْرَتَه هُدًى وَتَحْطُمُ غُلًّا عَنْ رِقاب وَمِعْصَمِ
أَعَزُّ أمَانِيْهَا ولَهْفَةُ شَوْقِها هِدَايَةُ إنْسَانٍ وإيقاظُ نُوَّمِ
وَمَا هزَّهَا شَوْقٌ لِدُنْيا رَخِيْصَةٍ ولا نفَرَتْ يَوْماً لِشَهْوَةِ مَغْنَمِ
تُبَلِّغُ دِينَ الله للنَّاسِ آيةً ونَهْجاً عَلَى حقٍّ مِنَ اللَّـه مُحْكَمِ
فَتَفْتحُ بالحَقِّ المُبينِ قُلُوبَهُمْ لِيَمْضُوا عَلَى عَهْدٍ مِنَ اللَّه مُلْزِمِ
ويُقْصَمُ جَبَّارُ شَقِيٌّ مُعَانِدٌ يُرَدَّى على نَصْلٍ ويُطْوى بِلَهْذَمِ
جِهادٌ فَتِيْتُ المِسْكِ مِنْ نَفَحَاتِه ورفٌّ رَبيعٍ بالنَّدَى مُتَبَسِّمِ
كَأَنَّ الرَّوابي إنْ أطَلَ تَفَتَّحتْ أزاهِرَ واهتَزَّتْ لِعيدٍ ومَوْسِمِ
كأَنَّ قُلُوبَ النَّاسِ نُورٌ وبَهْجَةٌ تَرَى فَرْحَةَ البُشْرَى على كُلِّ مَبْسِمِ
فَهَذا هُو الإسْلام! أَمْن لِخَائِفٍ وحَقٌّ لمظْلومٍ وعِزَّةُ مُسْلِمِ
تَسيرُ به في الأَرْض هِمَّةُ عُصْبةٍ وطائِفةٍ للحقِّ تَعْلو وتَنْتَمي[1]

---

(١) إشارة إلى الطائفة الظاهرة التي تحدّث عنها رسول الله ﷺ في حديثه الشريف: عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لاتزال طائفة من أُمَّتي ظاهرين على =

تَشُقُّ بِه الأَزْمَـانَ نُوراً ممـوَّجـاً عَلَى قَدَرٍ لله مَاضٍ ومُـبْـرَمِ

* * *



= الحق لايضـرّهم من خذلهم حتى يأتي أمـر الله وهم كذلك». رواه مسلم. كتاب (٣٣). باب (٥٣) حديث (١٩٢٠). وفي رواية عن عمران بن الحصين ـ رضي الله عنـه ـ: «. . . يُقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم. . . ». رواه أبو داود. كتاب الجهاد (٥). باب (٤). حديث (٢٤٨٤) وجاء في صحيح مسلم بنصوص مختلفة ولكنها كلها متماسكة متناسقة.

أوروبـا
تغلق منافذ النور القادم إليها من الأندلس

فياوَيْلَ «أوْرُوبّا»! وَقَدْ جَاءها الهُدَى لِيَجْلُوَهـا بالنُّـور مِنْ كُلِّ مأثَمِ

كَأَنَّ عَلىٰ أبْـواب «أنْـدَلُس» لَهَا مَطَالِعُ إشْـرَاقٍ وإقْـبَـالُ أنْعُمِ

فَصَـدَّتْـه! ثُمَّ اسْتَكْبَرَتْ وَتَمرَّدَتْ على الحقِّ في طُغْيَـانِها المُتَضَرِّمِ

وغَلَّقَتِ الأَبْـوابَ وانْقَطعَ الهُدَى وغـابَتْ عَلىٰ لَيْلٍ من الشرِّ أهْيمِ [1]

وماجَت شَياطِينُ الفَسَادِ وأطْلَقَتْ وُحُوشاً ومَدَّتْ مِنْ ثَعَالِبَ ضُرَّمِ [2]

فَيَا وَيْحَها! غَشَّى الضلالُ بصيرةً وأعْـمى فؤاداً في هَوَىً مُتحكِّمِ

إذا أغْلَقَتْ في الغَرْبِ باباً مِنَ الهُدَى فَإنَّ جُنُـودَ اللهِ في كُلِّ مَعْـلَمَ

أَتَـوْهَا من الشّرْقِ الغَنيِّ كَتائِباً تَوَالَتْ إلى زَحْفٍ على المَوتِ مُقْدِمِ

سَيَبْقَى دُعَاةُ اللهِ في الأَرضِ أُمَّةً تَدُكُّ قِلاعَ الشِّرْكِ في كُلِّ مَأْزَمِ [3]

---

(١) ليل أهيم : لانجوم فيه تظهر.

(٢) ضُرَّم : شديدو الجوع .

(٣) مأزم : موضع الحرب والأزمات.

الفتوح الإسلامية وزحوفها إلى أوروبا

فَيَـا لِبني عُثْمانَ مَاجُوا وَأَقْبَلوا كَتـائِبَ توحِيـدٍ وطَلْعـةَ أَنْجُمِ

كَأَنَّ الليَالي الغَافِياتِ عَلَى الرُّبى طَلَعَنَ بِفَجْـرٍ صَادِقٍ غَيْـرِ مُبْهَمِ

يَقـودُ «مـرادٌ» جَوْلَةً بعـد جَولَةٍ ويَدْفَعُ من جَيْشٍ عَلَيْها عَرَمْرَمِ (١)

فَيَا أَرْضَ بَلْقَانٍ أَضِيئِي مَشاعِلاً وصُـوغِي أنـاشيداً لَهُمْ وتَرَنَّمي

وَيَـا لِزُحُوفِ المؤمنين! تَواثَبي وشُقّي مَيَـادين الوغَى وتَقَـدَّمي

وخُوضِي جِهَاداً في سَبِيل رِسَالَةٍ وعـزَّةِ نَصْـرٍ زَاهِرِ المجْدِ مُعْصِمِ (٢)

وزُفّي تَبَـاشيـرَ الهُدَى «لأدرْنَةٍ» بِفَـتْـحٍ غَنيٍّ بالوفَـاءِ مُوَسَّمِ(٣)

---

(١) السلطان مراد الأول بن أورخـان الغـازي (٧٢٦هـ ـ ٧٩١هـ). تولى الحكم سنة (٧٦١هـ) وعمره (٣٥) سنـة. تقدّم في بلاد البلقان وفتح أدرنة سنة (١٣٦٥م). ويقول رضا العراقي في كتابه البوسنة والهرسك (ص: ١٤) أنه فتح «جنيبلو» سنة (١٣٥٣م). وانتصـر في معركة «كوسوفو» على جيوش الصرب والبوسنة والهرسك والأرنؤوط والأفلاق والبغدان (ملدوفيا). وبعد المعركة تجول بين القتلى والجرحى، فقام صربيّ جريح فطعنه طعنة قاتلة توفي على أثرها.

(٢) مُعصِم: أَعْصَم فلاناً: هيّأ له مايعصمه.

(٣) أدرنة: في منتصف تركيا الأوروبية كان اسمها «أدريانوبل» نسبة لمؤسسها «هادريان» الروماني سنة (١٢٥م). وبقيت عاصمة العثمانيين إلى أن فُتحت القسطنطينية.

ورُدِّي عَلَيْـهــا مِنْ حُلِيٍّ وزِينَــةٍ لآلِيءِ تَزْهـو بين جِيدٍ ومِعْصَمِ

لتُصْبِـح بالهَـدْيِ المنوَّرِ قَصْبَة لمُلكٍ عَزيـزٍ في الديِّـارِ مُعَـظَّم

«أدِرنَـةُ»! أصبَحْتِ القَصِيـدَ وغُنْيَةً لكُـلِّ تَقـيٍّ في هَوَاكِ مُتَـيَّـمِ

إِذَنْ أَطْلِقي زَحْفَ الجيوشِ ورَجِّعي صَدَى كُلِّ نَصْرٍ في الميـادين مُلْهِمِ

* * *



فتح مقدونيا
ومعركة كوسوفو

وَيَـا أرضَ «مَقْدُونيا»! أضيىء بِشُعْلةٍ ... من الحقِّ في هذي الميادين وانْعَمي[1]

ألا واسْكُبي في «الصِّرْب» نُوراً مموَّجاً ... يُزيـحُ ظلامــاً من أسىً وتَجهُّمِ

لَعَـلَّ قُلوبَ المُجْـرِمينَ بِأرْضِهَـا ... تَلِيْـنُ عَلى حَقٍّ أَجَـلَّ وأَحْـكَـمِ

فَتَـدْخُـلَ في دِينٍ أَبَـرَّ بأهْلِهَـا ... وتَرْفَعَ مِنْ ظُلْمٍ على النَّاس أَجْثَمِ

وياسَاحَةَ «البُلغَار» هذي طَلائِعُ ... أَتَتْكِ بِخَيْرٍ وافِرِ الجُودِ مُنْعمِ[2]

أجيبي نِدَاءَ الحَقِّ ياسَاحُ واخْشَعي ... إلى اللهِ! رِدِّي مِنْ قَنَاكِ وأَسْلمي

أبى المجْـرِمُـون الظالمون وأوغَلوا ... «بِحِلفٍ» وهَزُّوا مِنْ قَنَاةٍ ومِخْذَمِ[3]

وظَنُّوا بِأنَّ «الحِلْفَ» مُنْجٍ ومَا دَرَوْا ... بِأنَّ جُنـودَ الله بالله تَحـتَـمـي

فيـا يَومَ «كـوسـوفـو» تَدُورُ دَوائِـرُ ... على الشِّرْكِ في أفْقٍ من البُؤْس أقْتَم

تَدور المَنَـايـا والرّزايا بِسَاحِها ... لِتُلْقِيَ أهْـلَ الشِّـرْكَ نَارَ جَهَنَّمِ

وتَـرْفَـعَ أشـواقَ الجِهـادِ لِجَنَّةٍ ... تَلألا مِنْ نُورِ الشَّهيـدِ ومِن دَمِ

ويُشْـرقُ نَصْـرُ المُـؤْمنين بآيَـةٍ ... مِنَ الله في بُشْرَى وطُهْرَةِ مَغْنَم

---

(١) تمّ فتح مقدونيا سنة ١٣٦٥م، على يد السلطان مراد الأول.

(٢) تحالف الصرب والبلغار ضد العثمانيين، فهزمهم العثمانيون سنة (١٣٧١م).

(٣) مخزم: السيف القاطع.

هُنـــالكَ رَدَّ الله كَيْـــدَ عدوّهِ وألقاه في ذُلٍّ مِنَ الخزي موضِمٍ[1]

* * *



---

(١) مُوضِم: موجع، مؤلم.
معـركـة كوسوفو وقعت بين الجيش الإسلامي يقوده السلطان مراد الأول وبين ملك الصرب وماجمع من جيوش أمراء آخرين مثل ألبانيا وغيرها سنة٧٩١هـ (١٣٨٩م). كتب الله فيهـا النصر للمسلمـين. راجع الباب الأول، الفصل الثاني (ص: ٤٩، ٥٠). ولكن قُتل السلطان مراد الأول بعد المعركة بيد صربيّ حسب الرواية الواردة في الفصل الثاني. إلا أن مجلة الشاهدة تورد رواية أُخرى، وهي أن أَحد أُمراء الصرب أعلن إسلامه وطلب مقابلة السلطان ليُقَبِّل قدمه. فلـمَّا مُنع بكى ورفع صوته. ولما سمعه السلطان أمر بالسماح له. فلما دخل واقترب عاجل السلطان بطعنة خنجر مسموم [مجلة الشاهدة ـ العدد الأول ـ ص: ١٣].

محمد الفاتح
وفتح بلغراد وقسطنطينية

فَيَا لَبَني عُثْمانَ مِنْ كُلِّ أَمْجَدٍ أَغَرَّ وعَزْمٍ صَادقٍ غير مُحْجِمِ

أنَابُوا إلى الرَّحمن ثُمَّ تَوَاثَبُوا بُرُوقاً على المَيْدانِ وثبَةَ ضَيْغَمِ

جِهاداً لِيُوفُوا مِن رِسَالة ربِّهم بَلاغاً إلى الدُّنيا وحُجَّة مُعْلِمِ

بَيَاناً لمنْ يَسْعَى إلى الحقِّ والهُدَى وسَيْفاً لِمنْ يَسْعَى لِشَرٍّ ومأثَمِ

فما كَانَ مِنْ مَجْدٍ سِوَى أنهم مَضَوا مَعَ الله في عَهْد منَ الدين مُكْرِمِ

ليُشرِقَ من قَلْبِ الميادينِ فارِسٌ أعزُّ وعزْمٌ مِنْ فتيٍّ وضَيئم [1]

هو «الفاتح» الماضي إلى كُلِّ جَوْلةٍ يَبَرُّ بِهَا عَهْداً ويُفِضي لمغْنَمِ

لمَغْنَمِ هذا الدين والحقِّ والتُّقى وعزّة إنْسَانٍ ونَجْدَةِ مُصْرَمِ [2]

* * *

ودَارَ على «بَلغرادَ» زَحْفُ كَتائِبٍ تَوَالَتْ وحَشْدٌ مِنْ تقِيٍّ وصِلْدَمِ [3]

وأَشْرَقَ فِي السَّاحَات نُورٌ وكبَّرتْ هِضَابٌ وآبَتْ بالهُدَى والتَسَلُّمِ [4]

* * *

---

(١) ضَيئم: الشديد وبه يسمى الرجل. والمقصود هنا السلطان محمد الفاتح.

(٢) مُصْرَم: قليل المال. محتاج.

(٣) صِلدِم: الأسد الشديد الصلب.

(٤) التَسَلُّم: تَسَلَّم أي أسلم وانقاد وصار مسلماً.

وَيَـايَـوم «قُسْـطَنْطِينةٍ» ومُحَمَّدٌ أَطَلَّ بِفَتْـحٍ صَادِقِ العَهْدِ أَحْزَم

أَطَاعَ رَسُـولَ الله فِيهـا وصَدَّقَتْ عَزائِمُه بُشْرى الحديث المكرَّم[1]

فَنِعْمَ الأَميـرُ اليَـومَ فاتِحُ دَارِها لتُصبِحَ «إسْلامْبُولُ» قَلْعَةَ مُسْلِمِ

وتُصبِـحَ للإِسْـلَامِ قَصْبَة دَارِه وآيَـةَ حُسْنٍ مِنْ نَداهُ ومِيسَمِ[2]

يَمُـوجُ بِهـا نُورُ السَّلام وتَجْتلي على سَاحِهَا الأَمْجَادَ جولةُ هيزَمِ[3]

* * *

---

(١) إشارة إلى حديثه ﷺ: عن عبدالله بن بشر الخثعمي عن أبيه [بشر بن سحيم رضي الله عنه] أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «لَتُفتَحَنَّ القسطنطينية فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش». أخرجه الحاكم في المستدرك والبخاري في تاريخه الكبير.

(٢) مِيْسَم: أثر الحسن والجمال.

(٣) هيزم: الصلب، الشديد، الأسد.

فتح البوسنة والهرسك ودخولهم في الإسلام[1]

حَنَانيكِ يا «أسلامبول»! يادُرَّةً على لَآلِيء عِقْدٍ بالفُتُوحِ مُنَظَّمِ[2]

أمَهَّدتِ «للبوسْنا» دُرُوباً فأَطْلِقي كَتَائِبَ إيمانٍ إلَيْها ويَمِّمي

ويافاتِحَ «أسْلامبول»! هذي مَنَازِلٌ تحِنُّ إلى لُقْيَاكَ فانْهَضْ وأَقْدِمِ

ففي سَاحَةِ «البُوسْنا وهِرْسِك» أُمَّةٌ تَطَلَّعُ للهَدْيِ الذي فِيهِ تَحْتَمي

أصَابَهُمُ ظُلْمٌ من «الصِرْبِ» مُوجعٌ ومِنْ كُلِّ باغٍ بالعَدَاوةِ مُسْهِمِ

فيا وَيْحَهُمْ! باسْم «الصَّليب» تَجَمَّعُوا عَلَى الشرِّ مِنْ دَاعٍ ومِنْ مُتَقَحِّمِ

فَكَمْ مَزَّقُوا طِفْلاً هُناكَ وقَتَّلوا شُيُوخاً وردُّوا من شَرابٍ ومَطْعِمِ

وكم هَتَكُوا عِرْضاً حَرَاماً ومارَعَوا حُقُوقَ شِعَاراتٍ دَعَوها ومَزْعَمِ

وغَاصُوا بأوْحَال الجَرائِم كُلِّهَا يَقُولُونَ هذا دِينُ عِيسَى بنِ مَرْيَمِ

لَقَدْ كَذَبُوا واللهِ! عيسَى مُبَرَّأً مِنَ الظُّلْمِ ، مِن شِرْكٍ تَعَاظَمَ فِيهِمِ

وَمَا دينُ عيسى غَيرَ دِيْنِ مُحمَّدٍ رِسَالةِ إسْلام وحُجَّةِ مُفْحِمِ

---

(١) تم فتح البوسنة والهرسك على يد السلطان محمد الفاتح سنة ٨٦٨هـ (١٤٦٤م) كما سبق ذكره.

(٢) سَمَّى العثمانيون مدينة القسطنطينية بعد فتحها «إسلامبول» أي تخت الإسلام ومدينته.

وذلِكَ دِينُ الأنبِيَاءِ جَمِيعِهِمْ رِسَالة تَوحِيد وذِمَّة مُسْلِمِ
وَمَا فَرَّقَ الأدْيانَ إلّا هوىً جَرَى مع النّاس في دُنْيا تَدورُ عَلَيْهِمِ
وهبَّ بنو «البُوسْنا وهِرْسِكَ» كُلُّهمْ إلى الحقِّ في دينٍ أبَرَّ وأَقْومِ
وهَبُّوا لأشوَاقِ الجِهَادِ وأقْبَلوا عَلَى السَّاحِ في شَوْقٍ إلى الله أعْظَمِ
وأَسْلَمَ أقْوَامٌ إلى الله خُشَّعُ ومن يَعْتَصِمْ بالله يَاقَوْمِ يُعْصَمِ
فكم أُمَّةٍ دانَتْ إلى الحقِّ وارتَقَتْ هُنَاكَ بفَضْلِ الله أرفعَ سُلَّمِ
فمن أرْضِ «ألْبَانِيا» ومِنْ أرْضِ «سِنجِقٍ» طَلاَئِعُ أبْطالٍ عَلَى السَّاحِ حُوَّمِ
مِنَ «الصِّرْب» و «البُلْغار»، مِنْ كل سَاحَةٍ طَوائِفُ آبَتْ للهُدَى المُتَرسَّمِ
لِيُخرِجَ دِيْنُ اللّه للنَّاس أُمَّةً إلى أطْيَبِ الأنْسَابِ تَعْلُو وتَنْتَمي[1]
إلى نسبِ الإيمان مِنْ كلِّ أمجَدٍ مَعَ الحقِّ ماضٍ للعُلا مُتسَنِّمِ
لِيَجْمَعَ أعْراقَ الشُّعُوبِ عَلَى هُدًى فمِنْ عَرَبيٍّ عزَّ فيه وأعْجَمي
وتُطْوَى جَهَالاَتُ الشُّعُوب وتَخْتَفِي بِهَا عَصَبيَّاتُ الشَّقِيِّ المهَدَّمِ
ويشرقَ في الإنْسانِ جَوْهَرُ فِطْرَةٍ وعِزَّةُ أشْوَاقٍ ونفحَةُ خِضْرِمِ[2]
فَتُخْرَجَ في إحسانِهَا خَيرُ أُمَّةٍ إلى النَّاسِ في هَدْيٍ مِنَ الله أكْرَمِ
لِتُؤْمِنَ بالرَّحْمنِ، تَنْهَى عَنِ الخَنَا، وتَأْمُرَ بالمَعْروفِ مَنْ ضَلَّ أو عمي

(١) نسب الإيمان والتوحيد وأُخوة الإسلام.
(٢) خِضرِم : الجواد المعطاء، السيِّد الحمول.

فَيَـا أُمّـة الإسْـلام مَجْـدُكِ زاهِرٌ مَعَ الدَّهْـرِ لم يَهْرَمْ ولم يَتَصَرَّمِ
فَقُـومي لِعَهْـدِ الله، أَوْفي بِحَقّـه ومَنْ لم يَصُنْ عَهْدَاً مَعَ الله يَنْدَمِ

* * *



البوسنة والهرسك في عزة الإسلام

حَنَانَيْكِ يَا «بُوسْنا» وَيَا دَارَ «هِرْسِكِ» فأَرْضُكِ مَاجَتْ بِالدَّمِ المَتَضَرِّمِ
بَذَلْتِ وأَغْنَيْتِ الحَيَاةَ فَهَذِهِ سَبِيلُ التُّقَى فارْقَي لَهَا وتَرَسَّمي
وَزَيَّنْتِ أَعْطافَ الخِلافَةِ فاهْنَئي بمجْدٍ نَدِيٍّ في رُبُوعِكِ وانْعَمي
قُرُونٌ تَوَالَتْ والحَيَاةُ غَنِيَّةٌ بِحَلْيٍ من الأَمجادِ زَاهٍ مُنَمْنَمِ
نَثَرْتِ وُرُوداً مِنْ نَدَاكِ فَفَوَّحَتْ بِعِطْرٍ غَنِيٍّ في المَرَابِعِ مُلْهِمِ
بَنَيْتِ بُيُوتَ الله حَتَّى كَأَنَّهَا لآلِيءُ مَاجَتْ فَوقَ ثَوبٍ مُرَقَّمِ
مَآذِنُ شَقَّتْ في السَّمَاءِ مَسَالِكاً وَرَجَّعَتِ التكْبِيرَ في كُلِّ مَعْلَمِ
ودَوّى عَلَى الآفَاقِ رَجْعُ نِدائها فَزَلْزَلَ أَركَانَ العَدوِّ المُحَوِّمِ
يَدُورُونَ مِنْ حوْلِ الحِمَى وَقُلُوبُهُمْ تَمُورُ بِحِقْدٍ أَسْوَدٍ لمْ يُكتَّمِ
بَنَيْتِ بُيُوتَ العِلْمِ نُوراً فَشَيِّدِي قِلاعَكِ، صُونِي مِنْ حِيَاضِكِ وأسْلَمي
فإِنَّ عَدُوَّ الله دُونَكِ مَاكِرٌ تَربَّصَ في جُنْدٍ حَوالَيْكِ جُثَّمِ
فَإِنْ تغْفُلُوا يَوماً يَميلُوا عَليكُمُ بنارٍ تَلَظَّى أو بغَدْرٍ مُصَلِّمِ[1]
أَعِدُّوا لَهُمْ! لِلهِ في الناسِ سُنَّةٌ تدورُ بِهِمْ في دُوْلَةٍ وتَصَرُّمِ

---

(١) مُصَلِّم: مستأصل.

عَلَى حِكْمَةٍ تَمْضي تُمَحِّصُ عِنْدَها قُلُوبٌ وَيُجْلَى كُلُّ أَمْـرٍ مُغَمْغَمِ
بَقِـيْـتِ عَلَى عِزٍّ مُدِلٍّ ورِفْـعَـةٍ وجَـوْلَةِ دَاعٍ للهُـدَى مُتَجَشِّمِ
وَفي الأَرْضِ عِزٌّ للخِلافَةِ شَامخٌ وزَهْـوَةُ عَدلٍ في الدِّيـار مُخيِّمِ
وَقُـوَّةُ سُلْطانٍ أنـابَ لِرَبِّـه وأَوْفَى بِعَهْـدٍ في الجِهَـادِ مُكَرَّمِ

* * *



بدء ضعف الخلافة
وسقوط بعض البلدان بيد الأعداء

وَلَّمـا وَهَى عَزْمٌ ومَالتْ إلى الدُّنا نَفَـوسُ وضَلَّتْ فِي هَوىً مُتَحَكِّمِ
وأَغْـرَاهُم فَرْشٌ وثيـرٌ وزُخْـرُفٌ وزِيـنَـةُ قَصْـرٍ أو طَرَاوَةُ أَنْعُمِ
وَضَاعَتْ حُقُوقٌ للرَّعِيّةِ وانْطَوَتْ عَدَالةُ مِيـزَانٍ مِنَ الحَـقِّ مُلْزِمِ
وضَجّتْ قُلوبٌ مِنْ أسىً ومَظَالمٍ فَكَمْ ضجَّ مِنْ شَاكٍ ومِنْ مُتَـظَلِّمِ
هُنـالِكَ شُقَّت للشَّيـاطِين فُرْجَـةٌ تَسَلَّلَ مِنْهـا مُجْرِمٌ بَعْـدَ مُجْرِمِ
وفُـتِّحتِ الأَبـواب! كُلُّ مُنـافِقٍ يُوَالي عَدُوّاً جَاءَ غَيـرَ مُذَمَّـمِ
وأَطْلقَ أَبْنـاءُ النَّصَـارَى ذئابَهُمْ لِتَعْـوِيَ أو تَنْسَلَّ في كلِّ مَعْلَمِ
وأَطلق أَبْنَـاءُ القُـرُودِ سُمُومَهُمْ وسُمَّ الأفاعي في عُروقٍ وأَعْظَمُ
تَجمَّـع أهْـلُ الشِّرْكِ مِنْ كُلِّ مِلَّةٍ نِفَـاقٌ وكُفْـرٌ أو ضَلالُ التـوَهُّمِ
ومـاجَ عَلَى الآفَـاقِ لَيْـلٌ كَأَنَّـه زُحـوفُ دَواهٍ من أسىً وتَـأَزُّمِ
وعَـادَت لَنَا الأَحْزابُ حَتَّى كَأَنَّها صَدَى «خَنْدَقٍ» حَوْلَ المدينةِ مُحْكَمِ[1]
هُنَـاكَ رَسُـولُ الله صَدّ زُحُـوفَهـا وَأَصْحَـابُـه مِثْلُ البِنَاءِ المُدَعَّمِ
فَأَنْـزَلَ ربُّ العَـالمَـينَ بفضله بَشَائِرَ نَصْرٍ صَادقِ الوَعْدِ مُبْرَمِ

---

(١) إشارة إلى معركة «الأحزاب» أو «الخندق» أيّام الرسول ﷺ.

فَمنْ لِزحُوفِ اليَومِ ! والناسُ جُلُّهُمْ طوَائِـفُ شَتّــى بَيْن لاهِينَ نُوَّمِ

* * *

تَضَعْضَعَ بُنْيَانُ الخِلافَةِ وانْثَنَتْ جُيوشٌ عَنِ المَيْدان بَعْدَ تَقَدُّمٍ
وَمَاجَتْ وأَطْرَافُ الخِلافَة نُهْبَةٌ لأَعْـدائِهَـا مَابَيْنَ غازٍ ومُوْهِمِ
يَموُجْون! يَنْقَضُّون مِنْ كُلِّ جَانِبٍ كَأَمْثَالِ شُهْبٍ في المرابعِ رُجَّمِ
حُروبٌ تَوالتْ مِنْ قَياصِرِ «روسيا» ومِنْ سَاحَةِ النّمْسَا ومِنْ كُلِّ مَأْزَمِ
ومِنْ دُوَلٍ شَتّى يُغَذِّي ضِرامَهَا مَكائِدُ «رُومَا» وَالعِدَوُّ المُجَمْجِم[1]
تَخَفَّى وَرَاءَ الدّينِ يَكْتُم حِقْدَهُ ويكتُمُ أَطْمـاعـاً ونَهْمِةَ مُتْخَمِ
لِيَـدْفَعَ قِطْعَاناً تَثُورُ، وحِقْدُها يَمُوجُ على شَرٍّ لَهُمْ مُتَوَخِّمِ[2]
حَنَـانَيْكِ يادَارَ الخِلافَةِ فاصْبري وَعُودي لَميدَانِ الجهادِ وأَقْدِمي
تَفَلَّتَ مِنْ كَفَّيْــكِ أَرْضٌ وأَفْلَتَتْ شُعُـوبٌ وثارَتْ فِتنَةٌ لمْ تَصرَّمِ
تَفَلَّتَتِ «البوسْنا» و«هِرْسِك» فاجْزَعي وأَشْـواقُ شَعْبٍ صَابِـرٍ غَيْـرِ مُحْجِمِ
وضَـاعتْ «كُسُـوفو»! يالِهَولِ جَريمةٍ و «أَلبـانيـا» أَضْحَتْ بقبضَـةِ مُجْرِمِ
وغابَتْ وَرَاءَ الأُفْقِ عَنْكِ قِبَابُهَا على غُصَصٍ مِنْ حَسْرَةٍ وتَنَدُّمِ
وَغَابَ أَذانٌ! والصَّدَى يَدْفَعُ الصَّدَى عَلَى أُفُقٍ نـاءِ المَسَـالِكِ أَقْتَمِ

* * *

(١) المجَمْجِم: الذي لايبيِّن كلامه.
(٢) مُتَرخِّم: منتن.

تلاقَتْ عَلَى الآفَـاقِ أَدْمُـعُ أُمَّةٍ وَغَابَتْ عَنِ الآفَاقِ وثَبَاتُ ضَيْغَمِ
وصَارَتْ شُعُوبُ المُسْلِمين بِسَاحِهَا قَوافِـلَ تِيـهٍ أَوْ تَبـارِيحَ هُوَّمِ
أَطَلَّتْ وَرَاءَ الأُفْقِ منْهـا مَآذِنُ تُنَادي وتَدْعُو كُلَّ قِرْنٍ مُعَظَّمِ
وتَـدْعُـو شُعُوبَ المُسْلِمينَ وقَدْ غَفَوا عَلَى جَهْلِهِمْ في حَيْـرَةٍ وتَبَرُّمِ
تَقُـولُ لَهُمْ: هَـذِي مَيَادِينُ عِزَّةٍ فَصُبُّوا هُنا ياقَوم ماعِزَّ مِنْ دَم
سَتَمْضِي عَلَيكُمْ إن رَكَنْتُمْ مَذَلَّةٌ تَذوقُونَ مِنْ صَابٍ عَلَيْها وعَلْقَمِ
أَتَعْنُـوا رِقَابُ المُسْلِمِينَ لِكَافِرٍ وَتَخْضَعُ دارٌ للعَدُوِّ المُصَلِّمِ [1]
وكيفَ يُوَلِّي المُسْلِمُـونَ لِكَافرٍ ظُهـورَهُمْ يَوْمَ اللِّقَـاء المُلَحِّمِ
فَواحَسْـرَتَـاهُ والتَـوَلِّي مُحَرَّمٌ فَيـا وَيْلَ مَنْ مَالُوا لأَمْرٍ مُحَرَّمِ
وكَيْفَ يُوَالِي المُسْلِمُـونَ وَيَرْكَنُوا لمُسْتَكْبِرٍ في الأَرْضِ بَاغٍ مُذَمَّمِ
إِذَنْ فَقَدُوا حقَّ المُوالاة وارتَخَتْ رَوابِـطُ إيمـانٍ وَلحْمَـةُ مُسْلِمِ
وأَطْبَقَتِ «النَّمسَا» عَلَيْها وأَنْشَبَتْ مخالِبَهَا في كُلِّ عُضْوٍ مُكَدَّمِ [2]

* * *

(١) المصلِّم: المستأصل.

(٢) مُكدَّم: مَرْضوض. وقد أصبحت «البوسنة والهرسك» تخضع للنمسا بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م. ثم ضمتها النمسا إليها سنة ١٩٠٨م.

أوروبــا تعود لتصد
الهدى وتمنع النور القادم إليها من الشرق

عَجِبْتُ «لأوروبـا» أئِنْ يَأتِها الهُدى تَصُـدَّ وتستكْبِـرْ عَلَيْـهِ وَتُحْرَمِ
يَلُفُّ رُبَـاهَـا اللَّيْـلُ حتى كَأَنَّمـا يَلوذُ بِهِ حَشْـدُ الطَّغَاةِ ويَحْتَمي
حَنَائيكِ يَا «بُوسْنا» ويَادارَ «هِرْسِكِ» حَنَـانَيـكِ مِنْ شَرٍّ حَوَالَيْكِ مُقْدِمِ
صَبَبْتِ دِمَـاءً مِنْ عُروقِـكِ حُرَّةً كَأَنَّـكِ في بَحْـرٍ هُنَـاك مُعَمَّمِ[1]
صَبَرْتِ وأَشْهدتِ البَرايا فطأْطَأَت لِصبْرِكِ إجْلالاً شُهُودُ التلوُّمِ[2]
وحَـسْـبُـكِ أَنَّ الله أَوَّلُ شَاهِـدٍ وأوفى بَعَهْـدٍ فاصْـدُقي وتَقَدَّمي
صَبَـرْتِ وعَلَّمتِ الشُعُـوبَ بِآيَةٍ مِنَ الصَّبْرِ فامْضي في سَبيلِك علِّمي
ففي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ دِمـائِـكِ دَفْقَـةٌ ونَفْحَـةُ مِسْكٍ من جِهادِكِ مُفْعِمِ[3]
وفـي كُلِّ يَومٍ شُعْلَةٌ مِنْ حَرَائِقٍ تُضيء بلَيْـلٍ في سمـائِكِ مُعْتِمِ
حَرَائِقُ يُورِيهَـا الصَّلِيبُ بِحِقْدِه ويَـنـفُـخُ فِيـهـا كُلُّ باغٍ مُلَثَّمِ
ويُشْعِلُهَـا «البابا»! ويُوري وَقُودَهَا عَصَائِبُ من بَغْيٍ عَلَيْها مُحَوِّمِ
غَزَوْها وجَاسُوا في الدِّيارِ وهَدَّموا مَعَـاقِلَها! يَا ويَـلَ بَاغٍ مُهَـدِّمِ

---

(١) بحر مُعمَّم : كثير الماء.
(٢) التلوُّم : تلوَّم في الأمر مكث وانتظر.
(٣) مسلك مُفعم : أفعم المسكُ البيتَ : طيَّبه.

وأَلْقَـوا مَلايينَ الصّحَائِفِ لُقْمَةً إلى النّارِ! يَانارُ انطقي وَتَكَلَّمي[1]
وقُولـي: «هُلاكَو» عَادَ يَنْشُرُ فتنةً و «غـرْنـاطَةٌ» بين اللهيبِ المضَرَّمِ
و «تُونُسُ» يُلقي «شَارِلكَانُ» عُلومَها عَلَى النّار في حِقْدٍ شديد التَّوَغُّمِ[2]
أَهذي حَضَاراتٌ وهٰذي دِيانَةٌ؟! فَيَـا بِئسَ مَاقَالوا ويا شَرَّ مَزْعَمِ
غَزَوكِ ومَــايَـرْعَـوْن إلَّا لِمـؤمِنٍ ولا ذِمّــةً! طَبْــعَ العَـدُوِّ المكَتِّمِ
لَقَـدْ حَارَبُوا الله العلِيَّ وأَسْرَفُوا بِغَـيِّـهِـمِ والله يُمْـلي إلَيْـهِـمِ
يُريدُون أن يستَأصِلوا الدِّينَ والهُدى وعِـزّةَ تَوْحيـدٍ وشـأفـةَ مسلمِ
سَيَأخُذُهم! لايُفلِتون وإن وَهَتْ شُعُوبٌ وأَغْفَتْ في هوىً وتَنَعُّمِ

* * *

(١) لقـد استـولى الدوق «يوجين دي ساقوا» على «سراييفو» التي كانت تسمّى «بوسنة سراي» وحـرقهـا سنـة ١٦٦٧م ونهب قسماً من مخطوطات مكتبتها الوطنية، التي مازالت في مكتبة «فينا» ومتحفها، وحرق الباقي. فكرر بعمله هذا مافعله هولاكو في بغداد، والكردينال خمنيس في غرناطة، وشارلكان في تونس، فكلهم أحرقوا الكتب وناصبوا بذلك العلم ورجاله ومؤسساته العداء. وماقامت به قوّات الصرب مؤخراً من حرق المكتبة الوطنية في سراييفو هو حلقة من هذا الإجرام [مقالة محمود السيد دغيم الحياة. العدد ١٠٨١٤ في ١٨/١٩٩٢٩/م].

(٢) التوغّم: الانتظار والمكث.

نذير من الله للمسلمين

فواعَـجبَـاً لِلمُسْلِمينَ! دِيـارُهُمْ تُنـاشُ وأَعْـرَاضٌ تُبـاحُ لمُجْـرِمِ
وفي كلِّ سَاحٍ رَجْفَـةٌ مِنْ زَلازلٍ تَمُـورُ بهـا! يا للنّـذِيـرِ المعلِّم!
هنـالك في «بـورما» مَذَابح أُمَّةٍ تَدورُ وفي «كشمير» دفقٌ من الدَّمَ
وفي ساحـة الأَقصى بلاء وفتنةٌ على خَطرٍ فوقَ الديـار مُخَـيِّـمِ
يَمـدُّ به الأَعـداءُ نابـاً ومخلبـاً وثـورَةَ أَطمـاعٍ وكَـيْـدٍ مُدَعَّمِ
ومـااستيقـظ الغافون من سكراتهم ولا وثَبُـوا للحقِّ وثبَـةَ أَحـزْمِ
فَهـلْ سُدَّت الآذان؟ هَلْ سُكِّرت إذن: بَصَائِرُنَا؟! هل من مُجيبٍ ومُسْهِمِ
فيا لِهَوانِ النَّاس! كَيف ارتدادهم عَن الحقِّ في لَيلٍ من الشَرِّ مُعْتِمِ
وَيَـا وَيْـلَ من يَلْهُـو وَيتْرُك أُمَّةً تُبَـادُ ويَغْفُـو في هَواهُ ويَـرْتَمي
ستمضِي عَلَيْهمْ سُنَّـةُ الله آيَـةً فَتُلْقِيـهِ في لَيْلٍ مِن الشَرِّ أشأَم
وتَفْضَـحُ مِنْ غِدْرٍ طَوَاه مُنَـافِقٌ شَقـيٌّ ومَـن كَيْـدٍ أَشَـدَّ مُكـتَّمِ

* * *

أيمضي على لَهْوِ الحَياةِ أَخُو هوًى رخيصٍ ويَغْفُو في فِراش مُنَعَّمِ
ولَيْسَ بِنـاجٍ مَنْ يغـطُّ بِنَـوْمِهِ وليسَ بِمُجـدٍ بَعْـدُ حَسْرةُ لُوَّمِ

* * *

سلام على البـوسنـا! على كلِّ صادقٍ مَعَ الله، وثّابٍ عَلَى الموت، مُسْلِمِ

* * *

السبت ٤/٦/١٤١٣هـ

٢٨/١١/١٩٩٢م

الفهرس

ملحمة

البوسنة والهرسك

الجريمة الكبرى

كتب للمؤلف

- دور المنهاج الرباني في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الخامسة .
- الشورى وممارستها الإيمانية ـ الطبعة الثالثة .
- الشورى لا الديمقراطية ـ الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الأول ـ الطبعة الرابعة .
- لقاء المؤمنين ـ الجزء الثاني ـ الطبعة الثالثة .
- منهج المؤمن بين العلم والتطبيق ـ الطبعة الثالثة .
- التوحيد وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثانية .
- العهد والبيعة وواقعنا المعاصر ـ الطبعة الثانية .
- النهج والممارسة الإيمانية في الدعوة الإسلامية ـ الطبعة الرابعة .
- النيّة في الإسلام وبعدها الإنساني ـ الطبعة الأُولى .
- الولاء بين منهاج الله والواقع ـ الطبعة الثانية .
- الحوافز الإيمانية بين المبادرة والالتزام . ـ الطبعة الثانية .
- نهج الدعوة وخطة التربية والبناء ـ الطبعة الأُولى .
- منهج لقاء المؤمنين ـ الطبعة الأولى .
- «خطة الداعية The Caller's Plan » باللغة الإنجليزية ـ الطبعة الأُولى .

- الأدب الإسلامي إنسانيته وعالميته ـ الطبعة الثانية .
- الحداثة في منظور إيماني ـ الطبعة الثالثة .
- تقويم نظرية الحداثة ـ الطبعة الأُولى .

- ديوان الأرض المباركة ـ الطبعة الخامسة .
- ديوان موكب النور ـ الطبعة الثالثة .
- ديوان جراح على الدرب ـ الطبعة الثانية .

- ملحمة الغرباء ـ الطبعة الثانية .
- ملحمة القسطنطينية (فتحان) ـ الطبعة الأُولى
- ملحمة الجهاد الأفغاني ـ الطبعة الثالثة .
- ملحمة فلسطين الطبعة الرابعة .
- ملحمة الأَقصى ـ الطبعة الأولى .
- ملحمة الإسلام في الهند ـ الطبعة الأولى .
- ملحمة البوسنة والهرسك ـ الجريمة الكبرى ـ الطبعة الأُولى .

- على أبواب القدس ـ الطبعة الثانية .
- فلسطين بين المنهاج الرباني والواقع ـ الطبعة الثالثة .
- الصحوة الإسلامية إلى أين؟ ـ الطبعة الثانية .

- دراسة انتشار الموجات الإلكترومغناطيسية المتوسطة (باللغة الإنجليزية) ـ الطبعة الأولى .

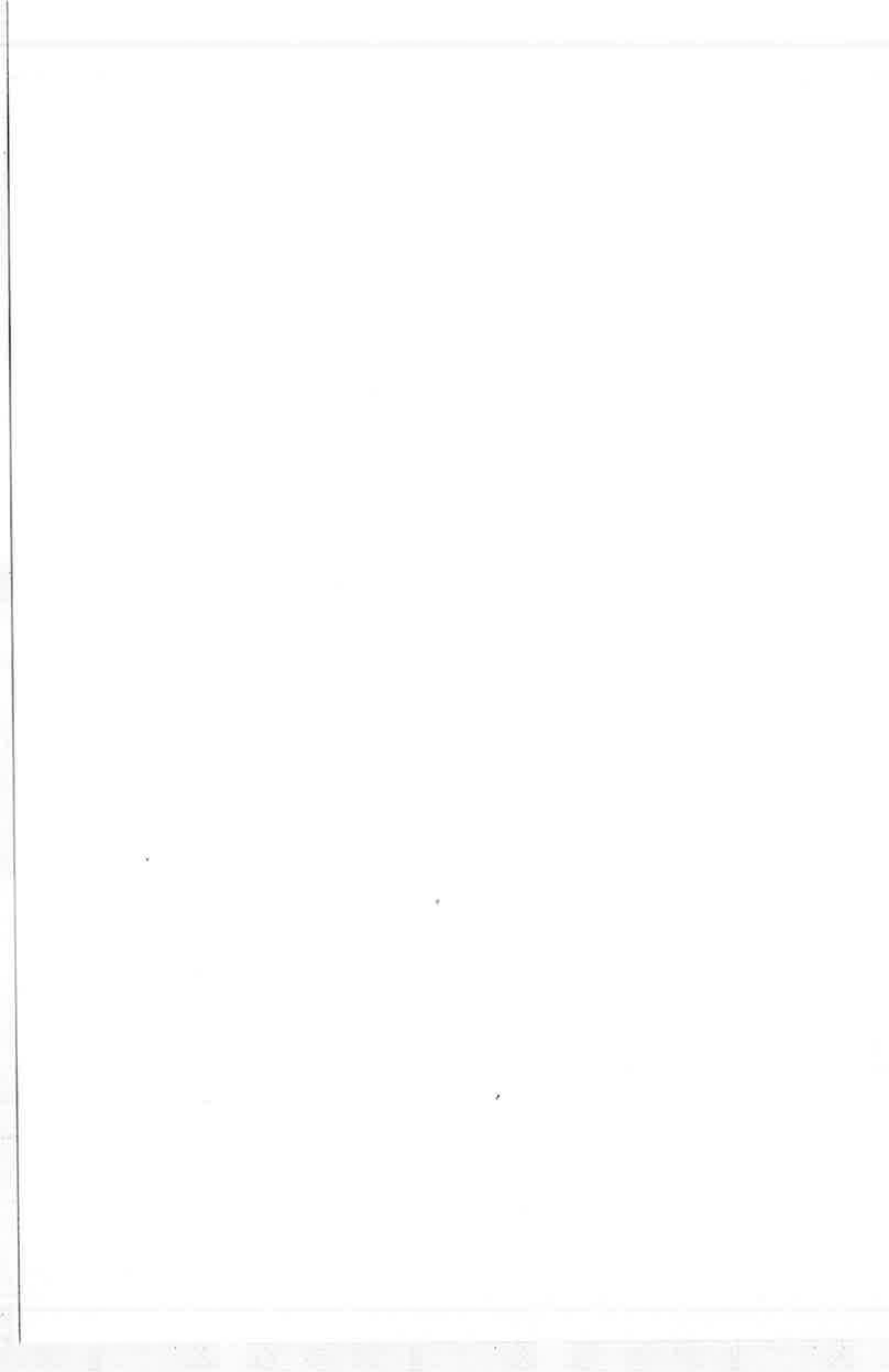


دار النحوي للنشر والتوزيع

ص. ب ١٨٩١ ـ الرياض ١١٤٤١

الهاتف والفاكس : ٤٠١٠٢٥٧

المملكة العربية السعودية



مع هذا الكتاب

إن منطلق هذه «الجريمة الكُبرى» في «البوسنة والهرسك» هو الأَهواء والمصالح المتضاربة التي لاتخضع لميزان من عقل أو قيم أو دين. حتى اولئك الذين يرفعون شعارات الدين المحرّف لم يكن لهذا الدين خلال تاريخ طويل أي دور في حسم مشكلات الإنسان أو حلِّها، أو رفع الإنسان إلى المستوى الكريم من إنسانيته. ولم تستطع الحضارة الكاذبة التي يدّعيها، ولا جامعاتها ولا علومها ولا مصانعها ولا سائر مظاهر الرّقيّ المادي أن تلجم روح الوحشية والإجرام المريع في نفسه. فهبط هذا الإنسان ابن هذه الحضارة وابن هذا الدين المحرّف إلى أحطّ درجات الإجرام في تاريخ وحشيّ طويل. انظر ما فعلت محاكم التفتيش بالمسلمين في إسبانيا، وما فعل الإنجليز بالمسلمين في الهند وفلسطين وسائر البلاد التي اعتدوا عليها ونهبوها، وما فعلت فرنسا بالمسلمين في الجزائر وغيرها مما اعتدت عليه من ديار الإسلام. وانظر هول الجريمة التي اقترفها الصليبيون في المسجد الأقصى، وانظر كيف أبادت أمريكا الهنود الحمر، وكيف سرقت الأعداد الهائلة من المسلمين في أفريقيا تسوقهم ليعملوا عبيداً في مزارعهم في أمريكا، وكيف ألقت أمريكا القنابل الذرية على ناجازاكي وهيروشيما، وما يفعل الهندوس بالمسلمين في الهند وكشمير وبورما، وما يجري في الفليبين. سلسلة طويلة من الوحشية والإجرام في تاريخ طويل هبط بهذا الإنسان إلى «أسفل سافلين» تحت شعارات الحضارة وزخارفها، وشعارات الدين المحرّف الذي لا يتبعونه! هذا الإنسان المتوحش هو نفسه الذي يرتكب اليوم الجريمة الكبرى في البوسنة والهرسك والعالم لاه يتطلّع!

لذلك أصبح العالم كله، أصبحت الشعوب كلها، أصبح الإنسان في كل مكان بحاجة إلى الإسلام، فهو وحده الذي يستطيع أن يلجم أهواء الوحوش إذا صدقت جنود الإسلام ودعاته في الميدان الحق!

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ ★ الرياض